

السيد حسن بن السيد
محمد النمر الصائغ الموسوي

دار الولاء
بيروت - لبنان



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

حكمة القرآن
في
سورة لقمان



لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN978-614-420-021-6

اسم الكتاب: حكمة القرآن في سورة لقمان
المؤلف: السيد حسن بن السيد محمد النمر الصائغ الموسوي
الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الاولى: بيروت ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

حكمة القرآن في سورة لقمان

السيد حسن بن السيد
محمد النِّمر الصائغ الموسوي




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق والمرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعدُ:

فإنّ الإنسان مُبتلى في حياته بآفتين فتّاكتين، يدفع ثمنهما بشكل أو بآخر، وهما:

الأولى: (الخطأ)، على مستوى العلم والمعرفة.

الثانية: (الخطيئة)، على مستوى السلوك.

وكما هو واضح فإنّ هاتين الآفتين تصيبان الإنسان بأذى في بُعديه الذَيْن يتكوّن منهما، لأنّ هذا الإنسان مركّبٌ معقّدٌ، لا يمكن لحياته أنّ تستقيم دون أنّ يجنّب نفسه الجهل المعرفي بتأمين المعرفة الصحيحة من مصادرها الموثوقة، وإلا وقع في (الخطأ). ودون أنّ يتجنّب الجهل السلوكي، بتأمين البصيرة والإرادة اللازمتَين، وإلا ابتُلي بـ (الخطيئة).

وما يؤمِّن للإنسان الزاد للتوقّي من هاتين الآفتين هو ما نسميه بـ(الحكمة)، وقد تُقابَل وتضادُّ بـ(السفه) أو بـ(الجهل)، أو بـ(الطيش)، ونحو ذلك. وهذه الحكمة من المفاهيم الواضحة والمعاني المحبّبة إلى النفوس؛ فلسنا نجد إنساناً ولا جماعةً لا تنشدها وتنشدُّ إليها، كما لا نجد أمةً من الأمم إلا وقد بذلت الجهود الجبارة في الوصول إلى (الحكمة)، ثمّ ما لبثت أنّ صاغتها، بقصد ووعي حيناً وبغير قصد أو التفات أحياناً، في قوالب سمَّتها (حكمة) تارةً، أو (مَثَل) تارةً أخرى.

ثمّ جاء المؤلّفون واجتهدوا في جمع الأمثال والحكم، لتَختَصر الأجيالُ اللاحقةُ الطريقَ في التعرُّف على معالم الحكمة، مؤكّدين أنّ العلم بـ(الحكمة) وحده لا يكفي، بل لابد إلى ذلك من العمل، فهناك - إذاً - علم الحكمة كما أنّ هناك حكمة العمل.

والحكمة، بإيجاز شديد، وبعد ما قدمناه، يمكن تعريفها بأنها: معرفة ما ينبغي أنّ نعرف، وعمل ما ينبغي أنّ نعمل.

ولا ريب أنّ الحكمة، بركنيها هذين؛ أعني (العلم والعمل)، لا غنى للعاقل الحصيف عنهما، ولا غنى في صرف الجهود المناسبة لتحصيلهما، ولا مناص من تحمُّل أعباء ذلك مهما اشتدّت وتأزمت.

وما أحوج الإنسان في هذا العصر، وفي كلّ عصر، إلى تلقّي الحكمة والتوفر عليها إذا ما أراد، أو أريد له، أنّ يخرج من المشكلات والمعضلات إذا وقع فيها، أو أُريد له أنّ يتجنّب الوقوع فيها قبل ذلك.

وباعتبار أنّ مصادر الحكمة المتاحة أمام الناس متعدّدة فلابدّ من السعي في اتجاهين:

١ ـ تمييز الصائب منها والخاطئ.

٢ ـ تحديد المصادر الصحيحة والمتينة للحكمة المطلوبة.

انطلاقاً من هذا الهمّ والاهتمام عقدنا العزم على طلب الحكمة وتلمُّسها، تمهيداً لتمثُّلها إنّ شاء الله تعالى، وأنّ نتعرّف على (حكمة القرآن في سورة لقمان). ونؤكّد هنا أنّ البحث تطبيقيٌّ أكثر منه نظرياً، لذلك قد نبتعد قليلاً عن البعد الفلسفي والتنظيري للحكمة.

وسبب اختيارنا لهذا الموضوع يتمثّل في إيماننا العميق والقاطع بأنّ القرآن الكريم هو مصدر الحكمة الذي لا ريب فيه ولا باطل يأتيه من بين يديه ولا من خلفه. كما أنّ لقمان هو النموذج الإنساني لـ(الحكيم)، وقد ساقه الله تعالى كـ(قدوة)، باعتباره تلميذاً نجيباً في مدرسة الحكمة، استوعب ما ألقي إليه منها، وعمل على تجسيدها، بل سعى في ترويجها بين الأبعدين والأقربين.

وكتمهيد بين يدي البحث وجدتُ أنّ من المناسب إلقاء نظرة عجلى على بعض ما قيل في الحكمة في التراث الإنساني من شرق الأرض وغربها، قديماً وحديثاً، فـ(الحكمة ضالّة المؤمن، فحيثما وجد أحدكم ضالّته، فليأخذها)[1]، ثمّ نعرِّج على بعض ما روي من دروس الحكمة عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام باعتباره وارث حكمة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، حيث قال ـ في ما رواه الفريقان ـ: «**أنا مدينة الحكمة وعليٌّ بابها**». وقد ورد هذا المضمون بصيغ متعدّدة، منها ما جاء في (موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ) للشيخ محمد الريشهري، حيث عقد فصلاً للتعريف بعلي عليه السلام، باعتباره باباً لحكمة النبي محمد صلى الله عليه وآله، أورد فيه النصوص التالية[2]:

(١) روضة الكافي، باب الرقة والبكاء، الحديث ١٨٦.

(٢) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، ج ١٠ ص ٢٧ ـ ٢٩.

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «**أنا مدينةُ الحكمة وعليٌّ بابُها، فمَن أراد الحكمةَ فليأت البابَ**»[1].

٢ ـ قال ﷺ: «**أنا مدينةُ الحكم ـ أو الحكمة ـ وعليٌّ بابُها، فمَن أراد المدينةَ فليأت بابَها**»[2].

٣ ـ قال ﷺ: «**معاشر الناس! أنا مدينةُ الحكمة وعليُّ بنُ أبي طالب بابُها. ولن تؤتى المدينة إلا من قِبَل الباب**»[3].

٤ ـ قال ﷺ: «**يا عليُّ! أنا مدينةُ الحكمة وأنت بابُها، فمَن أتى المدينة من الباب وصل**»[4].

٥ ـ قال ﷺ: «**أنا مدينةُ الحكمة وهي الجنة، وأنت ـ يا عليُّ ـ بابُها، فكيف يهتدي المهتدي إلى الجنة؟! ولا يُهتدى إليها إلا من بابها**»[5].

٦ ـ قال ﷺ: «**أنا دارُ الحكمة وعليٌّ بابُها**»[6].

---

(١) تاريخ بغداد: ٥٠٩٨/٢٠٤/١١، المناقب لابن المغازلي: ١٢٨/٨٦ كلاهما عن ابن عباس؛ الأمالي للطوسي: ١٠٥٥/٤٨٣ عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عوالي اللآلئ: ٢٠٦/١٢٣/٤.

(٢) تاريخ دمشق: ٨٩٨٤/٣٨٢/٤٢ عن جابر بن عبد الله؛ الأمالي للصدوق: ٨٤٣/٦١٩، بشارة المصطفى: ٢٣٠ كلاهما عن الريان بن الصلت عن الإمام الرضا عليه السلام عنه ﷺ.

(٣) الأمالي للصدوق: ١٩٧/١٨٨ عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام وص ٤٠٨/٣٤٢، كمال الدين: ٦٥/٢٤١ كلاهما عن ابن عباس، بشارة المصطفى: ٢٤ عن عبد الله ابن الفضل الهاشمي عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام عنه ﷺ، روضة الواعظين: ١١٦.

(٤) تفسير فرات: ٢٩/٦٤ عن علي بن سالم الأنصاري والحسين بن أبي العلاء وعاصم عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٥) الأمالي للصدوق: ٦٣٢/٤٧٢، الأمالي للطوسي: ٩٦٤/٤٣١ كلاهما عن جابر عن الإمام الباقر عن آبائه عليهم السلام، مائة منقبة: ٩٤/١٤٨ عن أبي سعيد الخدري، روضة الواعظين: ١٣٤.

(٦) سنن الترمذي: ٣٧٢٣/٦٣٧/٥، فضائل الصحابة لابن حنبل: ١٠٨١/٦٣٥/٢، تاريخ دمشق: ٨٩٧٥/٣٧٨/٤٢، حلية الأولياء: ٦٤/١، البداية والنهاية: ٣٥٩/٧ كلّها عن الصنابحي، المناقب

٧ ـ قال ﷺ: «**معاشر الناس! أنا دارُ الحكمة وعليٌّ مفتاحُها، ولن يوصل إلى الدار إلا بالمفتاح، وكذب من زعم أنه يحبّني ويبغض علياً**»(١).

٨ ـ قال ﷺ: «**أنا ميزانُ الحكمة وعليٌّ لسانُهُ**»(٢).

وواضحٌ أنّ لكلِّ صيغةٍ من هذه الصيغ مغزى يختلف عن المغزى من الصيغة الأخرى، ولسنا الآن بصدد البحث عن:

١ ـ الفرق بين أنّ يكون علي عليه السلام باباً لمدينة الحكمة تارة، ولدار الحكمة أخرى.

٢ ـ ولا عن الفرق بين أنّ يكون باباً للمدينة أو مفتاحاً لها.

٣ ـ أو عن الفرق بين أنّ يكون علي عليه السلام لساناً والنبي ﷺ ميزاناً.

ولكن لا يفوتنا التأكيدُ على أنّ الحكمة إذا كان لها قيمةٌ، فإنها ليست ذاتيةً إلا بقدر ما تؤدّي بالإنسان إلى سعادته التامة والباقية، وهذا ما جلاه لنا الرسول بقوله ﷺ: «**أنا مدينةُ الحكمة وهي الجنة، وأنت ـ يا عليُّ ـ بابُها، فكيف يهتدي المهتدي إلى الجنة؟! ولا يُهتدى إليها إلا من بابها**».

وليكن ما نورده في الفصلين معاً تمهيداً لما سنقرأ معالِمَهُ ومحدِّداتِهِ ومُعطَياتِهِ في سورة لقمان من حكمة القرآن.

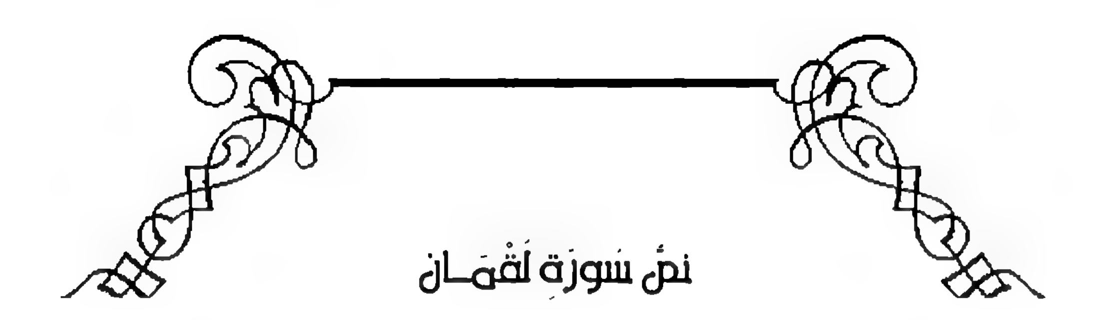
لابن المغازلي: ١٢٩/٨٧ عن الصنابحي وكلها عن الإمام علي عليه السلام وزاد في آخره (فمن أراد الحكمة فليأتها).

(١) الأمالي للصدوق: ٥٧٤/٤٣٤ عن أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

(٢) كتاب (شرح ديوان منسوب به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للميبدي بالفارسية): نقلاً عن الرسالة العقلية للغزالي، الغدير: ٨٠/٦.

وأخيراً، فإنّ كان في هذا الكتاب ما يصلح أنّ يُنسب إلى القرآن الحكيم فهو من توفيق الله وعونه، وإن كان فيه خطأٌ فمن عندي، وهذا شأن القاصِر المقصِّر، وأسأل الله تعالى العفوَ والمغفرةَ، ومن القرّاء الكرام الصفحَ والتسديدَ.

السيد حسن بن السيد
محمد النِّمر الصائغ الموسوي
المملكة العربية السعودية ـ الدمام
١٤/٢/ ١٤٢٩ هـ



نص سورة لقمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ
﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن
تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا
خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ
ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ
قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾
وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن
تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾.

الفصل الأوّل

الحِكمَةُ
فِي التُّرَاثِ الإِنسَانِيّ

تعريف التراث الإنساني

نعني بـ(التراث الإنساني): المعرفة الإنسانية التي لا تُنسب إلى الوحي. وهي ما نطق به الفلاسفة والأدباء والشعراء ... دون أنّ ينسبوه إلى كتاب سماوي أو تعليم نبوي. وبالطبع، فإنّ هذا لا يعني أنه منقطع الصلة تماماً عن الوحي ومعارفه.

والتجوال السريع في جوانب التراث الإنساني المتنوع والمختلف من حيث مصادره وطبيعته، يجد أنها تلتقي في مسائل كثيرة، على مستوى الأصول والتفاصيل معاً، فمما اتفق عليه الناس أصل الحكمة. وإلى ذلك اتفقوا على بعض جوانبها، كما اختلفوا في تطبيقات كثيرة، انتقينا ما ينبغي التوقف عنده ضمن العناوين التالية:

١ ـ تعلّمُها من أيّ أحد

لا يختلف الناس، وهم بطبعهم طلاب حكمة، في أنَّ تعلّم الحكمة يعتبر ضرورة، لأنّ حياة الناس إنما تستقيم بها وتتصدّع بقدر ما تبتعد عنها، ولا ينبغي لطالب الحكمة أنّ ينظر إلى القائل، وإنما إلى القول، ولذلك اشتهر بين الناس المثل القائل: (لا تنظر إلى مَن قال، بل انظر إلى ما قال)، بمعنى قوله إنّ كان صواباً وحقاً فاللازم أخذُهُ والاستفادةُ منه، لأنه من مفردات الحكمة.

وفي ذلك يقول الشاعر القروي[1]:

---

(١) البعلبكي، الدكتور روحي، موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، مادة (حكمة).

اسْتَقِ الحكمة لا يَشْغَلْكَ من أيِّ ينبوعٍ جرَتْ يا مُستقي
فشعاعُ الشمس يمتصُّ الندى من فمِ الوردِ ووحلِ الطُرُقِ

وهو معنى رقيق ينبه الشاعر فيه إلى أنّ ماء الحكمة ينبغي أنّ يستقيه طالبها، ويستعين في الحث على ذلك بأنّ شعاع الشمس يمتص ويجفف قطرات الماء سواء كانت ندى على أطراف الورود، أو في أوحال الطرق وأطيانها.

٢ ـ صعوبة الوصول إليها وطريقه

(الحكمة)، التي هي مشتّقة من الإحكام والإتقان، مما لا يُتاح لكلّ أحد، ليست من الأمور المبتذلة، بل إنّ التعرّف عليها، فضلاً عن تطبيقها، قد يتطلّب الكثير من الجهود وتجاوز العقبات، وهذا ما أدركه من أوتي حظاً من الفهم والمعرفة، حتى سيق كلامه مثلاً وحكمة، ومن ذلك ما يلي:

أ ـ قال أوربيديس [من أهل القرن الخامس قبل الميلاد]: (لا بدّ للحكيم من أنّ يعاني في سبيل الفهم بحكمة أوفر)[1]. وهذا يعني أنّ طريق الحكمة العلمية ليس معبّداً بالورود، بل لا بد فيه من معاناة للحصول على معلومة صائبة.

ب ـ قال بوالو [المتوفى ١٦٦٤]: (الأكثر حكمة هو مَن لا يعتقد أبداً أنه كذلك)[2]. وهذا يعني أنّ على طالب الحكمة، فضلاً عن الحكيم، أنّ لا يخطر بباله أنه انتهى من مسيرة الحكمة ببلوغه نقطة معينة، أو أنه قد تربع على قمتها، لأنه مهما علا كعبُهُ فيها، فإنّ أمامه الكثير والكثير من الدرجات، لأنّ الحكمة كمال، والكمال لا حدّ له ولا نهاية. وبالتالي فإنّ المطلوب هو أنّ لا يركن أحدٌ

(١) شيخاني، سمير، قاموس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، مادة (حكم).
(٢) المصدر نفسه.

إلى ما يخطر في باله من خاطر في بلوغه الحكمة.

وأمّا الحكمة الإيطالية فتترقّى لتقول: (أولى درجات الجنون اعتقاد المرء بأنه حكيم، والثانية هي إعلانه ذلك)[١].

ج ـ قال إدوارد يونغ [المتوفّى ١٧٤٢ م]: (الثروة يمكن أنّ تقبل إلينا، ولكنّ علينا أنّ نذهب شخصياً نحو الحكمة)[٢]. وهو كلامٌ جميل، وإن لم يكن جديداً كما نعرفه نحن المسلمين، في بيان الفرق الجوهري بين الثروة والحكمة، فالأولى مالٌ يمكن أنّ يجنيه مالكه بالوراثة، إذا مات واحدٌ ممن يرثهم، وبطبيعة الحال فإنّ الوارث يجني مالاً لم يبذل فيه جهداً. أمّا الثانية وهي الحكمة، فلا يمكن أنّ تورث كما يورث المال، بل يجب السعي والمثابرة من أجل الحصول عليها.

د ـ في الحكمة النغريسية جاء: (ليست الحكمة دواءً يمكن ابتلاعه)[٣].

وهذا يعني أنّ على الإنسان للحصول على الحكمة أنّ يجدّ ويجتهد، وأنّ أحداً لا يمكن أنّ يسقيك الحكمة كما يُسقى الدواء للمريض ويبتلعه.

هـ ـ جميلٌ أيضاً ما قيل إنه: (لا يطلب الرجلُ حكمةً إلا بحكمة من عنده)[٤]. فالمقصِّرون في طلب الحكمة يكشفون عن افتقادهم الحدّ الأدنى منها، لأنّ تحلّي الإنسان بالحكمة لا يمكن إلا أنّ يحفزه على طلب حكمة أخرى وهكذا، فالتناسب بين السعي للحكمة وتوفُّر طالبها على بعضها طرديٌّ.

---

(١) م ن.

(٢) م ن.

(٣) م ن.

(٤) م ن.

و ـ هناك من يرى أنّ (الحكمة) من الهبات والعطايا التي لا يمكن نيلها بالتعلّم والدراسة، فهذا بول فليمنغ (المتوفّى ١٦٣٥م) يقول: (الحكمة لا يمكن تعلمها، إنها تتلألأ في نجمك)[1]. وهذا القول صحيحٌ، ولكنّ بشكل نسبي، فإنّ بعض جوانب الحكمة، كما سيتبين لنا في ثنايا الكتاب، هو كذلك، لكنّ بعض جوانبها الآخر يمكن أنّ يتعلّمه الإنسان نظرياً، ويتمرّن على تطبيقه علمياً في مرحلة تالية.

ز ـ قال لاروشفوكو [المتوفّى ١٦٦٥]: (لا يصبح المرء حكيماً ما لم يسبق له أنّ يجنّ)[2]. ولعلّه يريد بقوله هذا أنّ المقياس العامّ بين الناس لا يدرك أبعاد الحكمة، التي هي في الغالب تصرف غير مألوف في الإقدام والإحجام، وبالتالي قد يوصف الحكيم أنه مجنون إذا أقدم على تصرف يراه الناس جنونياًّ. أو أنه يريد أنّ التمرُّد على ما هو مألوفٌ يعد ضرورياً لمن أراد أنّ يكون حكيماً، فـ(الحكيم يقوم مباشرةً بما يقوم به المجنون في ما بعدُ)[3].

وهذا القائل نفسه، أعني لاروشفوكو، يقول: (المجنون ينصح الحكيم جيّداً)، ولعله يريد أنّ يبيِّن حكمة الحكيم في أنه لا يفوِّت على نفسه فرصة تعلّمها ولو من المجانين. وهو معنى صحيح، في نفسه، لأنّ الحكيم يرى ما يفعله المجنون فيتجنّبه، ولا يفعل مثله، فيكون المجنون ناصحاً بسوء تصرّفه، لأنّ الأشياء تعرف بأضدادها.

---

(١) م ن.

(٢) م ن.

(٣) قول لباتسار غراثيان [المتوفى ١٦٤٧ م].

٣ ـ سلاسة الحكمة وتكيُّف الحكيم:

في هذا العنوان نقرأ في التراث الإنساني، القديم والحديث، أنّ للحكمة سلاسةً وانسيابيّةً، ولمن يتحلّى بها قدرةً على التكيف مع مختلف الظروف والصعاب، فهذا كوفُنشيوس الصيني [القرن السادس قبل الميلاد] يقول: (سلوك الحكيم بلا طعم، كالماء)[١].

وأمّا الحكمة اليابانية فتقول: (الحكيم ينحني أمام الظروف، كما يتخذ الماء شكل الإناء الذي يحتويه)[٢].

٤ ـ انعكاسات الحكمة ومعطياتها

من معالم الحكمة في التراث الإنساني وانعكاساتها ما قاله اليونانيون: (إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهواتُ العقولَ، وإذا أدبرت خدمت العقولُ الشهواتِ)[٣]. وهو كلامٌ متينٌ جداً، يؤكّد على أنّ على الإنسان الراغب في الحكمة أنّ يجعل زمام أمره بيد عقله، ليجعله الحاكم على الشهوات وهي المحكوم والخادم، أمّا إذا جعلت الشهواتُ حاكمةً مخدومةً فإنه السفهُ وتبعاته الكارثية.

وأمّا الأتراك ففي تراثهم أنهم قالوا: (الحكيم لا يقول ما [لا] يعرف، والمجنون لا يعرف ما يقول)[٤]. وهذا يعني أنّ الحكيم لا يقول كلّ ما يعرفه، لأنّ بعضه قد لا يصلح للإذاعة، وهو لا يتصدّى للحديث في شيء لا يعرفه. وكلاهما من معطيات الحكمة. أمّا المجنون والسفيه فيتفوّه بكلّ شيء حتى في ما لا يعرف.

---

(١) م ن.
(٢) م ن.
(٣) م ن.
(٤) م ن. وليس فيه حرف النفي [لا]. وقد فسرنا الحكمة على الوجهين.

٥ـ التفرّد

نعني بـ(التفرد): أنّ أهل الحكمة قلّة، وكما قال أحدهم: (ليس أفضل الكتبة أكثرهم حكمة)[١]، وذلك أنّ من يكون كاتباً أو متحدثاً قد يكون حافظاً ولافظاً، ولكنه ليس بالضرورة يفقه ما يقول، أو أنّه لا يعمل بما يقول.

ونجد أيضاً بعضهم، وهو تيرنس [القرن الثاني ق. م]، يقول: (الحكمة هي البصيرة)[٢]. بمعنى أنّ من لديه القدرة على الفهم العميق والسريع والشامل هو الحكيم. وهذا المعنى لا يتيسّر لكلّ أحد. ولعله يريد أنّ الحكمة عطاءٌ يوهب وليس مما يُتعلَّم. وكلا المعنيين صحيحٌ.

وقد سبق أنّ بعضهم يقول: (الحكمة لا يمكن تعلُّمها، إنها تتلألأ في نجمك)[٣]. وآخر يقول: (الثروة يمكن أنّ تقبل إلينا، ولكنّ علينا أنّ نذهب شخصياً نحو الحكمة)[٤].

وفي سياق التفرّد بما يقتضيه من المغامرة حيناً والخروج عن المألوف إلى حدّ الجنون في نظر العرف حيناً آخر، يقول بعضهم، وهو هوراس [حوالي السنة ١٥ ق م]: (امزج حكمتك ببعض الجنون، ذلك أنه يستحسن أحياناً ارتكاب بعض الجنون)[٥].

٦ـ الأنا عدوّ الحكمة

لـ(الحكمة) أسباب ومقتضيات، ولها في المقابل موانع تحول بينها وبين

(١) وهذا قول فرانسوا رابليه [١٤٩٤ ـ ١٥٥٣]، كما في قاموس الحكم والأمثال، مادة (حكم).
(٢) م ن.
(٣) م ن.
(٤) م ن.
(٥) م ن.

من يطلبها، ومن الموانع الأساسّيةِ النفسُ وأهواؤُها، التي تجرّنا جراً إلى حيث المهاوي والشهوات وفي ذلك يقول الشاعر:

إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وفي هذا السياق يقول لاروشفوكو: (أن يكون المرءُ حكيماً بالنسبة إلى الآخرين أسهل من أنّ يكون حكيماً لنفسه)(١)؛ إذ من السهل أنّ يعظ الواعظ، ولكنّ من الصعوبة أنّ يكون متعظاً.

٧ـ وجوب نشر الحكمة

لما كانت الحكمة كمالاً فإنها تقتضي أنّ لا يستأثر الحكيم بالحكمة، بل يلزمه نشرها وإشاعتها لمن يرغب فيها ممن هو أهلها، وهذا ما أدركه [كينو]، حيث يقول: (ليس من الحكمة أنّ يكون المرءُ حكيماً وحده)(٢). يمكن أنّ يكون مراده أنّ البيئة إذا لم تكن محكومة بالحكمة فإنّ حكمة الحكيم لا تنفعه، لأنّ ثمنها سيكون كبيراً.

وفي نشر الحكمة في البيئة المستعدّة وما نجنيه من ذلك يقول الملك الفارسي أردشير: (من زرع في أرض خصبة زكّى ريعَهُ، ومن بذر الحكمة عند القابلين لها حسَّن آثارَها)(٣).

٨ـ ضريبة الحكمة ولوازمها

من معالم الحكمة كما أدركها العقلاء هو أنها لا تستلزم الراحة، بل قد يكون من لوازمها الأذى والعنَت، وفي ذلك يقول موليير [١٦٦٦م]: (مِن

---

(١) م ن.

(٢) م ن. وهو المتوفّى سنة ١٦٨٦ م.

(٣) م ن.

فَرْط الحكمة يُستهدف المرء إلى اللوم)[١]. وأمّا أوربيديس [القرن الخامس ق م]، فيرى أن: (كلام الحكيم يبدو حماقةً في نظر المجنون)[٢]. وبالطبع فإنّ المجنون هنا ليس يُراد به بالضرورة مسلوب العقل، وإنما هو خلاف الحكيم ممن له سلطة وسطوة.

والشق الثاني لضريبة الحكمة هو التقيد الصارم الذي تفرضه الحكمة على الحكيم، بأنّ لا يخالف شرعاً ولا عقلاً ولا عرفاً، وفي هذا يقول غوته [١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م]: (الحكيمُ لا يرتكب أيَّ حماقةٍ مهما تكن صغيرةً)[٣].

٩ ـ سموُّ الحكمة

أدرك بعض أهل الحكمة، وهي مراتب، أنها ليست من سنخ ما ينشده الناس في عالم الماديّات، بل إنها تحلّق بهم إلى الملكوت الأعلى، فهذا جوزيف جويير [١٧٥٤ ـ ١٨٢٤] يقول: (الرشاد يتوافق مع العالم، [أما] الحكمة [فـ] تحاول أنّ تتطابق مع السماء)[٤].

١٠ ـ لذّة الحكمة

ثم إنّ هذا التراث الإنساني، أدرك في ما أدرك، أنّ للحكمة شأناً سامياً يرتقي بها إلى الأعلى لتظلّ الأعناق مشرئبةً إليه تتأمّله دائماً كالقمر في ليلة البدر، وجاء في المثل المأثور عند المالغاشيين: (الأقوال الحكيمة مثل قصب السكر الذي لا نفتأ نمصُّه، فطعمه لا ينفد أبداً)[٥].

---

(١) م ن.

(٢) م ن.

(٣) م ن.

(٤) م ن.

(٥) م ن.

١١ ـ الثبات والاطمئنان

وأخيراً، فإنّ للحكمة في هذا التراث الإنساني فوائد ومجتنيات لا تُقدَّر بثمن، فـ(ريح المحنة لا تهبُّ أبداً على مملكة الحكمة)[1]، وليس في العقلاء من الناس من لا ينشُدُ الاطمئنان والثبات والاستقرار.

ونكتفي بهذا القدر لأنه يفي بالغرض، وهو التعريف الموجز جداً بالحكمة وأهميّتها لدى البشرية في مختلف محطّاتها التاريخية.

---

(١) م ن. قولٌ للملك الفارسي أردشير.

الفصل الثاني

الْحِكْمَةُ
فِي التُّرَاثِ الرَّبَّانِيّ

بعد أنّ استعرضنا في الفصل السابق إيجازاً عن الحكمة في التراث الإنساني، ننعطف بالحديث في هذا الفصل عن الحكمة في التراث الربّاني، ونعني به: ما صدر على ألسنة مَن تربّى بين جدران مدرسة الوحي.

ولسنا نجانب الصواب إذا قلنا إنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مثالٌ بارزٌ للإنسان الحكيم، بل إنه كما ذكرنا في المقدّمة باب مدينة الحكمة الإلهية. ومن هنا فإنّ أفضل ما يمكن أنّ يعرّفنا بالحكمة، هو كلماته عليه السلام.

وقد روي عنه الكثير من الكلمات القصيرة والطويلة في هذا الصدد، منها ما جاء في كتاب غُرَرَ الحكم ودرر الكَلِم، وهو الذي جمع فيه مؤلفه القاضي عبد الواحد الآمدي [المتوفّى ٥١٠ هـ].

وقد اخترنا أنّ نقتصر في التعريف بالحكمة في كلماته عليه السلام، كما جاءت في الكتاب المذكور[1]، ضمن فقرات:

الفقرة الأولى: أهمية الحكمة

حول أهمية الحكمة نجد أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد بيَّن ذلك بمقاربات مختلفة، نذكر منها ما يلي:

١ ـ الإيمان والحكمة

وهو عليه السلام يقرّر أنّ إيمان المؤمن لا ينفك عن الحكمة؛ لذلك فإنّ الإيمان

---

(١) نقلنا الحكم من كتاب هداية العلم في تنظيم غرر الحكم، للباحث سيد حسين شيخ الإسلام فصل (الحكمة) وفصل (العقل).

يفرض على صاحبه طلب الحكمة، فـ«**اَلْحِكْمَةُ ضالَّةُ كُلِّ مُؤْمِن**»، وما دامت كذلك فهي حقّه الطبيعي، ويجب أخذها من أيٍّ كان «**فَخُذُوها وَلَوْ مِنْ أفْواهِ المُنافِقِينَ**»[1].

والنصّ واضح في عدم الفرق في هذا الأمر بين الذكور والإناث، ولا بين الكبار والصغار، بل ولا بين المتعلّم والعالم . . .

٢ ـ الفوائد والثمرات

ونجده عليه السلام يكشف أهمية الحكمة من زاوية الفوائد التي تترتب عليها فـ«**اَلْحِكْمَةُ رَوْضَةُ العُقَلاءِ، وَنُـزْهَةُ النُّبَلاءِ**»[2]. والعقلاء والنبلاء حريصون جداً على التنزّه في ما يزيد من رصيدهم المادي والمعنوي، ولا يحقّق لهم ذلك غير الحكمة. وهذا يبيِّن أهميتها.

أ ـ قال عليه السلام: «**اَلْحِكْمَةُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْقَلْبِ، وَتُثْمِرُ عَلَى اللِّسانِ**»[3]. وهو عليه السلام يكشف عن معطيات الحكمة، باعتبارها تسدّد المتكلّم وتصوّبه، وما أعظمها من أهمية.

ب ـ قال عليه السلام: «**اَلْحِكْمَةُ تُرْشِدُ**»[4]. والرشد كما لا يخفى من أهمّ ما ينشده الناس. وأهمية الحكمة تكمن في أنها تحقّق هذا الرشد، فـ(ثَمَرَةُ الْحِكْمَةِ الفَوْزُ)[5].

---

(١) الحكمة ١٨٢٩.

(٢) الحكمة ١٧١٥.

(٣) الحكمة ١٩٩٢.

(٤) الحكمة ٥.

(٥) الحكمة ٤٦٤٥.

جـ ـ قال عليه السلام: «**اَلْحِكْمَةُ عِصْمَةٌ**»[١]. وقال عليه السلام: «**قُرِنَتِ الحِكْمَةُ بِالعِصْمَةِ**»[٢]. والعصمة أمر يفوق الرشد الفكري، ليثبت الرشيد على وفق متطلّبات الحكمة. ومن هنا كانت «**ثَمَرَةُ الْحِكْمَةِ التَّنَـزُّهُ عَنِ الدُّنيا، وَالوَلَهُ بِجَنَّةِ المَأْوى**»[٣]. خصوصاً إذا لاحظنا أنّ مزالق الإنسان وأخطاءه وخطاياه إنّما تتسبّب فيها الدنيا والتعلّق بها، فحبُّها ـ كما في الخبر الشريف عن معلم الحكمة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ «**رأس كلّ خطيئة**»[٤].

وبالطبع، فإنّ الحكمة وإن أفادت نوعاً من العصمة، لكنّ هذا لا يعني أنّ لا يقع الحكيم في شيء من الخطأ أبداً، فـ(قَدْ يَزِلُّ الحَكِيمُ)[٥]، إلا أنّ يكون معصوماً، وهذا لا يتوفّر في غير النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام.

د ـ السمعة الحسنة من خلال الاستقامة السلوكية التي تُعدُّ مقياساً للشخصية المثالية، وهذا لا يتحقّق بغير الحكمة، وفي ذلك يقول عليه السلام: «**عَلَيْكَ بِالحِكْمَةِ؛ فَإنَّها الحِلْيَةُ الفاخِرَةُ**»[٦]. وقال عليه السلام: «**مَنْ لَهِجَ بِالحِكْمَةِ فَقَدْ شَرَّفَ نَفْسَهُ**»[٧]. وقال عليه السلام: «**مَنْ عُرِفَ بِالحِكْمَةِ لاحَظَتْهُ العُيُونُ بِالوَقارِ**»[٨]. وقال عليه السلام: «**مَنْ ثَبَتَتْ لَهُ الحِكْمَةُ عَرَفَ العِبْرَةَ**»[٩].

---

(١) الحكمة ١٢.

(٢) الحكمة ٦٧١٢.

(٣) الحكمة ٤٦٥٣.

(٤) حديث نبوي مشهور.

(٥) الحكمة ٦٦٠٩.

(٦) الحكمة ٦٠٨١.

(٧) الحكمة ٨٢٧٩.

(٨) الحكمة ٨٥١٨.

(٩) الحكمة ٨٧٠٦.

الفقرة الثانية: الطريق إلى الحكمة

لـ(الحكمة) قيمةٌ عليا في سعي المؤمن العاقل بطبعه، ومن ثَمَّ فهو في لَهَث دائم ودائبٍ في تحصيل ما ليس بحاصل، والحكمة من هذا القبيل، لهذا يقول علي عليه السلام: «**ضالَّةُ العاقِلِ الحِكْمَةُ**»، وما دامت كذلك (**فَهُوَ أَحَقُّ بِها حَيْثُ كانَتْ**)[1]، (**ولَوْ مِنْ أفْواهِ المُنافِقينَ**)[2].

ويضيف إلى ذلك قولَه عليه السلام: «**غَنيمَةُ الأكْياسِ مُدارَسَةُ الحِكْمَةِ**»[3]. ولماذا لا تكون كذلك ما دام «**بِالحِكْمَةِ يُكْشَفُ غِطاءُ العِلْمِ**»[4]؟!

أمّا ما هي الخطوة الأهم في تلقي الحكمة؟ فيجيب عليه السلام عن ذلك بقوله: «**أفْضَلُ الحِكْمَةِ مَعْرِفَةُ الإنْسانِ نَفْسَهُ، وَوُقُوفُهُ عِنْدَ قَدْرِهِ**»[5]. التي هي بدورها تعرّفنا على أول خطوة في هذا الطريق تنتهي بنا إلى آخر خطوة، وفي ذلك قال عليه السلام: «**أوَّلُ الْحِكْمَةِ تَرْكُ اللَّذّاتِ، وَآخِرُها مَقْتُ الفانِياتِ**»[6].

وبين المبدأ والمنتهى يؤكّد إمامنا علي عليه السلام على أنّ الحكمة الكاملة والشاملة إنما تُنال من عند الله تعالى، ويقول: «**مِنْ خَزائِنِ الغَيْبِ تَظْهَرُ الْحِكْمَةُ**»[7].

ولا يتردّد الحكيم الأوّل علي عليه السلام في التأكيد على دور العقل في الوصول إلى الحكمة علماً وعملاً، فـ«**العَقْلُ فَضيلَةُ الإنْسانِ**»[8]، وهو

---

(١) الحكمة ٥٨٩٦.

(٢) الحكمة ١٨٢٩.

(٣) الحكمة ٦٤٤١. والأكياس جمع (كيّس) بمعنى الفطن والذكي، من الكياسة.

(٤) الحكمة ٤٢٧٣.

(٥) الحكمة ٣١٠٥.

(٦) الحكمة ٢٣٢٤.

(٧) الحكمة ٩٢٥٤.

(٨) الحكمة ٢٥٢.

(رَسُولُ الحَقِّ)[١]، كما أنه (صَديقٌ مَقْطُوعٌ)[٢]، وهو (داعِي الفَهْمِ)[٣].

والعقل بهذا السمة موصوف في حكمة علي عليه السلام الربانية أنه (مُصْلِحُ كُلِّ أمْرٍ)[٤]، لسبب بسيط هو أنه (لا يَنْخَدِعُ)[٥]، لذلك فهو (أقْوى أَسَاسٍ)[٦]، كما أنه (أفْضَلُ مَرْجُوٍّ)[٧]. ولهذا كلّه فـ(العَقْلُ يَنْبُوعُ الخَيْرِ)[٨]. إذ «**بِالعَقْلِ يُسْتَخْرَجُ غَوْرُ الحِكْمَةِ**»[٩].

الفقرة الثالثة: منافيات الحكمة

من أهمّ موانع الحكمة الانسياق وراء الشهوات حيث «**لا تَجْتَمِعُ الشَّهْوَةُ وَالحِكْمَةُ**»[١٠]، ولو أنّ أحداً من المنساقين وراء الشهوات حظي بالحكمة علماً وعملاً فلن تستقر في وجدانه ولن تتغلغل في كيانه إذ «**لا تَسْكُنُ الحِكْمَةُ قَلْباً مَعَ شَهْوَةٍ**»[١١]. ويخلص عليه السلام إلى قاعدة مفادها (حَرامٌ عَلى كُلِّ عَقْل مَغْلُول (مَغْلُول) بِالشَّهْوَةِ أنْ يَنْتَفِعَ بِالحِكْمَةِ)[١٢].

---

(١) الحكمة ٢٧٢.
(٢) الحكمة ٣٢٤.
(٣) الحكمة ٤٧٣.
(٤) الحكمة ٤٠٤.
(٥) الحكمة ٤٢٧.
(٦) الحكمة ٤٧٥.
(٧) الحكمة ٤٧٩.
(٨) الحكمة ٦٥٧.
(٩) الحكمة ٤٢٠٨.
(١٠) الحكمة ١٠٥٧٣.
(١١) الحكمة ١٠٩١٥.
(١٢) الحكمة ٤٩٠٢.

الفقرة الرابعة: حدُّ الحكمة ومعالمها

للحكمة حدٌّ وتعريفٌ، وفي هذا قال عليه السلام: «**حَدُّ الْحِكْمَةِ اَلإِعْراضُ عَنْ دارِ الفَناءِ، وَالتَّوَلُّهُ بِدارِ البَقاءِ**»[1]. وهو قد لا يكون تعريفاً بمصطلح المنطق، حيث الحدّ والرسم، ولكنه تعريف بتبيان المعالم وهو أوضح للغالبية من الناس.

وأحد أشكال تعريف الحكمة بيانُ معالمها، مثل قوله عليه السلام: «**مِنَ الحِكْمَةِ طاعَتُكَ لِمَنْ فَوْقَكَ وَإِجْلالُكَ مَنْ في طَبَقَتِكَ، وَإِنْصافُكَ لِمَنْ دُوْنَكَ**»[2]. وقوله عليه السلام: «**مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ لا تُنازِعَ مَنْ فَوْقَكَ، وَلا تَسْتَذِلَّ مَنْ دُونَكَ، وَلا تَتَعاطى ما لَيْسَ في قُدْرَتِكَ، وَلا يُخالِفَ لِسانُكَ قَلْبَكَ، وَلا قَوْلُكَ فِعْلَكَ، وَلا تَتَكَلَّمَ فِي ما لا تَعْلَمُ، وَلا تَتْرُكَ الأَمْرَ عِنْدَ الإِقْبالِ، وَتَطْلُبَهُ عِنْدَ الإِدْبارِ**»[3]. وكذلك قوله عليه السلام: «**العَقلُ أَنْ تَقُولَ ما تَعْرِفُ، وَتَعْمَلَ بِما تَنْطِقُ بِهِ**»[4].

ولا يقف علي عليه السلام عند هذا القدر بل إنه يبيّن لنا مجالات الامتحان والاختبار، قائلاً: «**سِتَّةٌ تُخْتَبَرُ بِها عُقُولُ الرِّجالِ: اَلْمُصاحَبَةُ، وَالْمُعامَلَةُ، وَالوِلايَةُ، وَالعَزْلُ، وَالغِنى، وَالفَقْرُ**»[5]. وفي نصّ آخر يقول عليه السلام: «**سِتَّةٌ تُخْتَبَرُ بِها عُقُولُ النّاسِ: الحِلْمُ عِنْدَ الغَضَبِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الرَّهْبِ، وَالقَصْدُ عِنْدَ الرَّغْبِ، وتَقْوىَ اللهِ في كُلِّ حال، وَحُسْنُ الْمُداراةِ، وَقِلَّةُ الْمُماراةِ**»[6].

(١) الحكمة ٤٩٠٠.

(٢) الحكمة ٩٤٢٢.

(٣) الحكمة ٩٤٥٠.

(٤) الحكمة ٢١٤١.

(٥) الحكمة ٥٦٠٠.

(٦) الحكمة ٥٦٠٨.

ولا يفوت علياً عليه السلام التأكيدُ على الغاية التي على الحكيم أنّ يؤمّها، وهي الله تعالى بحسن طاعته في ما أمر أو نهى ويقول: «**العاقِلُ مَنْ تَوَرَّعَ عَنِ الذُّنُوبِ، وَتَنَـزَّهَ مِنَ العُيُوبِ**»[١]. وذلك أنّ للإنسان هدفاً من خلق الله إياه وهو كماله وسعيه في ذلك، ومن ثمّ فإنّ الحكيم والعاقل هو «**مَنْ أحْسَنَ صَنائِعَهُ، وَوَضَعَ سَعْيَهُ في مَواضِعِهِ**»[٢]. ولا يُوفَّق لذلك إلا (مَنْ عَقَلَ لِسانَهُ إلاّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ)[٣].

وإذا تزاحمت الإرادات فـ«**العاقِلُ مَنْ عَصى هَواهُ في طاعَةِ رَبِّهِ**»[٤]، وهو الذي (غَلَبَ هَواهُ، وَلَمْ يَبِعْ آخِرَتَهُ بِدُنْياهُ)[٥]. وعلى هذا الأساس فإنه (لا يُضيعُ لَهُ نَفَساً في مَا لا يَنْفَعُهُ، وَلا يَقْتَني ما لا يَصْحَبُهُ)[٦]. وهو مع ذلك كله (مُحْسِنٌ خائِفٌ)[٧].

وانطلاقاً من هذه الرؤية للحكيم العاقل يقول عليه السلام: «**أسْعَدُ النّاسِ العاقِلُ**»[٨]، وهو كذلك أشدُّ الناس سعياً في تحقيق الحياة، فـ(أعْقَلُ النّاسِ أحْياهُمْ)[٩]، وأيضاً هو (أبْعَدُهُمْ عَنْ كُلِّ دَنِيَّة)[١٠].

---

(١) الحكمة ١٧٣٧.
(٢) الحكمة ١٧٩٨.
(٣) الحكمة ١٧٤١.
(٤) الحكمة ١٧٤٧.
(٥) الحكمة ١٩٨٣.
(٦) الحكمة ٢١٦٣.
(٧) الحكمة ٢٩٣٧.
(٨) الحكمة ٢٨٧٧.
(٩) الحكمة ٢٩٠٠.
(١٠) الحكمة ٣٠٧٣.

وأخيراً، فـ(إنَّ العاقِلَ مَنْ نَظَرَ في يَوْمِهِ لِغَدِهِ، وَسَعى في فِكاكِ نَفْسِهِ، وَعَمِلَ لِما لابُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَلا مَحيصَ لَهُ عَنْهُ)[١]. لذلك (يَنْبَغي أَنْ يَحْذَرَ المَوْتَ في هذِهِ الدّارِ، وَيُحْسِنَ لَهُ التَأَهُّبَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلى دار يَتَمَنّى فيهَا المَوْتَ فَلا يَجِدُهُ)[٢].

الفقرة الخامسة: السيرة العملية للحكيم

بعد التأمُّل في ما رُوي عن الإمام علي عليه السلام أمكننا أنّ نلخّص السيرة العملية للحكيم في الخطوات التالية:

١ ـ على مستوى علاقته بالله تعالى ونفسه، هو (لا يَخْلُو في كُلِّ حالَة عَنْ طاعَةِ رَبِّهِ، وَمُجاهَدَةِ نَفْسِهِ)[٣].

٢ ـ على مستوى علاقته بالأخيار والأشرار، هو يكثر (مِنْ صُحْبَةِ العُلَماءِ والأبْرارِ، وَيَجْتَنِبُ مُقارَنَةَ الأشْرارِ وَالفُجّارِ)[٤]. وهو يدرك تماماً أنّ «**مِنَ الحِكْمَةِ طاعَتُكَ لِمَنْ فَوْقَكَ وَإجْلالُكَ مَنْ في طَبَقَتِكَ، وَإنْصافُكَ لِمَنْ دُوْنَكَ**»[٥].

٣ ـ على مستوى علاقته بالدنيا، هو حريصٌ أشدّ الحرص على «**أنْ يَحْتَرِسَ مِنْ سُكْرِ المالِ، وَسُكْرِ القُدْرَةِ، وَسُكْرِ العِلْمِ، وَسُكْرِ المَدْحِ، وَسُكْرِ الشَّبابِ، فَإنَّ لِكُلِّ ذلِكَ رِياحاً خَبيثَةً، تَسْلُبُ العَقْلَ، وَتَسْتَخِفُّ**

(١) الحكمة ٣٥٧٠.
(٢) الحكمة ٣٦١١.
(٣) الحكمة ١٠٩٢٢.
(٤) الحكمة ١٠٩٤٩.
(٥) الحكمة ٩٤٢٢.

الوَقار»[١].

٤ ـ على مستوى علاقته بنفسه، هو يدرك بوضوح أنّ «**مِنَ الحِكْمَةِ أنْ لا تُنازِعَ مَنْ فَوْقَكَ، وَلا تَسْتَذِلَّ مَنْ دُونَكَ، وَلا تَتَعاطى ما لَيْسَ في قُدْرَتِكَ، وَلا يُخالِفَ لِسانُكَ قَلْبَكَ، وَلا قَوْلُكَ فِعْلَكَ، وَلا تَتَكَلَّمَ فِي ما لا تَعْلَمُ، وَلا تَتْرُكَ الأمْرَ عِنْدَ الإقْبالِ، وَتَطْلُبَهُ عِنْدَ الإدْبارِ»**[٢].

---

(١) الحكمة ١٠٩٤٨.

(٢) الحكمة ٩٤٥٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

بَيْنَ يَدَي السُورَة

لا ينبغي الشكُّ في أنّ السورة القرآنية عموماً تعالج موضوعاً رئيسيّاً واحداً، أو موضوعاتٍ عديدةً يكون بعضها رئيسيّاً وبعضها الآخر فرعياًّ له نوعُ ارتباطٍ بالموضوع الرئيسي. وإلا كان النصُّ خارجاً عن الضبط والربط، وعسُر على القارئ معه الحصولُ على غايةٍ ينتهي إليها، وهذا يتنافى مع إحكام القرآن في مجمله وفي سوره.

وانطلاقاً من هذه المسلَّمة فإنّ سورة لقمان ليست شاذّةً عن هذه القاعدة، كما سيتبّين خلال التجوال فيها. وبإيجاز نقول:

إنها تعالج في الدرجة الأولى موضوعين اثنين، يرتبطان ببعضهما بشكلٍ وثيق:

الموضوع الأوّل: مسألة التوحيد

التوحيد يعني أنّ لهذا الكون بكلّ ما فيه إلهاً واحداً لا شريك له، في خلقه إياه، وتدبيره له، وبالتالي حمده وشكره، وأن من يخالف في شيءٍ من ذلك فقد وقع في ظلمٍ عظيمٍ.

وسيق، لإثبات هذا الموضوع وما يرتبط به، آياتٌ ودلائلُ، وجيء لذلك بنصائح ووصايا.

الموضوع الثاني: صلاح الإنسان

وفيه عولج واقع هذا الإنسان، وطبيعته، وما يُصلِحه ويَصلُح له، في عاجله وآجله، وفي جوارحه وجوانحه.

واستعرض في هذا السياق سمات العبد الصالح، وذلك بـ:

١ ـ أنّ يكون من المحسنين مع خالقه ونفسه والمخلوقين، وأن في ذلك فلاحَهُ ونجاحَهُ.

٢ ـ وإلى جانب ذلك حذّر من الانحراف في مسيرته بشكل مباشر أو غير مباشر، لأنّ في ذلك استكباراً على الحق، واستحقاقاً لعذابٍ مهينٍ.

وبين هذين الموضوعين الرئيسيين جاءت موضوعاتٌ فرعيةٌ تخدم هذا الموضوع أو ذاك أو كليهما معاً.

كلّ ذلك في تناولٍ حكيمٍ من ربٍّ حكيمٍ لا خلل في شيء من فعله أو قوله، توصُّلاً منه سبحانه لصناعة إنسان حكيم، فإنه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

وما أحوج الإنسان إلى دروس الحكمة في بُعدَيها:

١ ـ (الحكمة النظرية)، وهي التي يُعالج فيها المعرفة اللازمة والصحيحة لفهم الكون، على مستوى الخلق والخالق معاً.

٢ ـ (الحكمة العملية)، وهي التي يُعالج فيها المعرفة اللازمة والصحيحة لتقويم وتصحيح السلوك الإنساني في أبعاده الثلاثة الرئيسيّة:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

الأول: العلاقة مع الخالق.

الثاني: العلاقة مع النفس.

الثالث: العلاقة مع الخلق.

أبعاد الفعل والتفاعل الإنسانيّيْن:

نشير، بمناسبة الحديث عن الحكمتين (النظرية والعملية)، إلى أنّ في الإنسان:

١ ـ عقلاً زادُهُ المعرفةُ والمفاهيمُ.

٢ ـ روحاً تتطلع إلى الحبّ والبغض المبنيّين على ما يتبنّاه العقل من معارف ومفاهيم.

٣ ـ جوارح تترجم المفاهيم والميول في الإعطاء والمنع، والإقدام والإحجام، والرضا والسخط ...

ولعلّ هذا المضمون هو السرّ في الأخبار الواردة في فضل السورة وأهمية قراءتها، باعتبار أنّ القراءة والتلاوة طريق ـ عادةً ـ لتمثّل مضمون السورة في السلوك:

١ ـ ففي الخبر عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: «**من قرأ سورة لقمان في ليلة وكّل الله به في ليلته ملائكة يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسي**»[1].

---

(١) رواه الشيخ الصدوق في كتابه ثواب الأعمال، كما في تفسير نور الثقلين ج ٤، ص ١٩٣.

٢ ـ وفي مجمع البيان عن أُبي بن كعب عن النبيﷺ، قال: «**ومَن قرأ سورةَ لقمان كان له لقمانُ رفيقاً يوم القيامة، وأُعطي من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف وعمل المنكر**»[1].

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩٣.

(الآية الأولى)

﴿الٓمٓ﴾

تبدأ الآية، بعد البسملة، بما يُعرف بين علماء التفسير بـ(الحروف المقطّعة). وهي حروف متفرّقة لا تشكِّل كلمةً مفهومةً لعموم الناس، فضلاً عن أنّ تكون جملة.

وقد ذهب المفسّرون في تفسيرها مذاهب شتّى، تتوزّع على عدّة اتجاهات، نذكر منها ثلاثة:

الاتجاه الأول: أنها رموز لمعانٍ بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، لا يفهمها أحدٌ إلا أنّ يُلقى إليه علم ذلك من الرسول ﷺ. وبالتالي فإنها ليست خطاباً لعامّة الناس حتى يتكلّفوا تفسيرها.

وقد روي في الخبر عن أهل البيت عليهم السلام: **إنّ الحروف، المفتحة بها السور، من المتشابهات، التي استأثر الله تعالى بعلمها، ولا يعلم تأويلها إلا هو»**[1]. كما روي عن علي عليه السلام: **إنّ لكلّ كتاب صفوةً، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي»**[2].

الاتجاه الثاني: أنها خالية من المعنى! جيء بها لِلَفْت نظر السامعين،

---

(١) نور الثقلين، ج ١، ص ٣٠، الحديث ٨، تفسير الآية ١ من سورة البقرة.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ذيل الآية ١ من سورة البقرة.

شداً لانتباههم، لأنّ هناك من المشركين من كان يتعمد التشويش وإثارة اللغط لتشتيت انتباه الناس الذين كان رسول الله ﷺ يسعى لإسماعهم الوحي القرآني.

الاتجاه الثالث: أنها تأكيدٌ للإنسان كم هو فقيرٌ وضعيفٌ، حيث إنّ القرآن مكوَّنٌ من حروف، كالحروف التي تتكلمون بها، فإنّ كنتم في شكّ فها هي مكوِّنات القرآن (ألف، لام، ميم). وهكذا تُقرأ الآية.

وقد روى هذا المعنى الإمام العسكري عليه السلام عن أبيه الإمام الهادي عليه السلام.

وقفة تربويّة:

من فوائد إيرادِ الحروف المقطعة في القرآن وجهلِنا بتفسيرها، أنّ نتعلم دروساً، تُعدُّ من مفردات الحكمة العملية:

الدرس الأول: التواضع العلمي والعملي

التواضع يعني، ببساطة ووضوح شديدين: أنّ على الإنسان أنّ لا يشمخ بأنفه، فيدّعي أنه يعرف كلّ شيء، أو أنّ لديه القدرة أنّ يعرف كلّ شيء. لأنّ الوجود وما فيه أوسع من أنّ يحيط به أمثالنا نحن البشر، بقدراتنا المحدودة والمتواضعة. وهذا هو التواضع العلمي، وهو غصن من أغصان شجرة الحكمة العلمية.

وأمّا التواضع العملي فيعني أنّ لا يتطاول على الناس، وأهم من ذلك أنّ لا يتطاول على الله تعالى، ليصل إلى ما هو أرقى من التواضع، أعني فضيلة التسليم فـ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

الدرس الثاني: بُعد الهمَّة

(بعد الهمة) من الفضائل الأخلاقية التي لا يجادل أحدٌ في حسنها، ولا في فوائد التحلّي بها، ونعني بـ(بعد الهمة) هنا: أنّ علينا أنّ نجدَّ في طلب المعرفة؛ لأنّ الإنسان (الحكيم) إذا جهل شيئاً سعى في معرفته وتعلُّمه.

الدرس الثالث: القدرات الإنسانية محدودة

وفي ما نحن فيه إذا لم نتمكّن من فهم حروف رصفت رصفاً فسيتأكد له أننا فقراء إلى الله العليم الخبير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[1].

هذه الدروس الثلاثة، وغيرها، نموذج لما تناولته سورة لقمان المباركة من دروس الحكمة القرآنية.

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(الآية ٢)

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[1]

تمهيد:

يُلحظ المشار إليه من زوايا عديدة، منها:

١ ـ من حيث قربه من المشير وبعده عنه، فقد اختير، في لغة العرب، للإشارة إليه بأدوات تختلف، إذا كان المشار إليه قريباً، عنها إذا كان بعيداً.

أ ـ فإذا كان المشار إليه مفرداً قيل (هذا) للمذكر وما بحكمه، و (هذه) للمؤنث وما بحكمه.

ب ـ وإذا كان بعيداً قيل (ذلك) للمذكّر وما بحكمه. و (تلك) للمؤنّث وما بحكمه.

جـ ـ وإذا كان وسطاً بين القرب والبعد قيل (ذاك).

٢ ـ ومن حيث كونه حسياً وغير حسيٍّ، فإنّ الأخير يُنزَّل بمنزلة الحسي، ويستعمل للإشارة إليه أدوات الإشارة نفسها.

بعد هذا التمهيد الموجز نجد في الآية محطّات:

---

(١) ورد النصّ بعينه في مفتتح سورة يونس، بفارق أنّ الحروف المقطعة هناك كانت (الر).

المحطة الأولى: عظمة الآيات القرآنية

في ما نحن فيه استعمل النصُّ القرآنيُّ أداة الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾، التي يُشار بها إلى المؤنث وإلى البعيد. فإلامَ أشير بها؟

الجواب: إنها إشارة إلى ما بعدها وهو ﴿ءَايَٰتُ﴾ جمع (آية)، بمعنى (علامة). وهي مؤنثة لفظاً، لأنّ التأنيث الحقيقي إنما هو في عالم الحيوان، العاقل منه وغير العاقل، أمّا غير الحيوان من الكائنات الأخرى فلا تأنيث فيها ولا تذكير.

والمراد بهذه الـ﴿ءَايَٰتُ﴾ أحد أمرين:

الأول: آيات القرآن كلّه، ليكون المعنى وصفها بأنها ما يكوِّن ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الثاني: خصوص آيات سورة لقمان، ليكون إشارة إلى أنّ من مفردات ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ما سنذكره في سياق السورة.

وسواء كانت الأداة (تلك) إشارة لجميع آيات القرآن، أو لخصوص آيات سورة لقمان، فإنّ النتيجة هي أننا بين يدي آيات ذات شأن، بطبيعتها تدلّ على مضمون يهدي إلى الله تعالى، لا يغفل عنه إلا غافل، ليكون العيب فيه لا في الآية.

وقد تسأل وتقول: لمَ أشير إلى هذه المفردات بـ﴿ تِلْكَ ﴾، التي يشار بها إلى البعيد، مع أنها أُنزلت إلى الناس، وها هم يقرأونها؟!

الجواب: إنّ من أساليب البلاغة العربية استعمال أداة الإشارة للبعيد إذا أريد الإشارة إلى الشيء القريب وكان أمراً عظيم الشأن، أي إنه بعيدٌ

وسامٍ معنوياً، يجدر التعامل معه على أساس عظمته، حتى لا يُستقلَّ شأنه.

المحطة الثانية: إحكام القرآن

من أهمّ ما يجب أنّ يتّسم به كتاب الهداية هو أنّ يكون:

١ ـ (محكَماً)، بمعنى خلوّه من الخلل والنقص والاضطراب والتناقض.

٢ ـ (حاكماً)، بمعنى أنّ له الفوقية على غيره من الكتب لاشتماله على ما لا يوجده فيها، وكماله عمّا فيها من نقص وتهافت.

٣ ـ (ذا حكمة)، بمعنى اشتماله على وجوه الكمال والتمام.

والمحامل جميعها[1] تصبّ في جهة التأكيد على تمامه وكماله بمقدار ما يُفترض أنّ يشتمل عليه من الهداية، فإذا قدِّر أنّ يكون مشروعاً للهداية التامة والشاملة فيجب أنّ يُفترض خلوُّه تماماً من أيّ خلل أو نقص أو اضطراب أو تناقض، يترك ثغرة في جانب من جوانبه لئلا يتسلّل منها الطعن والتشكيك. وقد فاخر الله عزّ وجلّ، وهو منزِّل القرآن العظيم، بأنه كذلك وأنه خالٍ تماماً من أي شائبة، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

وقد بلغ القرآن في إحكام بنيانه، شكلاً ومضموناً، درجة الإعجاز الذي يقصر عن معارضته الناس، ولو في حدود سورة واحدة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ

---

(١) وصيغة (فعيل) تحتمل الوجوه الثلاثة المذكورة، كما قرره علماء الصرف، فقد يراد بها معنى المفعَل، كما في الوجه الأول، وقد يراد بها معنى الفاعل، كما في الوجه الثاني، وقد يراد بها المشتمل على الشيء كما في الوجه الثالث.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

صَٰدِقِينَ ﴾[١]. وقد صار كذلك لأنه من عند حكيم خبير، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[٢].

وجوه الحكمة في آيات الكتاب:

ذكر بعض المفسّرين وجوهاً لوصف الكتاب بالحكيم نجملها في ما يلي بتصرف مناً[٣]:

الأول: أنّ الحكيم هو ذو الحكمة، بمعنى اشتمال الكتاب على الحكمة. وهذا واضحٌ بلحاظ ما تضمّنه الكتاب الكريم من معارف لا يصل إليها الناس لولا العطاء الإلهي المباشر.

الثاني: أنّ يكون المراد وصف الكلام بصفة مَن تكلّم به. قال الأعشى:

وغريبةٍ تأتي الملوكَ حكيمةٍ قد قلتُها ليُقال مَن ذا قالها

الثالث: ما ذهب إليه كثيرون من أنّ (الحكيم)، هنا، بمعنى الحاكم، بدليل ما جاء من قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾[٤]، فالقرآن كالحاكم في الاعتقادات لتميز حقّها من باطلها، وفي الأفعال لتميز صوابها من خطئها، وكالحاكم على أنّ محمداً صادقٌ في دعوى النبوة، لأنّ المعجزة الكبرى لرسولنا ﷺ، ليست إلا القرآن.

الرابع: أنّ (الحكيم) بمعنى المحكَم. والإحكام هو: المنع من الفساد، فيكون:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(٣) انظر مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

أ ـ المراد منه أنّ حقيقته لا يمحوها الماء، ولا تحرقها النار، ولا تغيّرها الدهور.

ب ـ أو المراد منه براءته من الكذب والتناقض. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾(١).

الخامس: أنّ وصف الكتاب بـ(الحكيم)، لأنه تعالى حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه، فعلى هذا فوصفه بـ(الحكيم) معناه المحكوم فيه.

السادس: أنّ (الحكيم) في أصل اللغة عبارة عن: الذي يفعل الحكمة والصواب. فكان وصف القرآن به مجازاً، ووجه المجاز هو أنه يدلّ على الحكمة والصواب، فمن حيث إنه يدلّ على هذه المعاني صار كأنه هو الحكيم في نفسه.

وقد ذكر بعض المفسّرين تفصيلاً آخر لأبعاد الحكمة في الآيات القرآنية، من المناسب ذكرها بلفظها، قال:

ومن إحكامها: أنها جاءت بأجلِّ الألفاظ وأفصحِها، وأبينِها، الدالةِ على أجلِّ المعاني وأحسنِها.

ومن إحكامِها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

ومن إحكامِها: أنّ جميعَ ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة،

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

والأمور الغيبية كلّها، مطابقةٌ للواقع، مطابقٌ لها الواقع، لم يخالفها كتابٌ من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبيٌّ من الأنبياء، ولم يأتِ، ولن يأتيَ، علمٌ محسوسٌ ولا معقولٌ صحيحٌ، يناقض ما دلّت عليه.

ومن إحكامِها: أنها ما أمرت بشيء، إلا هو خالصُ المصلحة، أو راجحُها. ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالصُ المفسدة، أو راجحُها. وكثيراً ما يجمع بين الأمرِ بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهيِ عن الشيء، مع ذكر مضرَّته.

ومن إحكامِها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوسُ الخيّرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامِها: أنك تجد آياتها المتكرّرة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلُّها وتواطأت، فليس فيها تناقضٌ، ولا اختلافٌ. فكلّما ازداد بها البصيرُ تدبُّراً، وأَعمل فيها العقلَ تفكراً، انبهر عقلُهُ، وذهل لبُّهُ من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه، أنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ[1].

وإحكام القرآن المنتج لمادة الحكمة ناشئٌ من أنّ مصدر القرآن هو الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[2]. فإذا أردنا وصف كتاب بأنه (حكيم) فليكن مثل القرآن في إتقانه. نستفيد ذلك من تعبير ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾. فلكي يكون الكتاب حكيماً، بمعنى المتضمّن لحكمة، أو منبع الحكمة، فهو ما كانت هذه آياته.

---

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ذيل تفسير الآية مورد البحث، ص ٦٤٦، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢ هـ.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦.

ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أنّ وصف القرآن بـ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ هو من براعة الاستهلال، لأنّ السورة في مجموعها متضمِّنةٌ لدروس الحكمة التي وعظ بها لقمانُ الحكيمُ نجلَهُ. ولا تخلو من الإشارة إلى أنّ لهو الحديث، الذي مارسه بعض السفهاء لمعارضة القرآن أو لتحدّيه أو ما يشغل الناس عنه، إنما هو نقيض للحكمة، ليكون سفهاً.

المحطة الثالثة: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾

١ ـ لعلّ المراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بعض القرآن الكريم، لأنّ الآية مورد البحث ليست آخر ما نزل من القرآن حتى يصحّ القول إنها إشارة إلى ما تقدّمها من آيات ولم يتبقّ إلا هذه الآية.

٢ ـ لعلّ المراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللوح المحفوظ، كما أشار إليه عدد من المفسّرين.

٣ ـ ولعلّ اختيار وصف القرآن بـ(الكتاب ـ للإشارة إلى أمرين:

الأول: أنّ القرآن ينبغي أنّ يسعى الناس في حفظه، ولما كانت الكتابة من أفضل الوسائل في ذلك، فاللازم أنّ يكتب. وفي ذلك حثٌّ وحضٌّ على الكتابة لخصوص القرآن، ولعموم المعرفة.

الثاني: أنّ غير القرآن لا ينبغي أنّ يُنظر إليه كمنافس، لأنّ القرآن، هو وحده الذي ينبغي الاهتمام به على مستوى تدوينه دستوراً مكتوباً.

وقفة تربوية

بعد ملاحظة ما مرّ ينبغي لنا ـ نحن المخاطَبين بالقرآن ـ أنّ نتأمل في الفوائد التالية:

١ ـ أنّ نستوعب أنّ الإشادة بالشيء الجميل بما فيه ليس عيباً، بل إنه مقتضى القسط والإنصاف. لذلك لا يسوغ أخلاقياً أنّ نركّز في حديثنا عن الآخرين على نواقصهم دون الإشارة إلى كمالاتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

٢ ـ أنّ نسعى في طلب الحكمة، لأننا إذا سمعنا وصف القرآن بالـ(حكيم)، فذاك يعني أنّ للحكمة شأناً وأي شأن، لا ينبغي معه التفريط بها، ولا التهاون في طلبها أو التقاعس في نشرها.

٣ ـ أنّ نقدِّر (العقل) لأنّ الحكمة، في جانبها النظري ليست سوى نتاج لإعماله وتفعيله.

٤ ـ أنّ نقدِّر الروح والوجدان الذي يحقّق لنا الجانب العملي للحكمة.

٥ ـ أنّ نقدِّر حكمة القرآن، والغرض الذي أنزل من أجله، الذي يتمثّل في صلاحنا وإصلاحنا، لنكون من أهل الحكمة، ونستقي ذلك من القرآن الذي هو منبع الحكمة.

٦) أنّ مضامينَ القرآن المبثوثة في آياته مترابطةٌ، ليس لأحدٍ أنّ يتمسّك ببعضها ويهمل بعضاً آخر. ونستفيد ذلك من الإشادة بالقرآن بالإشارة إلى ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وعدم الاقتصار على (آية)، وإلا وقعنا في ما وقع فيه أممٌ سابقةٌ افتقدت الحكمة والاتزان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[1]. فهي خرجت عن حدّ الحكمة لَمَّا تعاملت بانتقائيةٍ مع ما أنزله الله من وحي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(الآية ٣)

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

في الآية الشريفة عدةُ محطاتٍ ينبغي الوقوف عندها، أشار النصّ إليها مباشرة بنحو الظهور حيناً، وبنحو الإلماح والإيحاء حيناً آخر:

المحطة الأولى: نزوع الإنسان نحو الخير

لدى الإنسان تطلُّعٌ دائمٌ للخير، بكلّ أشكاله المادية والمعنوية. وهذا النزوع الإنساني نحو الخير يُعدّ حقيقةً قرآنيةً تعرّضت لها آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1]. وهذا النزوع والتطلُّع حميدٌ في نفسه، يُقرُّهُ القرآن، إذا اعتُمِد في تحقيقه وتحصيله الطرقُ المشروعةُ والصحيحةُ.

والآية مورد البحث تُحرّك في الإنسان هذا النزوع، وذلك من خلال تبيان خصائص القرآن وأنه (هدى ورحمة)، تشويقاً له وحثاً على الإقبال على القرآن، لأنه طالبٌ بطبعه لـ(هدى) وراغبٌ في الـ(رحمة)، فإنّ كان كذلك فلا مناص إذاً من الإقبال على القرآن بعد الإيمان به.

المحطة الثانية: العقل والنفس

التعبير القرآني من خلال كلمتَيْ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾، اللتين جاءتا وصفين،

(١) سورة العاديات، الآية: ٨.

بنحو التمييز أو الحال، لـ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾. هذا التعبير يلفت أنظارنا إلى أنّ ثمّة في التكوين الإنساني قوتين، تعملان معاً على توجيهه في أقواله وأفعاله. وهاتان القوتان هما:

١ ـ العقل، الذي يتولّى في الدرجة الأولى التعاطي مع المعارف والمعلومات، فآيات القرآن ﴿هُدٗى﴾، أي إنها بصائر وبينات تطرد الظلمات والعتمة على مستوى الفكر. ولا يستغني الحكيم عن (المعرفة) ليجنب نفسه الخطأ.

٢ ـ النفس، التي تتولى في الدرجة الأولى التعاطي مع الميول والرغبات. فآيات القرآن تتميّز بأنها ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾، أي إنها أبواب خير تهفو إليها النفوس. ولا يمكن للإنسان في حال الاختيار أنّ يقدم على شيء إلا بعد أنّ يميل إليه، كما لا يمكن أنّ يحجم عن شيء إلا بعد أنّ يتولّد في نفسه عزوفٌ عنه وزهدٌ فيه.

وإذا أردنا أنّ نأخذ بيد الإنسان إلى حيث الصلاح والفلاح فلا بدّ من تصحيح معلوماته ومعارفه أولاً، من أجل أنّ يشكّل صورةً دقيقةً وصحيحةً عن نفسه وما حوله، ليأخذ القرار المناسب، وذلك من خلال توفير الـ﴿هُدٗى﴾ له. وبعد ذلك يجب أنّ نوجّه رغباته وميوله، وفقاً للمعارف الصحيحة والدقيقة، نحو ما يجب أنّ يُحبّ، دون ما يجب أنّ يُبغض ويَفِرّ منه، وذلك من خلال توفير الـ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾.

وإذا توفّر له عنصرا (الهدى والرحمة) فإنه سيترجم ذلك بأفعاله وأقواله مع الخالق والمخلوقين، وبذلك ينخرط في زمرة (الحكماء)، لحرصه على تجنُّب الخطيئة.

والرؤية القرآنية تؤكّد على أنّ شيئاً من ذلك لن يحصل بغير الرجوع إلى الله تعالى ووحيه النازل على عباده المصطَفَين، لأنّ الهدايةَ في بعديها العلمي والعملي نعمةٌ من أجلِّ النعم، والقانونُ الكونيُّ، وفقاً لرؤية القرآن يؤكّد مقولة مفادها ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[1].

وفي شأن الهداية عموماً قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[2].

وفي خصوص الهداية الوحيانية قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

تذييل:

للحديث عن الهداية من حيث معناها وشروطها وموانعها، مجال واسع أسهب في بيانه علماء الإسلام (جزاهم الله خير الجزاء)، ولا بأس بإيراد بعض ما ذكروه مع مراعاة التسلسل التاريخي:

١ ـ قال الراغب الأصفهاني:

هداية الله تعالى للإنسان في الدنيا على مراتبَ، بعضُها مترتّبٌ على

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

بعضٍ، لا تحصل المرتبة الثانية إلا بعد الأولى، ولا الثالثة إلا بعد الثانية.

فالأولى: إعطاؤه العبدَ القوى التي بها يهتدي إلى مصالحه، إمّا تسخيراً وإما طوعاً، كالحواسّ الخمس، والقوّة المفكّرة. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، [وقوله]: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2].

الثانية: الهداية بالدعاء، وبعثة الأنبياء. وإياها عنى بقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[3].

الثالثة: هدايةٌ يوليها مَن اهتدى من صالحي عباده ويمدهم بها آناً فآناً، وحالاً فحالاً بحسب اكتسابهم للخيرات واستزادتهم من العلم والعمل الصالح. وإياها عنى بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾[4]، [وقوله]: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[5].

وبتحري هذه المراتب الثلاث يُتوصّل إلى الهداية إلى الجنة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِىَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[6] انتهى[7].

٢ ــ أمّا المفسر الطبرسي فقال:

اعلم أنّ الهداية في القرآن تقع على وجوه:

(١) سورة طه الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٧) مفردات غريب القرآن، مادة (هدى).

أحدها: أنّ تكون بمعنى الدلالة والإرشاد، يقال: هداه الطريق، وللطريق، وإلى الطريق، إذا دلّه عليه.

وهذا الوجه عامّ لجميع المكّلفين، فإنّ الله تعالى هدى كلّ مكلّف إلى الحق، بأنّ دله عليه، وأرشده إليه، لأنه كلفه الوصول إليه، فلو لم يدله عليه، لكان قد كلفه بما لا يطيق.

ويدلّ عليه: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1]. وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]. وقوله: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[3]. وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[4]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5]. وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[6]. وما أشبه ذلك من الآيات.

وثانيها: أنّ يكون بمعنى زيادة الألطاف التي بها يثبت على الهدى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[7]، أي: شرح صدورهم، وثبّتها.

وثالثها: أنّ يكون بمعنى الإثابة. ومنه: قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[8]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ

(1) سورة النجم، الآية: 23.
(2) سورة الإنسان، الآية: 3.
(3) سورة البقرة، الآية: 185.
(4) سورة فصلت، الآية: 17.
(5) سورة الشورى، الآية: 52.
(6) سورة البلد، الآية: 10.
(7) سورة محمد، الآية: 17.
(8) سورة يونس، الآية: 9.

ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[1]. والهداية التي تكون بعد قتلهم: هي إثابتهم لا محالة، لأنه ليس بعد الموت تكليف.

ورابعها: الحكم بالهداية، كقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾[2].

وهذه الوجوه الثلاثة خاصّة بالمؤمنين دون غيرهم، لأنه تعالى إنما يثيب من يستحقّ الإثابة، وهم المؤمنون، ويزيدهم بإيمانهم، وطاعاتهم ألطافاً، ويحكم لهم بالهداية لذلك أيضاً.

وخامسها: أنّ تكون الهداية بمعنى جعل الإنسان مهتدياً، بأنّ يخلق الهداية فيه، كما يجعل الشيء متحرّكاً بخلق الحركة فيه. والله تعالى يفعل العلوم الضرورية في القلوب، فذلك هداية منه تعالى.

وهذا الوجه أيضاً عامٌّ لجميع العقلاء كالوجه الأول.

فأمّا الهداية التي كلّف الله تعالى العباد فعلها؛ كالإيمان به، وبأنبيائه، وغير ذلك، فإنها من فعل العباد، ولذلك يستحقّون عليها المدح والثواب، وإن كان الله سبحانه قد أنعم عليهم بدلالتهم على ذلك، وإرشادهم إليه، ودعائهم إلى فعله، وتكليفهم إياه، وأمرهم به، فهو من هذا الوجه نعمة منه سبحانه عليهم، ومنّةٌ منه واصلةٌ إليهم، وفضلٌ منه وإحسانٌ لديهم، فهو سبحانه مشكورٌ على ذلك، محمودٌ إذ فعل بتمكينه، وألطافه، وضروب تسهيلاته، ومعوناته[3].

٣ ـ أمّا السيد المدني الشيرازي فقال:

والهداية: مطلق الإرشاد والدلالة على المطلوب بلطفٍ، سواءٌ كان معها

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٤ ـ ٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٨.

(٣) مجمع البيان، ج ١، ص ١٣٨.

وصول إليه أو لا، وسواء تعدّت إلى ثاني المفعولين بنفسها أو بالحرف. هذا هو الحقّ في تفسير الهداية.

وهدايته جل شأنه للعباد على أربعة أنواع مرتَّبة:

الأول: الهداية إلى جلب المنافع ودفع المضارّ بإفاضة المشاعر الظاهرة والمدارك الباطنة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١].

وثانيها: نصب الدلائل العقلية الفارقة بين الحقّ والباطل. وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٢].

وثالثها: الهداية بإرسال الرسل. وإليه ينظر قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٣].

ورابعها: الهداية إلى حظائر القدس ومقامات الأنس؛ بانطماس آثار التعلّقات البدنية واندراس أكدار التعلّقات الهيولانية، والاستغراق في ملاحظة أسرار الجلال ومطالعة أنوار الجمال. وهذا النوع من الهداية يختصّ به الأولياء ومن يحذو حذوهم، وهو المقصود هنا كما يدلّ عليه قوله عليه السلام: واهدنا إليك)، على ما مرّ تحقيقه. ولأنّ هذه الهداية هي التي يترتّب عليها العلم ترتّب الجزاء على الشرط، إذ المعنى: ومن تهده يحصل له العلم.

فإن سألت: ما المراد بهذا العلم الذي يحصل بهدايته إليه سبحانه؟

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٢) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.

قلتُ: المراد به العلم الإلهي والحكمة اللدنية المشار إليها في الذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١]. فمَن حصل له هذا العلم انتقش قلبه بالأسرار الغيبية والصور الكلية والجزئية وكيفية انشعابها وتفاصيلها، واستفاد بذلك الأحكام والوقائع والأخلاق وأحوال المبدأ والمعاد وغيرها من الفضائل الشرعية ومقاصدها من الكتاب والسنة. وكان المتصف به هو العالم الذي هو على هدى من ربه المالك للحقيقة الإنسانية بالعقل، وهي الوصول إلى ما خلق الإنسان لأجله من المعارف الإلهية والطاعات البدنية والطهارة القلبية الموجبة لكمال قربه ورفع درجته عنده تعالى والخلوص عن كلّ ما يوجب البعد عنه جلّ شأنه»[٢].

٤ ـ أمّا العلامة الطباطبائي فقد عقد فصلاً عنونه بـ(كلام في معنى الهداية الإلهية)، قال فيه:

الهداية بالمعنى الذي نعرفه كيفما اتُّخذت، هي من العناوين التي تعنون بها الأفعال وتتصف بها، تقول: هديت فلاناً إلى أمر كذا، إذا ذكرتَ له كيفية الوصول إليه، أو أريتَهُ الطريق الذي ينتهي إليه. وهذه هي الهداية بمعنى إراءة الطريق، أو أخذت بيده وصاحبته في الطريق حتى توصله إلى الغاية المطلوبة، وهذه هي الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

فالواقع في الخارج في جميع هذه الموارد هو أقسام الأفعال التي تأتي بها من ذكر الطريق، أو إراءته، أو المشي مع المهدَيّ. وأمّا الهداية فهي عنوان للفعل يدور مدار القصد، كما أنّ ما يأتيه المهدَيّ من الفعل في إثره

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) رياض السالكين في شرح الصحيفة السجادية، ج ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

معنونٌ بعنوان الاهتداء. فما يُنسب إليه تعالى من الهداية، ويُسمّى لأجله هادياً، وهو أحد الأسماء الحسنى، من صفات الفعل المنتَزَعة من فعله تعالى؛ كالرحمة والرزق ونحوهما.

وهدايته تعالى نوعان:

أحدهما: الهداية التكوينية

وهي: التي تتعلّق بالأمور التكوينية؛ كهدايته كلَّ نوع من أنواع المصنوعات إلى كماله الذي خلق لأجله، وإلى أفعاله التي كتبت له، وهدايته كلَّ شخص من أشخاص الخليقة إلى الأمرِ المقدَّرِ له والأجلِ المضروبِ لوجوده، قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2].

والنوع الثاني: الهداية التشريعية

وهي: التي تتعلّق بالأمور التشريعية؛ من الاعتقادات الحقة، والأعمال الصالحة التي وضعها الله سبحانه للأمر والنهي والبعث والزجر، ووعد على الأخذ بها ثواباً، وأوعد على تركها عقاباً.

ومن هذه الهداية:

ـ ما هو إراءة الطريق، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآية ٥٠.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان:٢ ـ ٣.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣.

ـ ومنها ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[1].

وقد عرَّف اللهُ سبحانه هذه الهداية تعريفاً بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2]. فهي انبساطٌ خاصٌّ في القلب يعي به القول الحقّ والعمل الصالح من غير أنّ يتضيّق به، وتهيؤٌ مخصوصٌ لا يأبى به التسليم لأمر الله ولا يتحرّج عن حكمه. وإلى هذا المعنى يشير تعالى بقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ . . . ـ إلى أنّ قال ـ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[3]. وقد وصفه في الآية بالنور لأنه ينجلي [يتجلّى] به للقلب ما يجب عليه أنّ يعيه؛ من التسليم لحقّ القول وصدق العمل، عمّا يجب عليه أنّ لا يعيه ولا يقبله؛ وهو باطل القول وفاسد العمل.

وقد رسم الله سبحانه لهذه الهداية رسماً آخر؛ وهو ما في قوله ـ عقيب ذكره هدايته أنبياءه الكرام وما خصهم به من النعم العظام: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[4]. فقد أوضحنا، في تفسير الآية، أنّ الآية تدلّ على: أنّ من خاصّة الهداية الإلهية أنها تورد المهتدين بها صراطاً مستقيماً وطريقاً سوياً، لا تخلّف فيه ولا اختلاف. فلا بعض أجزاء صراطه، الذي هو دينه؛ بما فيه من المعارف والشرائع، يناقض البعض الآخر، لما أنّ الجميع يمثّل التوحيد الخالص الذي ليس [هو] إلا حقيقةً ثابتةً واحدةً، ولما أنّ كلَّها مبنيةٌ على الفطرة الإلهية، التي لا تخطئ في حكمها،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٧ ـ ٨٨.

ولا تتبدّل في نفسها ولا في مقتضياتها. ولا بعض الراكبين عليه السائرين فيه يألفون بعضاً آخر، فالذي يدعو إليه نبيٌّ من أنبياء الله هو الذي يدعو إليه جميعهم، والذي يندب إليه خاتمهم وآخرهم هو الذي يندب إليه آدمهم وأولهم، من غير أيّ فرقٍ إلا من حيث الإجمال والتفصيل"[1].

من هذه النصوص، وغيرها، نستفيد عظمة القرآن وأهميته في إصلاح مسيرة الإنسان، باعتبار هذا الأخير محتاجاً إليها، وباعتبار الخالق مصدراً وحيداً لها، وباعتبار القرآن الكريم معبِّراً عن هذه الهداية المنشودة ومجسداً للرحمة المطلوبة. وبه يتأكّد لنا أنّ آيات القرآن ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾.

المحطة الثالثة: الأرضية الصالحة

ثمّ إنّ الآية الشريفة تلفت النظر أيضاً إلى قاعدة من قواعد الحكمة، وهي أننا إذا أردنا تحقيق شيء، خصوصاً إذا كان من قبيل الاهتداء بالقرآن الكريم واستيعاب حكمته وتمثُّلها في السلوك، يجب علينا أنّ نوفر عنصرين اثنين يتوقّف عليهما معاً تحقُّق المقصود، وهذان العنصران هما:

إيجاد المقتضي. ونعني بـ(المقتضي): الأسباب التي هي من قبيل النار، في عملية الإحراق.

رفع المانع، ونعني بـ(المانع): ما كان من قبيل الرطوبة التي تفسد أثر النار فلا يحصل الإحراق.

وقد أشارت الآية إلى هذه القاعدة من خلال قوله تعالى ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾. للتأكيد على أنّ على من أراد أنّ يستثمر القرآن يجب عليه توفير (الأرضية

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

الصالحة)، التي هي (الإحسان).

فمن لم يكن من (المحسنين) فالقرآن بالنسبة إليه ليس هدى ولا رحمةً. وهذا لا يعني خللاً في القرآن، وإنما الخلل في المتعامِل معه، لأنه بقي في عالم الظلمات، في حين أنّ القرآن حقيقة سامية طاهرة وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۞ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۞ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۞ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١). وبعبارة أخرى: فإنّ النقص في القابل دون الفاعل.

المحطة الرابعة: الإحسان في منطق القرآن

إذا كان الإحسان له كلّ هذه الأهمية، بحيث إنّ فاقده يصبح محروماً من القرآن فماذا يعني الإحسان؟

الجواب: إنّ (الإحسان) هو أنّ يتوفّر في العمل شرطان أساسيّان:

الشرط الأول: النية الصادقة (الإخلاص)

ما لم تكن نيّتُ العامل صادقةً فإنّ عمله، مهما كبر وتعاظم ظاهراً، صغيرٌ حقيرٌ في قاموس العمل الرباني، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾(٢). وذاك ينسجم تماماً مع المبدأ العامّ الذي أراد الله من عباده السير فيه، وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾(٣).

ومن أراد الاستفادة من القرآن فلا غنى له عن أنّ يكون محسناً في نيته، لأنّ صدق النية لديه هو الذي يجعله حريصاً على البحث عن الحقيقة

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٧ ـ ٨٠.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٩.

(٣) سورة البينة، الآية: ٥.

في ما هو على أنسٍ به، وفي ما هو جديدٌ لم يألفه سابقاً. وسيجعل من القرآن وهداياته قائداً له في مسيرته على مستوى الجوارح والجوانح معاً.

أما صاحب النية السّيئة فقد يُقبل على القرآن الكريم لأغراض فاسدة حيث يطلب به الدنيا وجاهها، وعند ذلك سيكون (هوى الإنسان) هو قائده وليس (هدى القرآن).

ولنا أنّ نقول إنّ هذا الشرط يرتبط بالحسن على مستوى الفاعل (حسن الفاعل).

الشرط الثاني: تجويد العمل

تجويد العمل يعني أنّ يحرص العامل على إتقان العمل، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. أي إنّ المطلوب من الإنسان أنّ يعمل وفقاً لما أراد الله من الناس العمل به، ومنه (الإنفاق) فإنّ في التلكؤ عنه تعريضاً للنفس للخطر، بينما يعدُّ الإنفاق إحساناً، لأنّ فيه إيصالاً لنعم الله إلى عباده، وهذا إحسانٌ يحقّق أرضية المحبّة الإلهية.

ويمكننا القول إنّ هذا الشرط يرتبط بالفعل، وهو ما درج أهل الفلسفة على وصفه بـ(حسن الفعل).

ومن أراد أنّ يجوِّد عمله فلا محيص له عن أنّ يهتدي بهدى القرآن، لأنّ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2]، ولا محيص له أيضاً عن تطبيق ذاك الهدى، قال تعالى عن القرآن ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية:٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية:٩.

وبالعمل بهذين الشرطين تتحقّق الرؤية القرآنية للإحسان في مسيرة الإنسان، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

(الآية ٤)

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

تكفّلت هذه الآية الشّريفة بتفصيل معالم الإحسان، ووضعت له مؤشّرات ثلاثة، يؤمِّن كلّ واحد منها تنظيم مسار من مسارات العمل الإنساني، التي يجب عليه أنّ يسير فيها، ولا يقتصر على واحد منها، إذا أراد أنّ يعمل على أساس الرؤية الإسلامية التكاملية.

المؤشّر الأول: حسن العلاقة مع الله

أول تِلكُم المؤشّرات هو الإحسان في مسار العلاقة بالله تعالى، الذي يجب أنّ يُلاحَظ فيه أنه سبحانه المالك المطلق للعالم وما فيه، ولكنه إلى جانب ذلك الحكيم المطلق الذي لا باطل في فعله، وهو إلى جانب هذا وذاك المحسن الأول والأخير على هذا الإنسان... لكلّ هذا يجب أنّ تنظّم العلاقة به على أساس:

١ ـ مالكيته تعالى وعبودية ما سواه له.

٢ ـ أنّ له في أعناق عباده من الحقّ ما لا يستطيعون الخروج من عهدته مهما فعلوا.

وأفضل ما يترجم ذلك (الصلاة)، التي تعني، في ما تعني، الانقطاع إلى الله بالعبودية، والتسليم له بالخضوع التامّ. ومن هنا كان من سمات

المحسنين، التي ذكرتها الآية وذكّرت بها، أنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ومن محاسن التعبير في الآية أنها قالت: ﴿يُقِيمُونَ﴾، ولم تقل (يصلّون)، ونستفيد من استعمال مادة (القيام) أنّ المطلوب هو أداء الصلاة بشكل تامّ مع مراعاة الحدود الظاهرية والمعنوية للصلاة، دون الاقتصار على شكل الصلاة، التي يصحّ أنّ نقول معها لمن أدّاها أنه (صلّى)، لكنّ ليس بالضرورة أنّ يكون ممّن (أقام الصلاة). لأنّ إقامة الصلاة تعني جعلها قائمة، فلا انحناء فيها ولا اعوجاج وإلا لم يستقم عنوان (القيام)[1].

وبطبيعة الحال، فإنّ أداء الصلاة بهذا النحو يتطلب العمل الدؤوب على جانبين:

فهم الصلاة، من حيث أحكام الصحة فيه، بتوفير مقدّماتها وشروطها ومراعاة واجباتها، وهو ما تولاه الفقهاء في متون الفقه.

التفاعل مع مضمون الصلاة الروحي والمعنوي، بجعلها جسراً حقيقياً نعرج فيه إلى الله تعالى فـ(الصلاة معراج المؤمن)[2]. حتى لا تصبح شكلاً لا مضمون له، وهذا ما تولّته علوم التربية الروحية.

---

(١) بعد أنّ كتبت ما ذكرته أعلاه راجعت مفردات ألفاظ غريب القرآن مادة (صلا) فوجدته يقول: وكل موضع مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حث عليه ذكر بلفظ الإقامة نحو ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولم يقل المصلين إلا في المنافقين نحو قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥]، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]. وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً أنّ المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط، ولهذا روى أنّ المصلين كثيرٌ والمقيمين لها قليلٌ) انتهى، ولله الحمد أولاً وآخراً.

(٢) مستدرك سفينة بحار الأنوار، مادة (صلى).

المؤشر الثاني: حسن العلاقة مع الناس

المسار الثاني الملازم لجوهر المسار الأول هو (الشعور بالآخرين)، لأنّ من لا يحمل هذا الحس فقد افتقد جوهر إنسانيته، لأنّ الإنسان في الرؤية القرآنية هو من يحقّق الخلافة الإلهية، أو يسعى في تحقيقها، وذاك يعني أنّ يتحمل خليفة الله ما أوجب الله عليه أنّ يتحمّله. وهذه هي حقيقة (الاستخلاف).

ولذلك جاءت الآية الشريفة بمؤشر السير الصحيح في هذا المسار، وهو أنّ المحسنين ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، التي تعني (الإنفاق) المالي الواجب. باعتبار ما امتحن الله عباده بالوجدان عند الأثرياء، والفقدان عند الفقراء، وجعل هذا الفريق أمانةً في عنق الفريق الأول، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[1].

فثمة ـ إذاً ـ ارتباط بين مسار العلاقة بالخالق ومسار العلاقة بالخلق، فمن أراد أنّ يكون محسناً في الأول وجب عليه أنّ يكون محسناً في الثاني، ومن لم يكن محسناً مع الخلق فهو ليس محسناً مع الخالق.

المؤشر الثالث: حسن العلاقة مع الذات

لا يمكن إغفال مسار ثالث هو العلاقة مع الذات. فالمحسنون جادُّون في امتلاك رؤية معرفية صائبة تتجاوز الزمان والمكان، لتغوص في عمق الوجود وتتعرف على ملكوته، مباشرة حيناً وبالاستلهام من الله في الغالب، لينتهي بهم السير المعرفي إلى عالم الكون لا يقف عند حدود الدنيا، بل يتجاوزه إلى

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٢٥.

(الآخرة). التي يؤمنون بها إلى حدّ اليقين، لأنهم أبصروا بقلوبهم وعقولهم دلائل وجودها بنحو الضرورة واللزوم. فكان المؤشّر الثالث أنهم ﴿بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

لطائف فنية وتربوية:

ينبغي لنا أنّ نقف عند بعض اللطائف التعبيرية في الآية الشريفة وسابقتها، نذكرها في ما يلي:

الأولى: أنّ الله تعالى وصف آيات الكتاب بأنها ﴿هُدًى﴾ أولاً، وبأنها ﴿رَحْمَةً﴾ ثانياً، وهما كما نعرف مصدر، وإنما يوصف به كناية عن عمق اتصاف الموصوف بالصفة كما لو أنهما صارا شيئاً واحداً، ففرّق بين أنّ نصف آيات القرآن بأنها هادية وبين أنّ نصفها بأنها هدى، فدلالة الوصف الثاني على عمق الهداية في الآيات أبلغ من دلالتها بالوصف الأول. وكذلك القول في الرحمة، فهي لم توصف بأنها سبب للرحمة، وإنما وصفت بأنها ﴿رَحْمَةً﴾.

الثانية: أنّ الآية وصفت أهل الإحسان بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل (أحسنوا). وفي ذلك دلالة على أنهم اندكّوا في الإحسان إلى الدرجة التي صار سمةً ثابتةً فيهم. وفرقٌ واضحٌ بين أنّ نقول: إنّ فلاناً من الناس أحسن إلى فلان، وبين أنّ نقول: إنّ فلاناً محسنٌ إلى فلان. فالتعبير الأول يؤكّد حصول الإحسان، ولو لمرة واحدة، بينما التعبير الثاني يفيد دوام الإحسان أو كثرته على الأقلّ.

الثالثة: أنّ الآية الرابعة جاء فيها تعبير ﴿يُقِيمُونَ ...، وَيُؤْتُونَ ...،

يُوقِنُونَ ...﴾ بصيغة الفعل المضارع، وفي ذلك دلالةٌ على أنّ فعل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وحالة اليقين بالآخرة، لم تحصل لمرة واحدة أو في حالة واحدة، وإنما هي حالةٌ مستمرّةٌ فيهم، ولذلك جيء بالفعل المضارع الدالّ على الدوام والاستمرار.

وبالطبع، فإنّ ذلك يعني أنّ هؤلاء المحسنين إنما حفظوا صفة الإحسان فيهم بالمجاهدة المستمرة في العمل على تهيئة ما يلزم من شروط الإحسان من التحلي بالفضائل والكمال، والعمل، إلى جانب ذلك، على التخلّي عن أيِّ رذيلة تعيق حركتهم الإحسانية نحو الله تعالى. ولم يكتفوا بفعل الخير لمرة واحدة، بل إنهم جعلوا ذلك عادة من عاداتهم وتقليداً من تقاليدهم.

الخامسة: قد تسأل وتقول: كيف وصف القرآن الكريم، من خلال آياته، بأنه هدى ورحمة للمحسنين الذين هم، بطبيعة الإحسان الراسخة فيهم، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وبالآخرة يوقنون. فما هي الهداية والرحمة التي سينالها هؤلاء وهم، في ما يبدو، مهتدون ومرحومون؟

وهنا سؤال آخر هو: إذا كان القرآن هدى ورحمة لهؤلاء المحسنين، ألا يعني ذلك أنه ليس كذلك لغير المحسنين؟!

الجواب: إذا لاحظنا أمرين اثنين يتضح لنا السرّ ويتجلّى لنا الغموض والالتباس، والأمران هما:

١ ـ أنّ التكامل الذي يُعَدُّ كلٌّ من (الهدى والرحمة) مفردةً من مفرداته، مراتب لا نهاية لها وهو بمثابة سلَّم كلّما ارتقى درجة بقي على الإنسان درجات. ومنطق القرآن يؤكّد هذه الحقيقة الوجدانية، كما في قوله تعالى

عن أصحاب الكهف: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾[1].

وعليه، نقول إنّ القرآن الكريم يزيد المهتدي هدى والمرحوم رحمةً.

٢ ـ أنّ السير في طريق الهدى والرحمة فعلٌ تغييريٌّ، وقد اقتضت سنّة الله تعالى أنه ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[2]، فإذا لم يسعَ الإنسان في إحداث التغيير في داخل نفسه فلن ينفعه أنّ يكون القرآن كتاب هدى ورحمة، وهؤلاء الساعون في تغيير دواخلهم محسنون، وبالتالي سيستفيدون من هدايات القرآن ورحماته.

ولكن نضيف إلى ما قدّمناه هنا أنّ الآية قد تكون إشارة إلى ما سيؤول إليه حال المحسنين بنيّاتهم في إقامتهم الصلاة وأدائهم الزكاة وإيقانهم بالآخرة، إنّ هم واصلوا مسيرة الإحسان إلى أنفسهم بالاستجابة إلى نداء القرآن الكريم، كما يمكن استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[3].

السادسة: يظهر من التعبير في الآية، من خلال تكرار ضمير ﴿وَهُم﴾ أنّ ثمة ترابطاً وثيقاً بين الإحسان واليقين بالآخرة، بحيث يمكننا القول إنّ هنا معادلة قرآنية مفادها:

- المحسنون هم أهل اليقين بالآخرة.
- غير المحسنين ليسوا من أهل اليقين بالآخرة.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

ونضيف: قد يقال إنَّ لليقين مراتب، كما يفيده قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[1]، وكذلك فإنّ الإحسانَ مراتب أيضاً، ونخلص من هذا إلى أنّ الإنسان كلّما ازداد رسوخاً في الإحسان فإنه يوفّر لنفسه أرضية لازدياد يقينه.

(١) سورة التكاثر، الآيات: ٥ ـ ٧.

(الآية ٥)

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

هذه الآية بمثابة النتيجة لحركة الإحسان الدائمة والدائبة لـ(المحسنين).

وقد ذكرت الآية ذلك بإجلال وإكبار، نذكر معالمه ضمن وقفات:

الوقفة الأولى: علوّ منزلة المحسنين

نلاحظ فيها أنّ الآية عبّرت بـ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، وهي أداة إشارة للبعيد، مع أنّ ذكرهم اللفظي قريب، والسرّ في ذلك هو أنّ الآية أرادت التعريف بعلو منزلة المحسنين عند الله سبحانه، لما قدّمنا من نكتة ذلك عند حديثنا عن الآية الثانية من هذه السورة.

الوقفة الثانية: ثبات المحسنين

عبّرت الآية عن المحسنين بأنهم ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾. وهو تعبير دقيق في الدلالة على مدى ثباتهم في طريق الإحسان، فلم ينحرفوا عنه إلى يمين أو يسار، بل إنهم ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾.

الوقفة الثالثة: استقامة المحسنين

عبّرت الآية عن هؤلاء المحسنين أيضاً أنّ هدايتهم هذه تمتاز بخصوصية مهمّة، هي أنها هبة من الله تعالى، فهم على ﴿هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، لنستنتج من ذلك أنها صواب في نفسها وأنها تؤدّي بهم إلى طريق الصواب وسبيل الحق.

الوقفة الرابعة: حكمة المحسنين

إنّ هذه الهداية الربانية شاملة للحكمة النظرية (هدى) وللحكمة العملية (رحمة) معاً، لأنها جاءت وصفاً لمآلهم الذي انتهوا إليه باعتمادهم الحكمتين في سلوكهم في المسارات الثلاثة آنفة الذكر.

الوقفة الخامسة: كرامة المحسنين

إنّ هذه الهداية التي حظُوا بها من الله تعالى إنما هي مظهر لربوبية الله تعالى لهم، فهي ـ إذاً ـ شكلٌ من أشكال التفضُّل واللطف الإلهيّيْن في حقّ المحسنين، وليس استحقاقاً منهم لذلك. وإن لم ننفِ أنّ يكون لما عملوه من وجوه الإحسان سببيّةٌ بنحو ما.

الوقفة السادسة: قرب المحسنين

هؤلاء المحسنون بلغوا مرتبة من القرب إلى الله تعالى حسن معه التعبير بـ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾، للدلالة على هذا القرب، كما لو أنهم وحدهم حظوا بربوبيته، ولم يقل (الربّ).

الوقفة السابعة: عاقبة المحسنين

إنّ اختيار تعبير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ثمّ إلحاقه بأنهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وتكريره ثانياً وإلحاقه بأنهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للإشارة إلى عاقبة هؤلاء المحسنين، كلّ ذلك دليلٌ على علوٍّ منزلتهم وسامي رتبتهم عند الله، لأنّ من أشار إليهم بذلك هو (الله) نفسه. فنحن إذاً أمام منزلة حقيقية وليست مجاملة، ونعرف جميعاً أنه تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.

الوقفة الثامنة: توفيق الله للمحسنين

إنّ قوله تعالى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يدلّ بوضوح على أنّ المحسنين المستلهِمين من القرآن الكريم، والعاملين بما فيه من دروس الحكمة، هم، من بين الناس جميعاً، الذين قُدِّر لهم أنّ يشقّوا طريقهم نحو السعادة التامّة. يستفاد ذلك من ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ الدالّ على الاختصاص.

والفلاح مشتقّ من الفَلح بمعنى الشَّق، كما يقوم به محترفو الزراعة، الذين سُمُّوا بـ(الفلاحين)، لأنهم يفلحون الأرض، أي يشقّونها، ليضعوا البذر فيها. فـ(المفلح) هو: من شقّ طريق السعادة وسار فيه حتى حصد ما زرع.

(الآية ٦)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

على النقيض من فريق ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، تتحدّث هذه الآية الشريفة عن فريق آخر يمكن أنّ نَسِمَهُ بـ(العابثين)، ونقف في الآية على محطّتين اثنتين:

المحطة الأولى: السمات والعلامات

تضع الآية لهذا الفريق علامات أربعاً:

العلامة الأولى: سوء النية وخبث السريرة

أشير إلى هذه العلامة بقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهذا الفريق أفراداً وجماعات، لا يقف عند حدود وقوعه في براثن الضلال، وإنما يمارس عملية (إضلال) للآخرين، فالنية ـ إذاً ـ سيّئة، والسريرة خبيثة، ليس في حقّ الخلق فحسْب، بل في حقّ الخالق أيضاً، لأنه يقطع الطريق ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ثم إنّ هذا الفريق، لخبث سريرته، يجتهد في البحث ما يصدّ عن سبيل الله فهو ﴿يَشْتَرِي﴾، أي إنه يبذل وهو على استعداد أنّ يبذل المال لعملية الإضلال التي يمارسها، ولا يفعل ذلك غير الممعن في الضلال.

وإلى ذلك فإنّ عمق المأساة في ما يفعله هؤلاء العابثون هو أنهم

ينحرفون بالناس عن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بكلّ ما يعنيه نسبة السبيل إلى الله تعالى بهذه الصيغة على الوحدانية، فالسبيل إلى الله ليس متعدّداً، وإنما هو صراطٌ واحدٌ، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]. إلا أنّ يكون سبيلاً متفرّعاً من السبيل الأعظم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وأوضح منها في بيان أنّ هذه السبل متفرعة من سبيل واحد قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

العلامة الثانية: سوء الفعل

يستمرّ النصّ القرآني في تعرية واقع هذا الفريق، ويضيف إلى بيان سوء النية فيه سوء الفعل، وذلك من خلال الإشارة إلى نهجهم في التعامل مع (آيات الله) وكيف ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي الآيات ﴿هُزُوًا﴾. بكلّ ما يبيّنه ذلك من تمادي هذا الفريق في غيِّهِ، فهو ضالٌّ مضلٌّ عن عمدٍ وإصرارٍ، لأنّ هؤلاء تجاوزوا عدم الإيمان بالآيات إلى الاستهزاء بها.

العلامة الثالثة: الجهل

هذا الفريق الضالّ المضِلّ لا يتحرّك انطلاقاً من برهان ومنطق، وإنما هي

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٦.

شهوات وشبهات، فهو يعمل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، لذلك فإنه لا يخرج من ظلمة حتى يقع في أخرى، ولكنه لجهله وسوء تقديره وتدبيره لا يكتشف ذلك إلا بعد فوات الأوان، حيث لا مجال للندم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۞ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1].

ولعلّ الآية تشير إلى جهل هذا الفريق وحمقه إذا فسّرنا قوله تعالى ﴿يَشْتَرِي﴾ بمقدار ما بلغه هؤلاء العابثون من الحماقة بحيث إنهم يعقدون صفقات خاسرة يشترون فيها الباطل ويتركون الحقّ، ليكون التعبير استهزاءً بهم!

كما يمكن استفادة جهل هذا الفريق إذا قرأنا ﴿لِيُضِلَّ﴾، بصيغة المبني للمعلوم[2]، حيث إنه اختار (لهو الحديث) وهو ما أخذ به نحو الضياع، مع أنّ العاقل بطبعه يبحث عن الاهتداء لا الضياع. فتكون اللام للغاية، على غرار قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3]. فآل فرعون لم يلتقطوا موسى عليه السلام قاصدين أنّ يربُّوه عدواً لهم وسبباً لحزنهم، وإنما

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

أقول: تقييد الآية أنّ الذي يحسب الماء سراباً هو الظمآن، أو نصها بالخصوص عليه، مع أنّ غيره يشارك الظمآن في ذلك، من باب أنّ الظمآن هو الذي بصدد البحث عن الماء فيلفت نظره السراب المترائي كأنه ماءٌ، أمّا غيره فلا يهمه ذلك إلا من باب لفت النظر.

(٢) كما قرأ ابن كثير وأبو عمرو.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨.

التقطوه ليكون صديقاً وحبيباً يدخل السرور عليهم. لكنهم أخطأوا حيث أرادوه كذلك على خلاف الصراط المستقيم.

العلامة الرابعة: أساليب رخيصة

يُمعِن فريق العابثين في تحدّيهم للحقّ والحقيقة في غيِّه ليعتمد أساليب رخيصة في تدجيله وتلبيسه على البسطاء والسذج، فكلّما قام دعاة الحقّ ببيان آية، قام هؤلاء بإغواء شيطاني يستثيرون به شهوة، أو يحرّكون به شبهة، ليَصدّوا ويُضِلّوا عن سبيل الله. من قبيل ما قيل إنّ بعض المشركين كان يحكي للسذّج في مكة قصصاً وأساطير عن الغابرين، في مقابل ما يقصه الرسول ﷺ مما أوحاه الله تعالى إليه. وكيف يقابل حقّ المرسلين، الذي هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[1]، بـ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾؟! أليس ذلك عبثاً صارخاً من هؤلاء العابثين؟!.

خصوصاً مع ملاحظة ما روي من سبب نزول الآية:

أ ـ فعن الكلبي أنّ النضر بن الحرث كان يتَّجر، فيخرج إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم، ويحدِّث بها قريشاً، ويقول لهم: (إنّ محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة. فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن)[2].

ب ـ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**هو الطعن بالحق والاستهزاء به، وما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به، إذ قال: يا معشر قريش! ألا أطعمكم من الزقّوم الذي يخوِّفكم به صاحبكم؟! ثمّ أرسل**

(١) سورة لقمان، الآية: ٢.

(٢) انظر مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ الطبرسي.

إليهم زبداً وتمراً، فقال: هذا هو الزقّوم الذي يخوّفكم به»[1].

هذان السببان، ويمكن أنّ يكون كلٌّ منهما سبباً للنزول، يدلان على مدى ما يمكن أنّ يصل إليه السفهاء من الناس، في سوء التعامل مع آيات الله وبيّناته، إذ يمعنون في غيّهم ويكابرون أمام الحقّ ولا ينصاعون لدلائله، بل ويتنافسون في محاربته بأرخص الأساليب وأقذرها. وهي نتيجة طبيعية لمن يلقي بنفسه في براثن الشيطان وشراكه.

المحطة الثانية: العاقبة

لا تقف الآية عند العلامات، بل تكمل المشهد بالحديث عن عاقبة الفريق السيّئة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. وهنا وقفات:

الوقفة الأولى: الجزاء من جنس العمل

لهذا الفريق العابث عقوبةٌ شديدةٌ تناسب استكبارهم واستهزاءهم النابعَيْن من غرورهم في أنفسهم، وصفة هذا العذاب أنه ﴿مُّهِينٌ﴾، ولا يخفى التناسب بين وصف العذاب بذلك وبين حالهم في الدنيا، فقد كانوا فيها متكّبرين مستهترين مستهزئين، فجزاؤهم في الآخرة أنّ يُهانوا.

الوقفة الثانية: الجزاء نتيجة

تُبيّن الآية في صياغة منطقية عالية أنّ ما سيناله هؤلاء العابثون من العذاب المهين هو ﴿لَهُمْ﴾ كنتيجة طبيعية، طبقاً لقانون العدالة الإلهية، وهذا نصُّه ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾[2]. وفي صياغته الأخرى والأوضح

(١) انظر مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ ةالطبرسي.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٧.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

الوقفة الثالثة: خزي وذلّة

مما يستفاد من الآية الشريفة أنّ المتنكّبين عن آيات الله والمستكبرين عليها سيكونون في درك متسافل عن الكمال والرفعة ـ فقد بعُد هؤلاء العابثون عن الله تعالى جداً، بما ضلّوا وأضلّوا ـ يشير إلى تعبيرين:

الأول: قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ التي لا يمكن حملها على الرفعة والسمو المعنوي، بل يجب حملها على البعد المعنوي عن الله تعالى.

الثاني: لعلّ تفاهة هذا الفريق هي التي جعلت السياق يتحدث عن ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، في الآيات السابقة، بينما يتحول إلى الحديث عن أناس نكرات في هذه الآية وذلك من خلال قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وقبلها في قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، الذي يشي بالاستصغار لقدرهم الصغير ببعدهم عن الله تعالى.

تذييل: اللهو حرام ومكروه

في الرؤية القرآنية رُسِم للإنسان مسارٌ يتمثّل في (خلافة الله)، ويُفترض بهذا الخليفة أنّ لا ينحرف عنه. ولكنّ بين هذا السائر وغايته سدودٌ وحدودٌ، عليه أنّ يكون حذراً ويقظاً حتى لا تعيق تلك السدودُ حركتَهُ عن مساره، ومنها ما أطلق عليه القرآن عنوان (اللهو)، وهو نوعان:

الأول: ما كان بطبيعته ملهِياً، وقد وُسم هذا بأنه حرام من حيث المبدأ، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٨.

(٢) سورة التكاثر، الآية: ١.

وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[(٢)]. لذلك فإنّ التكاثر، وهو: التفاخر المبني على كثرة العدد، بعيداً عن موازين الحقّ والتقى، والأمل، وهو: استشعار البقاء الموقع في معصية الله ومخالفة أحكامه. والاستهزاء بالدين، كلُّ ذلك لهوٌ محرَّمٌ.

الثاني: ما لم يكن بطبيعته ملهِياً، لكنه قد يتحوّل بسوء الاستخدام إلى حامل لهذا العنوان، كالدنيا والأولاد والتجارة ... ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[(٤)]. فالدنيا بذاتها ليست لهوا محرَّماً، لكنّها تحمل بذرة التحوّل إلى اللهو المذموم المحرّم، لذلك يجب الحذر في التعامل معها.

الغناء من لهو الحديث:

ورد في النصوص عن المعصومين عليهم السلام أنّ (الغناء) مصداق لـ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ المذموم في الآية مورد البحث، ومن تلك النصوص ما ذكره السيد البحراني في البرهان[(٥)]:

١ ـ الكُلَيني بسنده عن أبي بصير، قال سألت أبا جعفر عليه السلام: عن كسب المغنيات، فقال: «**التي يدخل عليها الرجل حرامٌ، والتي تُدعى إلى الأعراس ليس به بأسٌ، وهو قول الله عزّ وجلّ:** ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ

(١) سورة الحجر، الآية ٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٥) ذيل الآية مورد البحث.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾».

٢ ـ وبسنده عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سمعته يقول: (الغناء مما وعد الله عزّ وجلّ عليه النار). وتلا هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٣ ـ وبسنده عن مهران بن محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: الغناء مما قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ وبسنده عن الوشّاء، قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام، سئل[1] عن الغناء؟ فقال: هو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ وبسنده عن الحسن بن هارون، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**الغناء مجلسٌ لا ينظر الله إلى أهله. وهو مما قال الله عزّ وجلّ:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾».

ختام واستخلاص:

حينما نقرأ هذه النصوص وما ورد من أسباب النزول فلا ينبغي أنّ يكون ذلك سبباً لتضييق مفهوم الآية فيها، فهي أقرب ما تكون للمناسبات التي تشير إلى بعض المصاديق لتشكّل منطلقاً للتعامل مع كلّ ما يكون سبباً للبعد عن الله تعالى، وعلى (هذا فإنه يدخل فيه كلّ شيء يلهي عن سبيل الله

(١) في المصدر: أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن ...).

وعن طاعته؛ من الأباطيل والمزامير والملاهي والمعازف، ويدخل فيه السخرية بالقرآن واللغو فيه، والترّهات والبسابس، وكلّ لهو ولعب، والأحاديث الكاذبة والأساطير الملهية عن القرآن)[1].

---

(1) مجمع البيان بتصرف.

(الآية ٧)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

لكي لا يقال إنّ ما استفدناه من الآية من تفاهة هذا الفريق خارج من دلالة الآية، يواصل السياق بيان طبيعة حال الفرد، لنعرف منه حال الفريق بأجمعه، والحديث هنا أقرب ما يكون إلى الغوص في البعد النفسي، لتكون الصورة مكتملة بضم ما أبانته الآية السابقة إلى ما بينته هذه الآية. ولنستعرض ذلك في مشاهد:

المشهد الأول: اللطف الإلهي

من صفات الله عزّ وجلّ أنه لطيف بعباده، فقد وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[1]. ومن مظاهر هذا اللطف أنه يؤمّن لهم ما يحتاجونه من النعم ظاهرة وباطنة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2].

لكنه قد يحرمهم إذا كان في ذلك مصلحتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[3].

(١) سورة الشورى، الآية: ١٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٧ .

وفي الآية مورد البحث يشير النصّ إلى بعض مظاهر هذا اللطف في حقّ الإنسان وكيف يقابله هؤلاء العابثون بنِعَمِ الله وآياته. وتتحدّث الآية عن مؤشّرين لهذا اللطف الإلهي:

المؤشّر الأول: آياتٌ تُتلَى

الإنسان في مسيرة الوحي يمثّل المتلقيَ وليس الفاعل، فهو تعالى يقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾. فالنبي، أيَّ نبيٍّ، ومن يقوم مقامه، هو حامل اللطف الإلهي إلى الناس ليتلّقى الآيات أولاً، قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1]. ويتلوها ثانياً، قال تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

لذلك يصحّ أنّ يقال إنّ الإنسانَ محمولٌ في هذه المهمّة وليس حاملاً، ومن ثَمَّ فإنّ المنطق يفرض عليه أنّ يحسن التلقي ولا ينكر هذه النعمة أو يتنكر لها. أَوَ لَمْ يكفِه أنّ يبعث الله الأنبياء و﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾؟!.

المؤشّر الثاني: علامات الخلاص والراحة

ينشد الإنسانُ بطبعه، كما قدّمنا، الخيرَ لنفسه، وباعتبار أنّ هذا الخير لا يُنال من عند غير الله تعالى، فإنّ العقل الفطري يدرك بوضوح أنّ هذا الخالق اللطيف بعباده سيتولّى عبده الراغب في الخير، بالرعاية والتوجيه. وهذا ما حصل من خلال ما يتلو النبي من آيات، وهي التي أضيفت إلى الله فقال ﴿ءَايَٰتُنَا﴾. للدلالة على:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

١ ـ أنها من ألطاف الله تعالى، فهي علامات، والآية هي العلامة، ومسيرة الإنسان لا غنى فيها عن (العلم).

٢ ـ أنها خالية من الخطأ تماماً، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2]. لذلك فهذه الآيات هي طريق نجاة يجب السير فيه، ولا يجوز الانحراف عنه.

٣ ـ أنها ذات عظمة خاصّة استحقت معها التشريف بنسبتها إلى الله تعالى فهي ﴿ءَايَٰتُنَا﴾.

٤ ـ أنّ الواجب أنْ يُتعامل معها على أساس صدورها عن المولى اللطيف، فلا مجال للتلكّؤ في تلقيها، ولا التراخي في العمل بمضمونها، ولا التهاون في الدفاع عنها، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[3].

المشهد الثاني: الصفقة الخاسرة

يُعتبر الإعراض عن آيات الله تعالى منتهى الحماقة والجهل، وفريق اللاهين والعابثين أوضح مصداق على ذلك، حيث استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فاشتروا لهو الحديث بدل آيات الكتاب الحكيم. وتأخذ الآية الشريفة في الغوص في العمق النفسي لهم ضمن معالم:

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٨.

(٢) سور فصلت، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

المعلَم الأول: الاستكبار

من الآفات التي عانى منها الإنسان، عبر التاريخ، آفة الكبر، التي تحول بطبيعتها بينه وبين الانصياع للحق، فيقع في رذيلة الإعراض عن الحقيقة، ويُصاب بالعمى المعنوي، فتنقلب المفاهيم عنده، فلا يرى إلا ما يريد رؤيته، ويتجاهل ما هو ماثلٌ أمامه، فيختار طريقاً غير ما يجب عليه أنّ يسلكه. وتعبير الآية دقيقٌ في تصوير حالته، فهو ﴿وَلَّىٰ﴾ أي إنه أشاح بوجهه، لما يجب أنّ ينظر إليه، وأدار ظهره للطريق الذي كان عليه السير فيه.

ثمّ إنه فعل ذلك ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، إي إنه تصنَّع الكبر الذي ليس له، ولبس ثوباً ليس له أنّ يلبسه، بادعائه أنه أعلى شأناً من أنّ يستسلم لآيات الله تعالى. والكبر رداء الله، كما جاء في النصوص وأيدته البراهين والأدلة العقلية.

المعلَم الثاني: التجاهل

يشير النصّ القرآني إلى منهج العابثين في صدودهم عن الحقّ وآياته، وهو أنهم يتصنعون عدم الاستماع، لأنّ إقرارهم بسماعها يلزمهم بالإذعان لها، فالمنهج الأمثل هو التظاهر بأنهم لم يسمعوا، لذلك قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾. فالنص يثبت أنهم سمعوا، ولكنهم تظاهروا بخلاف ذلك.

المعلم الثالث: التبرير

لا يكتفي الصادّون عن الحقّ والعابثون بالتظاهر بأنّهم لم يسمعوا، بل يوغلون في إيهام الناس ومخادعتهم، من خلال التصنّع ثانياً بأنهم معذورون عن السماع لأنّ آذانهم صمّاء، مع أنهم ليسوا كذلك، ومن هنا جاء التعبير

القرآني ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾.

ولعلّ التعبير يكشف عن مآل عبث هؤلاء وإصرارهم على الغيّ، بأنّ الله تعالى يجازيهم على سوء فعلهم، بأنّ يحول بينهم وبين اهتدائهم بآياته، لأنهم أشبه ما يكونون بالصمّ العاجزين عن السمع، وهو معنى الوقر.

المشهد الثالث: العاقبة عذاب موجع

بعد هذا التجوال في سمات هؤلاء المكابرين تصل النوبة إلى بيان مآلهم وعاقبتهم الوخيمة، وهي أنهم سيواجهون، لا محالة، نتائج أعمالهم، التي رسموا هم معالمها فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[1]، فلهم ما عملوا، في مقابل الفعل الحسن العاقبة الحسنة وفي مقابل الفعل القبيح العاقبة السيّئة، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2].

ولأنّ هؤلاء قد عصوا الله بالإساءة إلى أنفسهم بالتصام عن آيات الحق، فقد حكموا على أنفسهم باستحقاق العقوبة، ونلحظ هنا أمرين:

الأول: من المناسب أنّ يُتعامل مع هؤلاء المستكبرين المتولِّين عن الحقّ بأنّ يُستهزأ بهم كما استهزأوا بالحق، لذلك ناسب التعبير بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ ﴾.

الثاني: من المناسب أيضاً أنّ تكون العقوبة مشاكِلةً للجرم، وحيث كان أولئك عابثين متعالين على الحق، فقد أوعدهم الله تعالى بعقوبة مؤلمة تعيد هؤلاء إلى صوابهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. وبعض الناس

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.

بلغ به الانحطاط مستوى لا تهمّه الإهانة، ولكنّ يثيره الألم؛ لأنّ إحساسه قد تركّز في جسده، أمّا روحه فلا نصيب لها من الإحساس.

فالألم، الذي وصف به العذاب هنا، يناسب الاستكبار والاستعلاء، الذي اتصف به هؤلاء، بينما الإهانة، التي وصف بها العذاب هنا، تناسب الاستهزاء الذي مارسه هؤلاء العابثون في تعاملهم مع الآيات.

لطائف فنية:

١ ـ قد يكون التعبير دالاًّ على أنواع العذاب التي يلاقيها هؤلاء في منازل الآخرة، كما أنّ صنوف الثواب كثيرة، فهناك ما هو أليم، وهناك ما هو مُهين ...

٢ ـ وقد يكون التعبير بالنكرة للدلالة على هول العذاب الذي (بُشِّر) به هؤلاء.

٣ ـ قد يكون من أسباب اختيار وصف ﴿أَلِيمٍ﴾ بالخصوص، لتناسبه من حيث الوزن مع ما سيأتي في الآية التالية من مكافأة حسنة هي الـ﴿نَعِيمُ﴾ الذي أضيف إليه ﴿وَجَنَّٰتِ﴾.

(الآيتان: ٨، ٩)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

بعد أنّ استعرضت الآيتان السابقتان فئةَ العابثين اللاهين تتناول هذه الآيةُ وتاليتُها، في جولة جديدة، أهل الإحسان لكنّ من زاوية أخرى، غير الزاوية التي ذكرتها الآية الرابعة، وعرَّفت بخصائصهم الفكرية والسلوكية. ولنقف هنا في محطّات:

المحطّة الأولى: حقائق القرآن

اعتمدت الآية الشريفة لغة مؤكّدة، من خلال كلمة أداة التأكيد ﴿إِنَّ﴾، للكشف عن عاقبة من يحسن التعامل مع القرآن على مستوى الفكر بـ(الإيمان)، وعلى مستوى السلوك بـ(العمل الصالح). وذلك لأنّ القرآن كتاب حقّ من حقّ، فـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1]، وهو إلى ذلك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2]. كما أنه ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾[3].

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

وتأسيساً على ذلك، نقول: إنّ القرآن كتاب حقائق، لا ينبغي التعامل مع ما فيه، حتى غير المؤكَّد بصياغات التأكيد، على أنه كلامٌ يؤخذ منه ويرد، بل يجب قبوله جملةً وتفصيلاً ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

المحطّة الثانية: الإيمان المحقَّق والشامل

تنتقل الآية بعد ذلك إلى الحديث عن فئة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، والإيمان هو: التصديق الراسخ. في صياغة توحي بأنهم كانوا على عهد قديم مع الإيمان، وذلك من خلال اعتماد صيغة الماضي. ليشير ذلك إلى أنهم سيظلّون ثابتين على إيمانهم هذا ولن يتخلَّوا عنه إلى آخر حياتهم. ومن ثَمَّ فإنهم على موعد مع المكافأة التي تتحدّث عنها الآيةُ لاحقاً.

ويلفت التعبير في الآية إلى أنه لم يَذكر متعلَّقاً للإيمان من قبيل: الإيمان بالله تعالى، أو بالرسالة، أو بالرسول، أو بالآخرة ... ليشي ذلك بمسألتين:

المسألة الأولى: الإيمان كلٌّ لا يتجزّأ

الإيمان إذا أُطلق فهو يعني أنّ ما يُراد الإيمان به غير قابل للتجزئة. خصوصاً الآيات التي مرَّ التنويه بها والتهديد لمن تنكَّر لها. ولعلّ السبب في ذلك أنها حقائق مترابطةٌ بطبيعتها، لا يمكن الإيمان ببعضها والكفر ببعضها الآخر، ومن وقع في ذلك فقد وقع في ذلك لخطأ علميّ أو خطيئة سلوكية، وكلاهما خلاف الحكمة.

المسألة الثانية: التوحيد رأس الإيمان

الإيمان إذا أُطلق أيضاً يتبادر منه أمهات مسائل الإيمان، وعلى رأسها

(١) سورة يونس، الآية: ٣٢.

التوحيد. ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ دعوات الأنبياء عليهم السلام كانت تركز على (التوحيد)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1]، دون الدخول في التفاصيل. ولعلّ السرّ في ذلك أنّ من آمن حقيقة بالتوحيد، لا مناص من أنّ ينتهي به إيمانه إلى التصديق والإذعان، أي الإيمان بالتفاصيل.

وكنموذج على هذا المبدأ العامّ، نقرأ في السيَر الدعوية للأنبياء عليهم السلام حقبةً بعد حقبةٍ ونبياً بعد نبيٍّ، كمثال على ذلك نورد ما يلي:

قوله تعالى عن نبيّه نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

قوله تعالى عن نبيّه هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3].

قوله تعالى عن نبيّه صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[4].

قوله تعالى عن نبيه شُعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

قوله تعالى، حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾[5].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

المحطّة الثالثة: إعمار الأرض الشامل

تنتقل الآية بعد ذلك إلى الحديث عن التفاعل، لدى هذا الفريق، بين الفكر والسلوك، وبين الشعار والتطبيق، حيث إنهم يترجمون إيمانهم، بالتوحيد وفروعه، إلى منهج حياة مليئة بالعطاء والبذل، والاستثمار الكامل لنعم الله بطريقة صحيحة، تنفي عنهم أسباب الندم، وذلك من خلال التعبير القرآني ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وهو ما ينسجم مع قوله تعالى في بيان واقع التوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

ومن المناسب هنا الوقوفُ أمام ملاحظتين اثنتين:

الأولى: أننا كما رأينا تحقّق الإيمان فيهم فإنّ التزامهم بعمل الصالحات تحوّل إلى سلوك دائم ومستمرّ.

الثانية: أنّ عملهم الصالح شامل في كلّ الاتجاهات، فهم لم يقفوا أنفسهم على عمل صالح واحد، وإنما هي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يعملونها لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج في الفكر والمشاعر والسلوك، وفي الأفراد والجماعات، ولمن يعرفون ومن لا يعرفون. ذلك أنّ إيمانهم تحول إلى طاقة خير متفجّرة لا تسمح لهم بالكلل والملل.

المحطّة الرابعة: العاقبة الحسنة

بمقتضى العدل والتفضّل الإلهيّين فإنّ المؤمنين العاملين للصالحات،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤ ـ ٢٥.

الذين تحمّلوا، بطبيعة الحال، صنوف الإحن والمحن وصمدوا وثبتوا على مقتضيات الإيمان، فلم يتراخوا ولم يتكاسلوا، كما أنهم لم يتراجعوا عن فعل الخير. هؤلاء جديرون بمكافأة لائقة، اختصرتها الآية في قوله تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وينبغي أنّ نتوقّف أمام هذا التعبير عند عددٍ من الملامح:

الملمح الأول: استحقاق الإنسان وفضل الرحمان

اختارت الآية تعبير ﴿لَهُمْ﴾ للإشارة إلى أنّ جهد هؤلاء لن يضيع فقد ادخر مكافأة للمؤمنين والعاملين للصالحات، تعبيراً عن استحقاقهم لثمرات عملهم، مع أنه تعالى هو الموفّق لهم للإيمان ولفعل الصالحات، فله الحمد أولاً وآخراً.

الملمح الثاني: سعة النعيم

لا يقف التفضّل الإلهي على العبد الصالح بمكافأته بنوع واحد من الخير، يترجم بجنّة واحدة، بل إنه يتسع ويكبر ليصبح ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾. ولعلّ ذلك كناية عن الإرضاء التامّ الذي وعد الله تعالى به هذا الفريق المجاهد لصنوف الإغراءات الشيطانية.

الملمح الثالث: دوام النعيم

يترقّى الوعد الحقّ إلى تحفيز الإنسان، الفرد والجماعة، لإيمان وفعل الخير، بمختلف التحفيزات، ومنها تحريك نزوعه نحو السعادة الدائمة والشاملة، بأنّ أكد سبحانه على بعد الخلود الذي هو الدوام والاستمرار. ويضيف إلى ذلك أنّ هذا العمر المديد، ليس مجرد فترة زمنية ممتدّة، بل

هي حقبة زمنية ملؤها التنعُّم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فلا داعي للقلق من انقطاع مشوار السعادة، فهو دائم، ولا خوف من ضيق آفاقها فهي جنّات أولاً وخلود ثانياً.

الملمح الرابع: وعد الصدق

تضيف الآية إلى ما تقدم من ملامح، ملمحاً جديداً يسوغ لنا تسميته بـ(وعد الصدق). وذلك أنّ الله تعالى:

باعتبار أنه ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[1].

وباعتباره ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[2].

وباعتباره ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[3].

إلى غير ذلك من اعتبارات تلتقي جميعها في أنّ الله إذا وعد صدق. لنخلص إلى أنّ الله تعالى أراد بقوله تعالى ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أنّ يصيب هدفين أساسيّين:

الأول: تطمين المؤمنين العاملين الصالحات.

الثاني: حضّ غير المؤمنين للحصول على نتائج قطعية وخيارات حتمية، دون الاعتماد على أوهام ومزاعم لا طائل من ورائها. وإن لم يقبلوا الوعد الحقّ فلن ينالوا غير جواب الشيطان الذي لبّس عليهم في الدنيا، وسيق كلامه في وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿وَقَالَ ـ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ـ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.

عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

الملمح الخامس: مصير الإنسان وغنى الرحمان

تختم الآية المباركة بملمح يرفع ما يمكن أنّ يخالج بعض النفوس من أنّ الله تعالى دعا الناس إلى أنّ يعبدوه لحاجة، فأكّد عزّ وجلّ أنّ مقام علاه ينفي ذلك فـ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ مؤكِّداً ذلك بالضمير. والعزّة هي الامتناع التي يتنافى معها أنّ يكون العزيز محتاجاً.

ملحِقاً ذلك بالتأكيد على أنّ جميعَ ما كلَّف العبادَ به إنما يرجع لمصلحتهم هم ، فهو تعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، نافياً بذلك ما قد يختلج في بعض النفوس من القلق أمام بعض الأحكام، بالخصوص ما كان المقصود الحقيقي منه غير مفهوم. وذلك أننا إذا آمنا أنه تعالى الحكيم في ما يفعل ويقول فلا مجال لمثل هذا الخاطر.

الملمح السادس: عواقب الأمور

مما تلفت الآيةُ وسابقتها إليه هو أنّ على الحكيم وطالب الحكمة أنّ يكون ملاحظاً لعواقب الأمور، فإنّ كانت حسنةً سعى إليها، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وإن كانت قبيحة نأى بنفسه عنها، وهو ما نبّه إليه في الآية السابقة قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(الآية: ١٠)

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

بعد أنّ استعرضت الآيات السابقة عظمة القرآن ودوره، وافتراق الناس، في التعامل مع الحقّ والحكمة من خلاله، إلى فريقين:

١ ـ فريق العابثين اللاهين، الذين خلت نفوسهم من حكمة العلم ومن حكمة العمل.

٢ ـ فريق المؤمنين العاملين للصالحات، الذين عمرت عقولهم وقلوبهم بالحكمتين معاً.

بعد كلّ ذلك انتقلت هذه الآية ولاحقتها إلى الحديث عن بعض الدلائل والبيّنات، لعلّها تحرّك العقول والنفوس باتجاه الانصياع لمرّ الحق، وتقبُّل الحكمة وتحمُّل آلام حملها لجني ثمراتها لاحقاً. فتنوّعت هذه الدلائل على صنفين:

الأول: دلائل الله تعالى في السماء

الثاني: دلائل الله تعالى في الأرض

وقد انطلق الخطاب القرآني هنا من مسلّمات لا مجال للتنكّر لها. ولنذكرها تبعاً للآية في فقرات:

الفقرة الأولى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾.

جعل الله عملية (الخلق)، التي هي مشهودة للجميع، من خلال ما يشاهدونه من الفناء بعد الوجود، ومن التغيرات التي تطرأ على هذا المخلوق وذاك، جعلها منطلقاً للتأكيد على وجود (الخالق) وكماله. إذ إنّ عملية (الخلق) تتكوّن من أطراف ثلاثة:

الطرف الأول: الخالق

الطرف الثاني: الخلق

الطرف الثالث: المخلوق

بلا فرق بين أنّ يكون المخلوق محسوساً أو غير محسوس، ومادياً أو غير ماديٍّ.

ولا يُعقل في النظر إلى فعل الخلق أنّ يقتصر في النظر عند حدود المخلوق، وهو المنعَم عليه، ويُتجاهل الخالق، وهو المنعِم.

ولكن من الإنصاف أنّ يقال إنّ هذه المخلوقات تتفاوت في قيمتها وأهميتها في نفسها وعلى المخلوقات الأخرى. فالسماء، مثلاً، التي جيء بها دليلاً أو تنبيهاً في الآية، ذات منافع عامة لا تخفى على أحد.

ولا يخفى أيضاً عظمة السماء، بل السموات، في دلالتها على الله خالقها تعالى، من حيث كونها أقيمت بغير عمد. مع أنّ ما نعرفه من القوانين الطبيعية أنّ الشيء لكي يرتفع يجب أنّ يتكئ على شيء، ويتأكّد هذا القانون كلّما ثقل الشيء، فكيف بالسماوات التي يُعدُّ ثقلها أكبر أضعافاً مضاعفةً من جميع ما نشاهده ونعرفه؟!

قد تسأل وتقول: هل إنّ تعبير ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يفيد أنّ ثمة أعمدة تتكئ عليها السماء لكنها لا تُرى؟ أم أنّها تفيد إنه لا توجد عمد حتى تُرى؟

الجواب: لعلّ ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام يوضح لنا أنّ المراد هو نفي الأعمدة أصلاً، ليكون ذلك أدلّ على عظمة فعل الخلق الإلهي، ونورد هنا نصين شريفين عنه:

الأول: قوله عليه السلام في بعض خطبه: «**فسوى منه سبع سموات، جعل سُفلاهن موجاً مكفوفاً، وعُلياهن سقفاً محفوظاً، وسَمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها ولا دسار ينظمها**»[1].

الثاني: قوله عليه السلام في خطبة أخرى: «**فمن شواهد خلقه خلقُ السموات موطَّدات بلا عمد، قائمات بلا سند**»[2].

ومن دون هذين النصين، ونظائرهما، فإننا لو خُلّينا والتعبير القرآني فإنه محتمِلٌ للتفسيرين معاً[3].

الفقرة الثانية: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

في هذه الفقرة ذُكِر آيتان من آيات الله ولطفه، وهما:

الآية الأولى: رواسي الأرض

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١.

(٢) م ن، الخطبة ١٨٢. وروي هذا المضمون في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، كما في تفسير نور الثقلين ج ٤، ص ١٩٥.

(٣) ومما يدلّ على وجود العمد ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره بإسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: قلت له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾. فقال: هي محبوكة إلى الأرض، وشبّك بين أصابعه. فقلت: كيف تكون محبوكةً إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؟! فقال: سبحان الله أليس يقول بغير عمد ترونها؟ فقلت: بلى! فقال: فثَمَّ عمدٌ، ولكنّ لا ترونها). تفسير نور الثقلين ج ٤ ص ١٩٥.

(الرواسي) هي: الجبال. ومن تسميتها أو وصفها بذلك، نتعرَّف على دورها، وهو تثبيت الأرض، كما ترسو السفن في الموانئ، ومن ذلك سُمّيت المرساة، وهي الثقل الذي يلقيه أصحاب السفن لتثبيت السفينة على وجه الماء. باعتبار أنّ الأرض تسبح في الفضاء، وهي، في ما أثبته العلم، تدور حول نفسها، وحول الشمس. ولو كانت ملساء لتسارعت حركتها واختلَّت، واختلّ بذلك منافع ثلاث:

الأولى: الليل والنهار، اللذان يحصلان نتيجة الدوران المنضبط للأرض حول نفسها.

الثانية: الفصول الأربعة، التي تحصل تبعاً للدوران المنضبط للأرض حول الشمس.

الثالثة: الاستقرار على الأرض، فلو أنها تسارعت لتطاير ما عليها، لأنّ قانون الجاذبية إنما يكون مؤثّراً إذا كانت حركة الأرض ودورانها بمستواه الفعلي دون ما إذا كان أسرع منه.

لكلّ هذا فالرواسي (الجبال) نعمة من نعم الله تعالى وآية من آياته، لأنها تمنع (الميَدان) الذي هو الاضطراب، ففلسفة وجودها كما تنص الآية ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي منع الأرض من الاضطراب، فالحمد لله الذي (وتَّد بالصخور ميَدانَ أرضه)[1].

قد تقول: ألا يحتمل أنّ تكون الرواسي تعبيراً عن شيء آخر غير الجبال، كالجاذبية أو شيء آخر؟

الجواب: ذاك محتمَلٌ من الناحية الظاهرية واللفظية بل والمعنوية أيضاً.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

لكنّ قد يقال إنّ الآيات القرآنية، خصوصاً في مقام الاستدلال والاحتجاج، لا ينبغي حملها على شيء لا يفهمه المخاطَبون، وإلا كان ذريعةً لهم لعدم الإيمان بحجة أنهم لا يستوعبون ما يقال.

لطيفة فنية وعلمية: إلقاء الرواسي

إذا كانت الرواسي هي الجبال، وهي بالتالي جزءٌ من الأرض، فبماذا نفسّر قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ التي تعني ـ لغةً ـ الرمي بالشيء من أعلى أو من طرف باتجاه طرف؟

الجواب: يقرّر علماء القرآن قاعدة مفادها أنه لا ينبغي أنّ يُصار إلى صرف اللفظ عن ظاهره ما لم تضطرنا إلى ذلك قاعدة عقلية أو ضرورة نقلية. وفي ما نحن فيه فإنّ العقل والنقل لا يمنعان من القول إنّ الرواسي أُلقيت. لذلك نأخذ بظاهر اللفظ.

بل إنّ معطيات علم طبقات الأرض الحديث (الجيولوجيا) تفيد ذلك، ويكتب بعض الباحثين قائلاً، معلّقاً على قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾.

منذ أكثر من ثلاثة آلاف مليون سنة كان سطح الأرض يلتهب بحركة شديدة لأجزائه، فتنتج البراكين والهزّات الأرضية وما تطلقه الأرض من باطنها من حُمم منصهرة وغير ذلك.

وخلال ملايين السنين بردت هذه القشرة الخارجية لسطح الأرض وشكلت ألواحاً تغطي الكرة الأرضية وتتحرّك بشكل مستمرّ بحركة بطيئة جداً، هذه الألواح تسمّى القشرة الأرضية، وعند اصطدامها مع بعضها فإنها تشكّل ضغطاً رهيباً يتجه للخارج بشكل عمودي على سطح الأرض، ويؤدّي هذا الضغط إلى إلقاء أطراف هذه الألواح للأعلى وبروزها، وبمرور الملايين

من السنوات تشكّلت الجبال التي نراها اليوم[1].

الآية الثانية: بثّ الدوابّ

ثنّى النصّ بآية أخرى يلمس الناس جميعاً فوائدها، وهي صنوف الدواب، الصغير والكبير منها. ومنافع هذه الدواب المبثوثة في الأرض لا تخفى على عاقل، وكلّما تقدّمت العلوم زادت بصيرتنا بسعة المنافع لهذه الدواب على حياة الإنسان والحيوان والنبات. بحيث إنّ حياة الإنسان نفسه لا تستقيم بغير وجود هذه الدوابّ التي تزود حياته بطريقة مباشرة وغير مباشرة بأسباب الدوام والاستمرار.

وبثّ الدواب فيه إشارة إلى كثرتها من جهة، وإلى توزّعها على المعمورة، فما يوجد في منطقة قد لا يتوفّر في منطقة أخرى. وبالطبع، فإنّ هذا التوزيع ليس عبثياً، وإنما هو وفق خطة محكمة تتماشى مع فلسفة الخلقة في أصلها، وتنسجم تماماً مع حكمة خالقها وربها فسبحان الله.

لطيفة فنية:

إذا فُسّر ﴿مِنَ﴾ بأنها بيانية فهو يشير إلى أنّ الدواب كلّها لا توجد في غير الأرض. وأمّا إذا فُسّرت بأنها للتبعيض، فهذا يعني أنّ ما يوجد على الأرض بعض الدواب وليس كلها. ويدلّ هذا على وجود حياة شبيهة بحياتنا في الكواكب الآخر. وكلٌّ محتملٌ.

الفقرة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ

---

(١) مجلة (عالم السعودية)، عدد يوليو ٢٠٠٧. كما في موقع (www.pr.sv.net) على الشبكة العنكبوتية.

زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

في هذه الفقرة مفردات أربع، تبيِّن كلّ واحدة منها آيةً من آيات الله، ولنستعرضها ضمن ما يلي:

المفردة الأولى: الماء

للماء في حياة الإنسان والحيوان والنبات، بل وكلّ شيء، دور حيوي، حتى أنّ القرآن الكريم ينصّ على أنّ حياة كلّ شيء تتوقف على الماء، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقد جيء بكلمة ﴿الْمَاءِ﴾ نكرة للدلالة على الأهمية.

والعلم الحديث، أيضاً، يؤكّد هذه الحقيقة، حتى إنهم يبحثون عن أثر الحياة في الكواكب الأخرى، كالمريخ، مثلاً، إذا وجدوا أثراً للماء. وهذا أمر مشهودٌ لا حاجة إلى الإسهاب فيه، لئلا نخرج عن حدود التفسير.

المفردة الثانية: الإنزال من السماء

تضيف هذه الفقرة من الآية التأكيد على أنّ الماء منزَل من السماء، أي من الأعلى، لأنّ السماء في اللغة هي ما ارتفع، والسحاب الذي هو الغيوم التي تحلّق فوق رؤوسنا هي المقصودة من تعبير ﴿السَّمَاءِ﴾.

المفردة الثالثة: نعمة النبات

أُشير إلى نعمة النبات في الآية بقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾. ولسنا أيضاً بحاجة إلى الحديث عن نعمة النبات وما فيها، فذاك

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

موكول لعلم النبات الذي تكفّل ببيان فوائده وأهميته في الحياة الإنسانية والنباتية. وكذلك كافّة العلوم التي ترتبط بالنبات بشكل أو بآخر، من قبيل علم الصيدلة وعلم الطبّ.

ويظهر من الآية، لمكان فاء التفريع في قوله ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، أنّ النبات يتوقّف على الماء.

المفردة الرابعة: مبدأ الزوجيّة

في هذه المفردة من الآية إلماحٌ إلى مبدأ الزوجية الحاكم على عالم النبات. أو على كافّة الموجودات الحية، إنّ حملنا الإنبات على الإيجاد والخلق.

المفردة الخامسة: الجمال والكمال

وصف الله سبحانه ما أنبته من نبات بأنه كريم، ولعلّه أشار بذلك:

أ ـ إلى جمال النبات، خصوصاً إذا لاحظنا تنوعه في لونه وطعمه ومواسم زراعته ومناطقها.

ب ـ إلى كمال منفعته، إذ إنّ لكلّ نباتٍ منافع خاصّة كما أنّ فيها منافع مشتركة. وذلك من كرامته ونفاسته.

(الآية ١١)

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

هذه الآية بمثابة الاستنتاج لما سيق من أدلّة وبيّنات، واستهجان لحالة الانحراف الفكري والنفسي وبالتالي السلوكي، الذي يمارسه الظالمون قولاً وفعلاً، والمتعدُّون على حقائق الكون بالتنكّر لبيّناته وآياته. وقد بالغوا في إضلالهم وضياعهم لأنّ ما ذكر من أدلّة ما كان يليق بعاقل أنّ يتنكّر لها أو يغفل عنها لأنها شديدة الوضوح في وجودها أولاً وفي دلالتها على الله ثانياً، أمّا غيرها ﴿فَأَرُونِي﴾.

وهنا وقفات:

الوقفة الأولى: عبودية الإنسان على كلّ حال

هذه الآية تؤكّد على أنّ أولئك الذين ينحرفون عن الله تعالى الخالق، وينكرون مظاهر ألوهيته، سيقعون، من حيث يريدون أو لا يريدون، في التسليم بمظاهر الألوهية لغيره تعالى، مع أنّ هذا الغير لم يتوفّر على سبب واحد من أسباب الألوهية والربوبية.

الوقفة الثانية: لا خالق إلا الله تعالى

في تعبير الآية ما يؤكّد حصر الخالقية في الله وحده ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾،

واسم الإشارة أُريد به السماوات والأرض وما فيهما. وهذا يفيد أنّ عنوان الخالقية مختص بالله تعالى لا يشاركه فيها غيره. ويمكن أنّ يُدعَم هذا الفهم بإيراد لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ مضافاً إليه ﴿خَلْقُ﴾، وهو ما يشعر بعلّية الخلق وأنه الألوهية، فمن لم يكن إلهاً لا يتأتى منه الخلق.

الوقفة الثالثة: الخلق يفترض الاستقلال

في الآية تعبيرٌ دقيقٌ ورقيقٌ يلفت النظرَ إلى حقيقة يجب أنّ لا تخفى، وهي أنّ الخالق يُفترض به الاستقلال في القدرة، أمّا إذا كان قد استعان في فعله (خلقه)، فهو ليس إلهاً، لأنه حتى لو افترضنا أنّ فعل (الخلق) قد تحقّق منه فهو إنما قدر على ذلك بمعونة الغير، والخالق معينٌ وليس مُعاناً.

والتعبير في الآية هو ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، وكأنها تريد القول إنّ أولئك الخالقين المزعومين يجب أنّ يكونوا خالقين من دون الاعتماد على ما أقدرهم الله عليه، وأنى لهم ذلك.

الوقفة الرابعة: ضرورة الاستدلال

توحي لنا الآية بأنّ على الإنسان أنّ يختار مواقفه ورؤاه على أساس الاستدلال فـ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. وهو ينسجم تماماً مع الرؤية الإسلامية الأصيلة والتي بيّنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

الوقفة الخامسة: الوضوح في الاستدلال

تُنبّهنا الآية إلى أنّ على المستدِلّ أنّ يعتمد في استدلالاته على الأدلّة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

البينة والواضحة، نستفيد ذلك من مفردتين:

المفردة الأولى: قوله تعالى ﴿ هَٰذَا ﴾ الذي هو اسم إشارة لما هو محسوس أو ما بحكمه.

المفردة الثانية: قوله تعالى ﴿فَأَرُونِي﴾. ولا يخفى أنّ الشيء المرئي يكون في منتهى الوضوح، وهو أفضل من أنّ يكون الشيء مسموعاً مثلاً.

وقد يقال: إنّ الآية ترشد إلى أنّ الأفضل بيان الحقّ أولاً ثمّ الانتقال إلى مناقشة رأي الخصم، حيث إنها قالت أولاً ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ ثمّ ثنّت بقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي ... ﴾[1].

الوقفة السادسة: الظلم أنواع

الظلم هو: التعدّي على حقوق الآخرين أو الذات. ولا يقتصر ذلك على الحقوق المادية، بل إنه يشمل المعنوية أيضاً، والمتنكرون لألوهية الله وربوبيته يمارسون أبشع أنواع الظلم الشامل لأطراف عدّة. بل إنّ حجم الظلم الذي وقعوا فيه يجعلهم كأنهم الظالمون لا غير ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ولا شكّ أنّ الظلمَ في السلوك ينشأ من الظلم في الفكر، والقولُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ظلمٌ مضاعفٌ وانحرافٌ مؤكّدٌ، لذلك فإنّ هؤلاء ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾. والضلال هو الضياع والتيه، وهو ما ابتُلي به الكفّار، وهم الذين لا يخفى على عاقل تيههم ولا ضياعهم فهو ﴿مُّبِينٍ﴾ وشديد الوضوح.

---

(١) تفسير نور، للشيخ محسن قراءتي ج ٩ ص ٢٣٧.

قَوَاعِدُ الْحِكْمَة

تمهيد:

بعد تجوال وتطواف في المحور الأول، الذي يمكن عدُّه محوراً تمهيداً عرَّفتنا السورة المباركة بـ:

١ ـ أهمية القرآن الكريم وعظمته في نفسه، وذلك في الآيات (١، ٢، ٣): ﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝﴾.

٢ ـ طلاب الحقيقة الذين توفروا على أسبابها وعُنوا برفع موانعها، وجنوا ثمراتها بمجاهدات مريرة مع أعداء الداخل والخارج. وذلك في الآيتين (٤، ٥): ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾، والآيتين (٨، ٩): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾.

٣ ـ أهمية التبصّر في البينات التي خلقها الله آيات لعباده. وذلك في الآيات (١٠، ١١): ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

٤ ـ فريق الخسران الذين شغله عبثه ولهوه عن الجِدّ والاجتهاد في عالم

الفضيلة فضلَّ وأضلّ، وأحاطت به رذيلة الفكر والسلوك. وهو أخيراً على موعد مع العاقبة المريرة. وذلك في الآيتين (٦،٧): ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، والآية (١١): ﴿بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

بعد كلّ هذا العطاء التمهيدي المعجز، تنتقل السورة بقرائها إلى تجربة إنسانية رائعة مثَّلت، في جوهرها ومضمونها، منبع فضيلة لا يسوغ التفريط المقصود أو غير المقصود بقطرة واحدة منها، وإنما يجب النهل منها، كلٌّ حسب اهتمامه وهمّته. وصدق الشاعر حيث قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبَت في مرادها الأجسامُ

وقد انتظمت هذه التجربة، المزكّاة من قبل الله، بل الموهوبة منه تعالى، في مجموعة قواعد شكَّلت العنوان العريض للحكمة الإلهية. وهذه الحكمة وعظ بها لقمان الحكيم ببعض جوانبها العامّة ابنه وهو يعظه.

فلنتعرّف على هذه الحكمة والله نسأل أنّ نكون وإياكم ممن يؤتاها.

مدخل: تعريف بلقمان وحكمته

اللالفت في السورة أنها لم تقف عند شخصية لقمان أزيد من ذكر اسمه، مع أنها سُمّيت باسمه، فهي لم تُعرِّف بنسبه ولا بحسبه، ولا بتاريخه ولا بأي شيء يرجع إلى الجانب الشخصي. كما أنّ اللافت أنها المرة اليتيمة التي ذكر فيها لقمان بالاسم في القرآن الكريم بأجمعه. فما هو السر؟ وهل بين أيدينا من المصادر الموثوقة ما يعرّفنا بهذه الشخصية؟ وهل من المهمّ جداً أنّ

نتعرّف عليها؟

الجواب: لعلّ الآية أجملت وأوجزت ذكر هذا الحكيم على مستوى الشخصية، لتوجه أنظارنا إلى أنّ المهمّ ليس أنّ تعرف: من هو فلان؟ ومن أي منطقة؟ ومن أي قبيلة . . .؟ بل الأهمية كلّ الأهمية في جوهر هذه الشخصية وكما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١]. وما هو منطقها؟ وما هي فلسفتها في الحياة؟ وما هي إنجازاتها وعطاءاتها؟

ولهذا اختلف العلماءُ في (لقمان): هل هو نبي؟ أم مجرّد حكيم؟

كما اختلفوا في الحقبة الزمنية التي عاش فيها.

واختلفوا في منطقته التي هو منها.

كما اختلفوا في مدّة عمره، حتى قيل إنه بلغ ألف عاماً.

ولم يضر لقمان وحكمته كلّ هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد شخصيته ومنطقته وأنه حرّ أم عبد، بل ولا كونه نبياً أو مجرد حكيم؛ لأنها تفاصيل تنفع إذا كانت صائبة، لكنها ليست ضرورية[٢].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) كنموذج نتحف القارئ الكريم بنموذج من ذلك:

قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره سورة لقمان من كتابه (البحر المحيط) ج ٧ ص ١٨١: اختلف في لقمان:

١ ـ أكان حراً أم عبداً؟

فإذا قلنا: كان حراً، فقيل: هو ابن باعورا . قال وهب: ابن أخت أيوب عليه السلام. وقال مقاتل: ابن خالته. وقيل: كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود، قطع الفتوى، فقيل له: لِمَ؟ فقال: ألا أكتفي إذا كُفِيتُ؟ وكان قاضياً في بني إسرائيل.

وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل. وزمانه ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام. والأكثرون على أنه=

ولتميم الفائدة نكتفي بما ذكره العلامة الطباطبائي بهذا الخصوص حيث خصّص لذلك بحثاً موجزاً هذا نَصُّه:

١ ـ شخصّية لقمان ..

لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان، ولم يُذكر من قصصه إلا ما في قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾. وقد وردت في قصته وحِكَمِهِ رواياتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ، ونحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار.

أ ـ ففي الكافي عن بعض أصحابنا، رفعه إلى هشام بن الحكم، قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام:

يا هشام! إنّ الله قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، قال: «**الفهم والعقل**».

ب ـ وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر، قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً، ولكنّ كان**

= لم يكن نبياً. وقال عكرمة والشعبي: كان نبياً.

وإذا قلنا: كان عبداً، اختلف في جنسه، فقال ابن عباس، وابن المسيب، ومجاهد: كان نوبياً مشقق الرجلين ذا مشافر. وقال الفراء وغيره: كان حبشياً مجدوع الأنف ذا مشفر.

٢ ـ واختلف في ما كان يعانيه من الأشغال

فقال خالد بن الربيع: (كان نجاراً. وفي معاني الزجاج: كان نجاداً، بالدال. وقال ابن المسيب: كان خياطاً. وقال ابن عباس: كان راعياً. وقيل: كان يحتطب لمولاه كلّ يوم حزمة) انتهى.

أقول: ليس على قول من هذه الأقوال دليلٌ معتبرٌ من آية قرآنية أو قولِ معصوم، أو وثيقةٍ تاريخيةٍ يعتد بها. ولذلك فهي اجتهادات شخصية بحتة، إنّ صحت نسبتها إلى من نسبت إليه. وقد أصاب الأندلسي بتعقيبه عليها إذ قال:

(وهذا الاضطراب في كونه حراً أو عبداً، وفي جنسه، وفي ما كان يعانيه، يوجب أنّ لا يكتب شيء من ذلك، ولا ينقل. لكنّ المفسرون مولعون بنقل المضطربات حشواً وتكثيراً. والصواب تركه) انتهى.

عبداً كثيرَ التفكّر، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبّه، ومنَّ عليه بالحكمة. كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداءٌ: يا لقمان! هل لك أنّ يجعلك اللهُ خليفةً في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوتَ إنّ خيَّرني ربي قبلتُ العافيةَ ولم أقبل البلاء، وإن هو عزم عليَّ فسمعاً وطاعةً، فإني أعلم أنه إنّ فعل بي ذلك أعانني وعصمني».

فقالت الملائكة، بصوت لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟!

قال: لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها، يغشاه الظلم مِن كلّ مكان، إنّ وفى فبالحريِّ أنّ ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومَن يكن في الدنيا ذليلاً وفى الآخرة شريفاً خيرٌ من أنّ يكون في الدنيا شريفاً وفى الآخرة ذليلاً، ومَن تخيَّر الدنيا على الآخرة تفتْهُ الدنيا ولا يصيب الآخرة.

فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه يتكلم بها، ثمّ كان يؤازر داود بحكمته. فقال له داود: طوبى لك يا لقمان! أُعطيتَ الحكمة، وصُرفت عنك البلوى.

جـ ـ وفى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ أتدرون ما كان لقمان؟! قالوا: الله ورسوله أعلم!. قال: «**كان حبشياً**».

٢ ـ نبذة من حكمة لقمان ..

أ ـ وفي تفسير القمي بإسناده عن حمّاد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عزّ وجلّ، فقال:

«أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم

ولا جمال. ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورِّعاً في الله، ساكتاً، مستكيناً، عميق النظر، طويلَ الفكر، حديد النظر، مستغن[1] بالعبر».

لم ينم نهاراً قطّ، ولم يره أحدٌ من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال؛ لشدّة تستُّره، وعموق نظره، وتحفّظه في أمره.

ولم يضحك من شيء قطُّ مخافة الإثم، ولم يغضب قطّ، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيء قط.

وقد نكح من النساء، وولد له من الأولاد الكثير، وقدم أكثرهم أفراطاً فما بكى على موتِ أحدٍ منهم.

ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحاباّ. ولم يسمع قولاً قطّ من أحد استحسنه إلا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه. وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء. وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لغرّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك.

ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان. يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلا في ما يعنيه.

فبذلك أوتي الحكمة ومُنح العصمة.

---

(١) كذا في المصدر، والقواعد تقتضي (مستغنياً). وللرفع وجه على الاستئناف بدءًا من قوله (عميق النظر).

وإنّ الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة، فنادوا لقمان، حيث يسمع ولا يراهم، فقالوا:

يا لقمان! هل لك أنّ يجعلك الله خليفةً في الأرض، تحكم بين الناس؟

فقال لقمان: إنّ أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنه إنّ فعل ذلك أعانني عليه، وعلَّمني، وعصمني. وإن هو خيَّرني قبلتُ العافية.

فقالت الملائكة: يا لقمان! لِمَ؟

قال: لأنّ الحكم بين الناس بأشدّ المنازل وأكثرها فتناً وبلاءً، يُخذل، ولا يُعان، ويغشاه الظلم من كلّ مكان، وصاحبه فيه بين أمرين: إنّ أصاب فيه الحقّ فبالحريّ أنّ يسلَم، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أنّ يكون حَكَماً سَرِياً شريفاً. ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما، تزول هذه ولا تُدرك تلك.

قال: فتعجّب الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمان منطقه. فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة، فغشاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم، وغطّاه بالحكمة غطاءً. فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويبثهم فيها.

قال: فلمّا أوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها، أمر الله عزّ وجلّ الملائكة، فنادت داود بالخلافة فقبلها، ولم يَشترط فيها بشرط لقمان، فأعطاه الله عزّ وجلّ الخلافة في الأرض، وابتُلي بها غير مرّة كلّما كان يهوي في الخطأ يقيله الله ويغفر له.

وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام، ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه.

وكان داود يقول له: طوبى لك يا لقمان! أوتيت الحكمة، وصُرفت عنك البلية، وأُعطي داود الخلافة، وابتُلي بالحكم والفتنة.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]. قال: فوعظ لقمان ابنه باثار[2] حتى تفطر وانشق[3].

وكان في ما وعظه به، يا حماد، أنّ قال:

يا بني! إنك منذ سقطتَ إلى الدنيا استدبرتَها واستقبلتَ الآخرة، فدارٌ أنت إليها تسير أقربُ إليك من دار أنت عنها متباعدٌ.

يا بني! جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك، وخُذ من الدنيا بلاغاً، ولا ترفضها فتكون عيالاً على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضرّ بآخرتك، وصُمْ صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة؛ فإنّ الصلاة أحب إلى الله من الصيام.

يا بني! إنّ الدنيا بحرٌ عميقٌ قد هلك فيها عالَمٌ كثيرٌ، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكل، واجعل زادَك فيها تقوى الله، فإنّ نجوت فبرحمة الله، وإن هلكتَ فبذنوبك.

يا بني! إنّ تأدّبت صغيراً انتفعتَ به كبيراً، ومن عني بالأدب اهتم به، ومن اهتم به تكلّف علمه، ومن تكلف علمه اشتدّ له طلبُهُ، ومن اشتدّ له طلبُهُ أدرك منفعتَهُ، فاتخذه عادةً، فإنك تُخلَف في سلفك ويَنتفع به مَن خلفَك،

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) باثار اسم ابنه، والتفطر والانشقاق كناية عن كمال التأثر.

(٣) أقول: الظاهر أنّ المراد أنه أثَّر فيه، كما فسره بعض شراح الحديث (المؤلف).

ويرتجيك فيه راغبٌ، ويخشى صولتَك راهبٌ.

وإياك والكسل عنه بالطلب لغيره، فإنّ غُلبتَ على الدنيا فلا تُغلَبَنَّ على الآخرة، وإذا فاتك طلب العلم في مظانِّه فقد غُلبتَ على الآخرة.

واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك نصيباً في طلب العلم، فإنك لن تجد له تضييعاً أشدّ من تركه، ولا تُمارِيَنَّ فيه لجوجاً، ولا تجادِلَن فقيهاً، ولا تعادِيَن سلطاناً، ولا تماشِيَنَّ ظلوماً، ولا تصادقنَّه، ولا تواخينَّ فاسقاً، ولا تصاحبن متهماً. واخزن علمك كما تخزن وَرِقَك[1].

يا بني: خَف الله عزّ وجلّ خوفاً لو أَتيتَ القيامة ببر الثقلين خفتَ أنّ يعذبك، وارجُ الله رجاءً لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوتَ أنّ يغفر الله لك.

فقال له ابنه: يا أبتِ كيف أطيق هذا وإنما لي قلب واحد؟

فقال له لقمان: يا بني! لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران، نور للخوف ونور للرجاء، لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة، فمن يؤمن بالله يصدِّق ما قال الله عزّ وجل، ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله؛ فإنّ هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض، فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً، ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً، فقد آمن بالله صادقاً، ومن أطاع اللهَ خافه، ومن خافه فقد أحبه، ومن أحبه فقد اتبع أمره، ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه، نعوذ بالله من سخط الله.

(١) أقول: هو الفضة.

يا بني! لا تركنْ إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها. ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين.

ب ـ وفي قرب الإسناد: هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليه السلام. قيل للقمان:

ما الذي أجمعتَ عليه من حكمتك؟

قال: لا أتكلّف ما قد كفيتُهُ، ولا أضيِّع ما وليتُهُ.

جـ ـ وفى البحار عن قصص الأنبياء، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

كان في ما وعظ به لقمان ابنه أنّ قال:

يا بني! إنّ تك في شكّ من الموت، فارفع عن نفسك النوم، ولن تستطيع ذلك، وإن كنت في شكّ من البعث، فارفع عن نفسك الانتباه، ولن تستطيع ذلك، فإنك إذا فكَّرت في هذا علمت أنّ نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

وقال: قال لقمان لابنه:

يا بني! لا تقترب فيكون أبعد لك، ولا تبعد فتُهان. كلّ دابة تحبّ مثلها، وابن آدم لا يحب مثله[1]. لا تنشر[2] بزك إلا عند باغيه. وكما ليس بين الكبش والذئب خلّة كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلة. من يقترب من

(١) أي أنّ ابن آدم لا يحب أنّ يكافيه غيره في مزية من المزايا.

(٢) أي لا تظهر متاعك إلا عند طالبه.

الزفت تعلَّق به بعضه، كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرفه. من يحب المراء يُشتم. ومن يدخل مدخل السوء يتهم. ومن يقارن قرين السوء لا يسلم. ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال:

يا بني! صاحب مائة ولا تُعاد واحداً.

يا بني! إنما هو خَلاقُك وخُلقُك، فخلاقُك دينُك، وخُلقك بينك وبين الناس، فلا تَبَغَّضَنَّ إليهم. وتعلّم محاسن الأخلاق.

يا بني! كن عبداً للأخيار، ولا تكن ولداً للأشرار.

يا بني! أدِّ الأمانةَ تسلمْ دنياك وآخرتُك. وكن أميناً؛ فإنّ الله لا يحب الخائنين.

يا بني! لا تُرِ الناس أنك تخشى الله وقلبُك فاجرٌ.

د ـ وفي الكافي، بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

كان في ما وعظ به لقمان لابنه:

يا بني! إنّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا، ولم يبق من جمعوا له، وإنما أنت عبدٌ مستأجَر، قد أُمِرتَ بعملٍ ووُعِدتَ عليه أجراً، فأوفِ عملَك، واستوف أجرك. ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر، فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها عند سمنها، ولكنّ اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها، فتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر، أَخربها ولا تعمرها؛ فإنك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنك ستسأل غداً، إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل، عن أربع :

شبابك في ما أبليته.

وعمرك في ما أفنيته.

ومالك مما اكتسبته.

وفي ما أنفقته.

فتأهب لذلك، وأعدَّ له جواباً.

ولا تأس على ما فاتك من الدنيا؛ فإنّ قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك، وجِدَّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش في فراقك قبل أنّ يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد.

هـ ـ وفى البحار عن القصص، بإسناده عن حماد عن الصادق عليه السلام، قال: قال لقمان:

يا بني! إياك والضجر، وسوء الخلق، وقلة الصبر، فلا يستقيم على هذه الخصال صاحبٌ، وألزم نفسك التؤدة[1] في أمورك، وصبِّر على مؤونات الإخوان نفسك، وحسِّن مع جميع الناس خُلقَك.

يا بني! إنّ عدمك ما تصل به قرابتك، وتتفضل به على إخوانك، فلا يعدمنَّك حسن الخلق وبسط البشر، فإنّ من أحسن خلقه أحبه الأخيار وجانبه الفجار. واقنع بقسم الله ليصفو عيشك. فإنّ أردت أنّ تجمع عزّ الدنيا، فاقطع طمعك مما في أيدي الناس، فإنما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع

(١) التؤدة ـ بضم التاء كهمزة ـ السكون والرزانة.

طمعهم[١].

وما جاء في هذه الحكم الرائعة والمتنوّعة، وليست هي كلّ ما روي من حكمة لقمان، يكشف عن محاور هذه الحكمة، وأنها تدور حول أمرين أساسيّين:

الأول: حكمة العلم (فهم الواقع الموضوعي)

الثاني: حكمة العمل (حسن التعامل مع مفردات الوجود)، وهذه المفردات هي:

الخالق

المخلوق (الآخر)

المخلوق (الذات).

وهو ما سنلمسه من تجوالنا بين ما سجّله الرحمن في هذه السورة المباركة.

(١) الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة لقمان.

(الآية ١٢)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾

في هذا المقطع من الآية الكريمة وقفات خمس:

الوقفة الأولى: وهبية الحكمة

في التعبير القرآني كشف لحقيقة يجب وضعها نصب العين، وهي أنّ ما ستقرأه أو تسمعه ـ يا قارئ القرآن وسامعه ـ إنما هو منّةٌ من الله تعالى ألقاها إلى بعض عباده، فليس لك أنّ تقلل من شأنه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، فهو إيتاء من الله[1]. وبعبارة أخرى: الحكمة من الوهبيّات وليست من الكسبيّات.

(١) قال الدكتور فاضل السامرائي، في بحث له عنوانه (لمسات فنية في سورة لقمان):
قال: ﴿ءَاتَيْنَا﴾، بإسناد الفعل إلى نفسه، ولم يقل: لقد أوتي لقمان الحكمة، بل نسب الإتيان لنفسه. والله تعالى في القرآن الكريم يسند الأمور إلى ذاته العلية في الأمور المهمّة وأمور الخير، ولا ينسب الشر والسوء إلى نفسه البتة.
قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فعندما ذكر الشر بناه للمجهول، وعندما ذكر الخير ذكر الله تعالى نفسه.وهذا مطرد في القرآن الكريم، ونجده في نحو: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، و﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فيقول الأولى في مقام الخير، وإن قال الثانية فهو في مقام السوء والذم.
وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، فعندما ذكر النعمة قال: ﴿أَنْعَمْنَا﴾ بإسناد النعمة إلى نفسه تعالى. وعندما ذكر الشر قال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، ولم يقل: إذا مسسناه بالشر.ولم ترد في القرآن مطلقاً: (زينّا لهم سوء أعمالهم)، وقد نجد: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، بدون السوء، لأنّ الله تعالى لا ينسب السوء إلى نفسه، ولما كانت الحكمة خيراً محضاً =

أجل، مقدّماتها كسبية.

والإيتاء، كما في مفردات الراغب: العطاء السهل. أي إننا كما آتينا لقمان من السهل واليسير علينا أنّ نؤتي الحكمة غيره. واستعمال ضمير المتكلم بنحو الجمع يفيد عظمة المؤتَى والموهوب.

ويؤكّد هذه الأهمية إيراد حرف (قد ـ مسبوقاً باللام الدالَّين على التحقيق المؤكد.

الوقفة الثانية: ربانية الحكمة

في التعبير القرآني إشارة إلى أنك ـ يا طالب الحكمة ـ لن تجدها في غير ما آتيناه لقمان، فهي:

أولاً: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾، معرَّفة بالألف واللام الجنسية بمعنى أنّ لا حكمة سواها، أو العهدية التي يريدها الإنسان الباحث عن سعادته.

وثانياً: هي التي آتاها الله لقمان وأمثاله من المخلَصين.

الوقفة الثالثة: قيمة الإنسان

لعلّ في تقديم ﴿لُقْمَٰنَ﴾ على ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ إبانةً عن عناية الله تعالى بالإنسان، وأنه إذا عمل على تحقيق إنسانيته فقد فتح على نفسه أبواب الخير كلّها، لأنّ منزلة كلّ شيء، ما عدا الله تعالى، دون منزلته.

= نسبها إلى نفسه.

إن قيل: فقد قال في موضع: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]؟!

فالرد: أنه عزّ وجلّ قد قال قبلها: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فنسب إتيان الحكمة إلى نفسه، ثمّ أعادها عامة بالفعل المبني للمجهول) انتهى.

وفي ذلك دليل على أنّ الإنسان، إذا توفّر على شروط الصلاح، قد يفاض عليه ما يتبوأ به مقاماً سامياً لا يُنال بغير العطاء الإلهي.

الوقفة الرابعة: ما هي الحكمة؟

الجواب: يمكن لنا أنّ نقرأ (الحكمة) في مستويين:

أولهما: المعنى اللغوي، ونتعرّف فيه على أصل هذه المادة ومعناه عند أهل اللغة العربية.

ثانيهما: المعنى الاصطلاحي. ونتعرّف فيه على مصطلح القرآن والسنة وما يراد بالحكمة فيهما.

المستوى الأول: المعنى اللغوي

(الحكمة) من المصطلحات الدارجة على الألسن، في مختلف حقول المعرفة العلمية والعملية. فما أكثر ما نسمع الناس وهم يصفون فلاناً من الناس بأنه (حكيم) ويعنون به اللبق في التصرّف، أو المتأمّل في عواقب الأمور، بحيث يختار مواقفه بعد الدراسة والتأمل والفحص، الأمر الذي لا يفعله أكثر الناس، ويتبين بعد فترة أنّ اختياره كان هو الأحسن والأصوب.

وهذا الاستعمال لـ(الحكمة والحكيم) ليس بعيداً عمّا وضعت له الكلمة في كلام العرب، فمادة (ح ك م) كما يُستفاد من كلمات أهل اللغة يراد بها في الأصل (المنع). ومن ذلك ما يسمى عند العرب بـ(حَكَمَة الدابة) وهو ما يحيط بحنكها ويمنعها من الخروج. أو هو خصوص الحديدة التي (في اللجام تكون على أنف الفرس تمنعه من مخالفة راكبه)[1].

---

(١) مجمع البحرين، مادة (حكم).

والحكمة ـ كما سيتضح لاحقاً ـ هي: مجموعة من المعارف يصدق بها صاحبها، وتتغلغل في وجدانه لتكوّن شخصيته فيمتنع بسببها عن التصرّفات الحمقاء. فهي ـ إذاً ـ مانعةٌ له منها.

قال ابن سيده: (الحكم أصله المنع ... والحكمة من ذلك؛ لأنها تمنع الجهل)[1].

وقال الطريحي: الحكمة العلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح ... والحكمة فهم المعاني. وسُمّيت حكمة لأنها مانعةٌ من الجهل. قيل ومنه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[2].

وحسناً فعل الراغب في المفردات، حيث قيّد تفسير الحكم بالمنع بما إذا كان (لإصلاح)[3]. لأنّ من الواضح أنّ الغرض في الحكمة ليس هو المنع لأي سبب، لأننا قد نقع بذلك في ما يكون نقيضاً للحكمة أعني السفه الناتج من الهوى، كما يمارسه الطغاة والمستبدّون، الصغار والكبار، حيث يمنعون الناس من أشياء من أجل تأكيد سلطتهم ليس غير. فهل يمكن وصف ذلك بـ(الحكمة)؟!

ونخلص من ذلك إلى أنّ الحكمة هي: الامتناع عن فعل القبيح، قولاً أو فعلاً.

وقد تسأل وتقول: هل يصحّ وصف الامتناع بأنه فعل وعمل؟

ولعلّ الجواب ععن ذلك هو: ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله علي عليه السلام

---

(١) مجمل اللغة، مادة (حكم).

(٢) مجمع البحرين، مادة (حكم).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (حكم).

عن أفضل الأعمال في هذا الشهر [أي رمضان]؟ فأجابه بقوله ﷺ: «**الورع عن محارم الله**»[١].

لكن يجب أنّ نضيف إلى أنّ الحكمة تعني أيضاً الإتقان كما يفيده قوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[٢]، أي أُتقنت. وإن كان هذا المعنى يرجع إلى الامتناع، وذلك بمنع المحكم والمتقن من أنّ يصل إليه الباطل.

المستوى الثاني: المعنى الديني

لم تستعرض سورة لقمان تعريفاً اصطلاحياً لـ(الحكمة)، وإنما اكتفت بالإشارة إلى معالمها وقواعدها الكفيلة بفهم حقيقة الحكمة. وبهذا يتحقق الغرض من التعريف، لأنّ القرآن ليس كتاباً قاموسياً التزم فيه تعريف الصلاة والصوم وسائر المطلوبات الشرعية، بالحدود والرسوم المنطقية. فليس شيءٌ من ذلك مهماً، خصوصاً وأننا قد نقع بسبب ذلك ـ كما حصل في موارد كثيرة ـ أنّ نتيه في عالم المصطلحات على حساب المقصود الحقيقي منها. والمهمّ إنما هو التحلّي بالفضيلة والتخلّي عن الرذيلة، على المستوى السلوكي، ومعرفة الحقّ من الباطل على المستوى النظري.

وعليه، نحمل التعريفات المتعدّدة التي جاءت في الروايات لـ(الحكمة)، وكذلك الأقوال المختلفة بين العلماء في تفسيرها. مع أننا نتعاطى مع ما يعد مقصداً من مقاصد الدين، ولا يعقل أنّ تختلف النصوص الدينية وعلماء الدين في تعريف ما هو من أعظم مقاصد الدين، وإلا كنّا أمام أديان متعدّدة!

(١) وسائل الشيعة، الحديث ١٣٤٩٤. ج ١٠ ص ٣١٤.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

ومن باب أنّ الأشياء قد تعرف بأضدادها، فإنّ ما يقابل الحكمةَ المنشودة هو رذيلة (السَّفَه)[١]، التي يُبتلى بها من لم يسعَ في تربية نفسه وتزكيتها، ولم يبذل جهداً في التفقُّه في ما يجب عليه التزامه وعمله. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٢]. وذلك بعد أنّ ساق دعاءه المخلِص لذريته بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣]. فقد شغِل باله عليه السلام بصلاح ذريته بعد أنّ ذاق طعم الصلاح وحلاوة الحكمة، بعد أنّ سألها الله قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٤].

وبعد أنّ عرف أنّ شيئاً من ذلك لا يُنال إلا من الله تعالى فـ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[٥].

والسفه هو: التفلت من قيود الحقّ وقيمه، واتباع الشهوات والغرائز.

فـ(الحكمة) ـ إذاً ـ تأتي في طليعة المقاصد الدينية الكبرى. ولعلّ ما سيمرّ علينا خلال هذه السورة المباركة سيكشف لنا مدى أهمية الحكمة في بُعديها النظري والعملي.

---

(١) قوبلت (الحكمة)، في حديث جنود العقل والجهل، بـ(الهوى). وهو لا ينافي ما ذكرناه، لأنّ الهوى يدفع بالإنسان إلى أنّ يسيء الاختيار لكونه سفيهاً، فالسفه والهوى وجهان لعملة واحدة، لأنهما بمنزلة السبب والنتيجة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ٥٣.

١ ـ إيجاز عن الحكمة في القرآن[1]:

مِن~ تتبُّع استعمالات (الحكمة) في القرآن الكريم نلحظ التالي:

أولاً: أنها ذات قيمة عالية.

ثانياً: أنها هبة من الله تعالى.

ثالثاً: أنها ليست متاحة لكلّ أحد.

رابعاً: أنّ من يتحلّى بها يلزمه فعلُ أشياء والكفُّ عن أشياء.

ولنستعرض الآيات التي ذكرت فيها الحكمة لنتبيّن صدق ما توصّلنا إليه:

١ ـ قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، في دعائه لذريته: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

فهو عليه السلام، كما قدّمنا، إنسان صالح وفرد حكيم، رقي مدارج الكمال، ونال ما نال من خليله وحبيبه، فأحبَّ لذريته أنّ يسيروا بسيرته، فسأل الله تعالى أنّ يبعث فيهم من يعلمهم الكتاب والحكمة. فالحكمة في نظره تقترن في أهميّتها بالكتاب.

---

(١) قال الشيخ الريشهري في كتاب (العلم والحكمة في القرآن والسنة) ص ٨١:
تكررت كلمة (الحكمة) في القرآن الكريم عشرين مرة. ووصف الله تعالى نفسه ومجدها في هذا الكتاب السماوي بـ(الحكيم) إحدى وتسعين مرة. وجاءت هذه الصفة تبياناً لحكمة الله سبحانه ٣٦ مرّة مع صفة (العليم)، و ٤٧ مرّة مع صفة (العزيز)، و ٤ مرات مع صفة (الخبير)، ومرة واحدة مع كلٍّ من (التواب)، و (الحميد)، و (العلي)، و (الواسع)) انتهى.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

٢ ـ وقال تعالى ممتناً على أمة الإسلام، بتذكيرهم بأنه سبحانه استجاب دعوة أبيهم فيهم، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۞ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(١).

وقد جُعلت الحكمة في الآية قرينة للكتاب في تكليف النبي بتعليم الناس إياها. وفي مورد آخر يذكرهم بما كانوا فيه من الضلال المبين وأنّ رسول الله ﷺ هو منةُ الله عليهم بأنّ أنار بصائرهم بالكتاب والتزكية والحكمة، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

ولنورد بعض الآيات التي تناولت (الحكمة) ونتعرّف على بعض ما يظهر منها:

أ ـ قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣). والآيةُ ظاهرةٌ في أنّ الحكمة إنما تكون من الله وبمشيئته، وأن أياً من الناس لا يستحقّها إلا بإرادته سبحانه. وهي صريحةٌ في أنّ الحكمةَ خيرٌ كثيرٌ لا ينبغي لأحد التقصير والتقاعس في طلبها، كما أنها تؤكّد أنّ غير العقلاء، وهم أولي الألباب ـ لن يحظوا بها ولن يهتم غير العقلاء بها.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

ب ـ قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. والآية ظاهرة أيضاً في أنّ الحكمة مما يفيض به الله تعالى على عباده تفضلاً وتلطفاً.

جـ ـ قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[2]. واقتران الحكمة بالكتاب والتوراة والإنجيل ينم عن أنها من عند الله تعالى مثل تلك الكتب فهي ـ إذاً ـ من الوهبيات وليست من الكسبيات كما قدمنا.

د ـ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[3]. وهذه الآية الشريفة ظاهرةٌ بوضوحٍ، بل إنها صريحةٌ صراحةً تامةً في أنّ الحكمة، المشار إلى مضمونها في الآيات السابقة، هي وحي من الله تعالى.

هـ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[4]. وهذه الآية أيضاً تؤكّد على أنّ الحكمة التي لدى لقمان إنما هي إيتاء من الله تعالى. وذاك يدلّ على أنها من الموهوبات الربانية أو أنها من الوحي. وبالتالي لا يمكن استفادة نبوّة لقمان من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٢.

مجرّد إيتاء الله له الحكمة.

و ـ وأمّا أنّ الحكمة قد يُخصّ بها فريق من الناس لمصالح يعلمها الله تعالى فيمكن استفادته من قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[1]. فالآية ظاهرة في أنّ الحكمة، ولو في بعض أشكالها، كما قد تشير إليه الألف واللام في (الحكمة)، إذا قيل إنها عهدية، أنّ هذه الحكمة هي صنو للنبوة، في أنها بيد الله تعالى يضعها حيث شاء.

٢ ـ إيجاز عن الحكمة في السنة المطهرة

أ ـ ورد في الخبر عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله لهشام بن الحكم، في حديث طويل:

يا هشام إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2]، يعني: عقل، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾[3]، قال: الفهم والعقل)[4].

ويشرح المولى المازندراني الحديث قائلاً:

الفهم: العلم، تقول: فهمتُ الشيءَ إذا علمتَهُ. والعقل: الجوهر المجرّد[5]

---

(١) سورة النساء، الآية:٥٤.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٤) أصول الكافي، كتاب العقل والجهل.

(٥) أقول: علّق الشعراني هنا بقوله:

العقل: الجوهر المجرد هو الذي يقول به الحكماء، والشارح قائل به، كما صرح مراراً. وأمّا ما يفهم من بعض عباراته؛ من عدم الدليل على وجود العقل الذي يقول به الحكماء، فالمراد به بعض ما يلتزم به=

الذي يدرك المعاني الكلية والحقائق المعنوية. من: عَقَلَ البعير عقلاً، إذا شدّ بـ(العقال). سُمّي [أي العقل] به لأنه يمنع صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي مثل العقال.

وإطلاق الحكمة عليهما، إنّ كانت عبارة عمّا يمنع من الجهل، كما صرح به في المغرب، أو ما يمنع من قبيح ويؤدّي إلى مكرمة، كما صرّح به ابن دريد، ظاهرٌ، لأنهما يمنعان صاحبهما عن الجهل والقبيح.

وإطلاقها على الفهم، إنّ كانت عبارة عن العلم مطلقاً، كما صرح به بعض أرباب اللغة، أو عن العلم بالدين، كما صرح به بعض العلماء، أو عن معرفة حقائق الأشياء وأحوالها والتخلق بالأخلاق الحسنة على قدر الطاقة البشرية، كما هو المعروف أيضاً، ظاهر.

وعلى العقل يعني العقل بالفعل؛ من قبيل إطلاق الحالّ على المحلّ، أو إطلاق الأثر على المبدأ والمؤثّر، أو على اعتبار اتحاد بين العقل والمعقول)[1].

ب ـ ومن لطائف الروايات ما رواه الصدوق في كتابيه معاني الأخبار والخصال، بسنده عن سفيان بن عيينة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول:

«**وجدت علم الناس كلّهم في أربع:**

أولها: أنّ تعرف ربك.

والثانية: أنّ تعرف ما صنع بك.

والثالثة: أنّ تعرف ما أراد منك.

= المشاوون؛ من كون عدد العقول عشرة، وأن كلّ عقل صدر عنه فلكٌ عقلٌ، وما يتوهمه الجاهل من تفويض الواجب فعله وقدرته إلى العقل، وغير ذلك).

(١) شرح أصول الكافي، ج ١، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

والرابعة: **أنّ تعرف ما يخرجك من دينك»**[١].

وكأن الإمام عليه السلام يريد أنّ يلخّص ماتدور عليه علوم الناس، وينشدونها بسببه، في هذه الأمور الأربعة. وهو معنى دقيق ومهم لا غنى للناس عنه. وهو يرجع إلى المعرفة والفهم والفقه في الدين. وذاك ما يجعل للعقل هيمنة على السلوك الإنساني، فيصبح حكيماً.

ومن ثَمَّ جاءت الروايات، بعد الآيات الشريفة، لتؤكد على وجوب التفقه في الدين، الذي لا سبيل للحكمة من دونه، كما في الخبر عن الإمامين الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام من قولهما: «**لو أُتيتُ بشابٍّ من شباب الشيعة لا يتفقه لأدَّبتُهُ**»[٢]. قال [الإمام الصادق عليه السلام]: وكان أبو جعفر [الباقر] عليه السلام يقول: «**تفقهوا وإلا فأنتم أعراب**»[٣].

جـ ـ وحيث كان طريق تلقي الحكمة هو النبي المرسل من عند الله بها، وخليفته الإمام المنصوب من الله تعالى لمواصلة طريق تعليمها، جاءت النصوص بتفسيرها بالطاعة ومعرفة الإمام.

١ ـ فقد روى أبو بصير، قال: سألته عن قول الله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. قال: هي طاعة الله ومعرفة الإمام)[٤]. وفي خبر آخر فُسّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ بأنه: (أوتي معرفة إمام زمانه)[٥].

---

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢١٢.

(٢) المحاسن للبرقي، باب الحث على طلب العلم.

(٣) م ن.

(٤) م ن، ج ١ ص ٢١٥.

(٥) تفسير البرهان.

٢ ـ وعن أبي بصير قال: سمعت **أبا جعفر** عليه السلام يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. قال: «**المعرفة**»[1].

٣ ـ وعنه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. قال: «**معرفة الإمام، واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار**»[2].

وأخيراً فقد ورد عن سليمان بن خالد ، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. فقال: «**إن الحكمةَ المعرفةُ والتفقهُ في الدين. فمن فقه منكم فهو حكيمٌ، وما أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس من فقيهٍ**»[3].

زبدة التعاريف:

قال العلامة المجلسي رحمه الله، في بيانٍ له حول معنى الحكمة، بعد إيراد عدد من الروايات في الباب:

قيل: الحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل.

وقيل: ما يمنع من الجهل.

وقيل: هي الإصابة في القول. وقيل: هي طاعة الله.

وقيل: هي الفقه في الدين.

وقال ابن دريد: كلّ ما يؤدّي إلى مكرمة، أو يمنع من قبيح.

---

(١) م ن.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر، الحديث ٢٠.

(٣) م ن.

وقيل: ما يتضمّن صلاح النشأتين.

والتفاسير متقاربة. والظاهر من الأخبار أنها: العلوم الحقة النافعة، مع العمل بمقتضاها. وقد يطلق على العلوم الفائضة من جنابه تعالى على العبد بعد العمل بما يعلم[١].

فوائد تحقيقيّة:

لعدد من العلماء كلامٌ متينٌ يرتبط بما نحن فيه من تعريف معنى الحكمة وأقسامها وأسبابها، نورده في فوائد:

الفائدة الأولى: فائدة البعثة

قال الملا صدرا الشيرازي:

فائدة البعثة فائدةٌ جسيمةٌ، ونتيجة الرسالة التي قد منَّ الله بها على المؤمنين في هذه الآية وغيرها منّة عظيمة، كقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾[٢]، هي أنه ﷺ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[٣]، ويبيّن لهم أحوال الآخرة ويحلّ لهم الطيبات ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم[٤]، لأجل جهالة اليهوديّة وبلاهة النصرانيّة، اللتين كانتا مركوزتين في النفوس بحسب إفراطها وتفريطها في الصفات والأعمال، وخروجها في التشبيه والتنزيه عن جادّة الاعتدال، الذي يكون لهذه الملة[٥] البيضاء والشريعة الغرّاء ـ على الصادع بها وآله أفضل

---

(١) م ن.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) انظر: سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٥) في نسخة: الأمة.

تسليمات الله تعالى ـ كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١]، وقوله في سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾[٢].

وكأنّ قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ عطفٌ تفسيريٌّ لقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾، و شرحٌ له و بيانٌ حاصل الأثر[٣] في تلاوة الآيات على سبيل الإجمال، فإنّ الغرض الأصلي من بعثة الرسول وتلاوة الآيات على العقول سياقتهم إلى رضوان ربّهم وهدايتهم إلى جواره الأطهر وملكوته الأنور. وهي إنّما تُناط بشيئين:

أحدهما: إصلاح الجزء العملي من الإنسان، بالتصفية والتهذيب.

وثانيهما: تكميل جزئه العلمي، بالتصوير والتقريب.

فالقرآن، المنزل على سرّ النبي ﷺ أولاً، وعلى قلوب أمّته ثانياً، يجب أنّ يكون مشتملاً على أمور ثلاثة:

الأوّل: في الحكمة العمليّة، المبيّنة للأفعال والأعمال، الشارحة للأخلاق والآداب، المفيدة للعبد قطع تعلّقه عن الأسباب وترك التفاته إلى الدنيا وما فيها، ورفع الغشاوات والحجب عن وجه قلبه بالكليّة. وهذه الأحكام[٤] العمليّة والمعالم الأدبيّة تثبت في القرآن على أبلغ وجه وآكده، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «**أدّبني ربّي فأحسن تأديبي**»[٥].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة يس، الآية: ٦.

(٣) في نسخة: الأمر.

(٤) في نسخة: الأعمال.

(٥) الجامع الصغير، ج ١ ص ١٤. ومجمع البيان ج ٩ ص ٣٣٣.

الثاني: في الحكمة العلمية والمعارف التي تبلُغها إليه عقول العلماء والحكماء بقوتهم الفكرية؛ بتعليم الأنبياء والأولياء عليهم السلام إيّاهم.

وهذان القسمان من العلوم والمعارف يقع فيهما الاشتراك لسائر الكتب السماويّة مع القرآن، لكنّ يكون ما في القرآن أوثقها برهانا وأجلّها شأناً، وأرفعها رتبةً، وأعلاها مأخذاً، وأقومها غايةً، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1]، وبقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[2]، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾[3].

الثالث: في الحكمة التي لا يبلغ طورها إلا الخلّص من أحبّاء الله وأوليائه الصالحين، وهي المشار إليها في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[4]. وهذه الحكمة من خواصّ المحبوبين لله، كما أنّ الحكمتين الأوليين من خواصّ المحبّين لله، وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[5].

وفي الحديث الإلهي: «**لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحببته**»[6] انتهى[7].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٦.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٦) التوحيد ص ٤٠، وقد رواه البخاري.
(٧) تفسير القرآن الكريم، ج ٧ ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

الفائدة الثانية: الحكمة وتقسيمها

قال الفخر الرازي:

المراد من الحكمة إمّا العلم، وإمّا فعل الصواب. ويروى عن مقاتل أنّه قال: تفسير الحكمة في القرآن يقع على أربعة أوجُه:

أوّلها: مواعظ القرآن. ففي [سورة] النساء: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]. ومثلها في آل عمران[2].

وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم، قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3]، [وقوله]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[4]، يعني الفهم والعلم، وفي الأنعام: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[5].

وثالثها: الحكمة بمعنى النبوّة، وفي [سورة ص]: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾[6] يعني النبوّة. وفي البقرة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[7].

ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار. وفي النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[8]، وفي هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[9].

---

(١) الآية: ١١٣.

(٢) الآية: ١٦٤.

(٣) سورة مريم، الآية: ١٢.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٥) الآية: ٨٩.

(٦) الآية: ٢٠.

(٧) الآية: ٢٥١.

(٨) الآية: ١٢٥.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

وجميع هذه الأوجُه عند التحقيق ترجع إلى العلم.

ثم تأمل ـ أيها المسكين ـ فإنه تعالى ما أعطى إلا القليل من العلم ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. وسمى الدنيا بأسرها قليلاً، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2]. وانظر كم مقدار هذا القليل حتى تعرف عظمة ذلك الكثير. والبرهان العقلي أيضاً يطابقه لأنّ الدنيا متناهية المقدار، متناهية المدة، والعلوم لا نهاية لمراتبها وعددها ومدة بقائها، والسعادة الحاصلة منها. وذلك ينبئك فضيلةَ العلم . . .

وأمّا الحكمة بمعنى فعل الصواب، فقيل في حدّها: إنها التخلّق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية، ومداد هذا المعنى على قوله ﷺ: «**تخلقوا بأخلاق الله تعالى**»[3].

وأضاف قوله:

واعلم أنّ الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين، وذلك لأنّ كمال الإنسان في شيئين:

١ ـ أنّ يعرف الحقّ لذاته.

٢ ـ والخير لأجل العمل به.

فالمرجع بالأول إلى: العلم والإدراك المطابق. وبالثاني إلى: فعل العدل والصواب.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ ج ٧ ص ٧٢ ـ ٧٣.

أ ـ فحكي عن إبراهيم ﷺ قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾[1]، وهو الحكمة النظرية ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [وهو] الحكمة العملية.

ب ـ ونادى موسى عليه السلام، فقال: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾، وهو الحكمة النظرية، ثمّ قال: ﴿فَاعْبُدْنِي ﴾[2]، وهو الحكمة العملية.

جـ ـ وقال عن عيسى عليه السلام إنه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾[3] الآية، وكلّ ذلك للحكمة النظرية، ثمّ قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[4]، وهو الحكمة العملية.

د ـ وقال في حقّ محمد ﷺ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[5]، وهو الحكمة النظرية، ثمّ قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[6]، وهو الحكمة العملية.

هـ وقال في جميع الأنبياء ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾، وهو الحكمة النظرية، ثمّ قال: ﴿فَاتَّقُونِ ﴾[7]، وهو الحكمة العملية.

والقرآن هو من الآية الدالّة على أنّ كمال حال الإنسان ليس إلا في هاتين القوتين[8].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣٠.

(٤) سورة مريم، الآية: ٣١.

(٥) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٦) سورة محمد، الآية: ٥٥.

(٧) سورة النحل، الآية: ٢٠.

(٨) مفاتيح الغيب، تفسير قوله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ...﴾ ج ٧ ص ٧٢ ـ ٧٣، وقد نقله بعينه الملا صدر في تفسير القرآن الكريم، ص ١٤٥ ـ ١٤٧، بتصرف يسير.

الفائدة الثالثة: معلِّم الحكمة ومفيضها

قال الملا صدر الدين الشيرازي:

اعلم أنّ معلِّمَ الحكمة غيرُ مفيضِها وموجدِها في النفس ومخرجِها من القوّة إلى الفعل، وذلك لأنّ القواطع البرهانيّة دالّةٌ على أنّ فيّاض المعارف على النفوس هو الله سبحانه؛ باستخدام بعض ملائكته العلوية البريئة من ـ كلّ وجهٍ ـ من القوّة والاستعداد وملابسة الأجسام والموادّ، كما أنّ الباري جلّ مجده مُبرَّءٌ من جميع الوجوه ـ من الإمكان وملابسة الماهيّات، لأنّه محضُ وجوبٍ بلا إمكانٍ ووجودٌ بلا ماهيّة، فالمنذِر والمعلِّم هو النبيُّ ﷺ، والله الهادي لمن يشاء، الفيّاض على قلوب عباده بصور الأشياء، كما يدلّ عليه قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

وتوضيح ذلك:

أنّ الحكمة إنّ فسّرناها بالعلم لم يكن من العلوم الضروريّة، لأنّها حاصلةٌ للبهائم وعامّة الناس والمجانين والأطفال، وهي لا توصف بأنّها حكماء، فهي لا محالة مفسّرةٌ:

إمّا بالعلوم النظريّة مطلقاً.

أو بصفة تكون مبدأ الأفعال الحسنة، نظراً إلى قسميها. فإنّ الغاية في أحد قسميها نفس تلك العلوم، وفي الآخر تحصيل الخُلُق الجيّد والملكة المُلكية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

وعلى أيّ التقديرين، فيلزم أنّ تكون صورة العلوم النظريّة ومنشأ الأفعال الحسنة حادثة في نفس الإنسان، واردة عليه من خارج، فيكون حصولها في نفسه بتأثير مؤثّر خارج عن ذاته، إذ الشيء لا يتأثّر عن نفسه، و أيضاً: لا يكون الشيء أشرف من ذاته وأعلم منها.

فذلك المؤثّر الخارجي يجب أنّ يكون عليماً حكيماً عاقلاً بالفعل لا بالقوّة، و إلا لافتقر أيضاً إلى ما يخرجه من القوّة إلى الفعل ومن النقص إلى الكمال، وهكذا حتّى يلزم وجود العقل الفعّال المبدأ للاستكمال، دفعاً للدور والتسلسل. والمبدأ الفعّال للكلّ هو الذات الإلهيّة البريئة من شوب الإمكان والزوال بالكليّة.

فقد ثبت أنّ الحكمة نورٌ فائضٌ من الحقّ الأوّل على قلب من يشاء من عباده. وإليه الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] يشير إلى أنّ ما يفيضه ويؤتيه لخواصّ عباده رشحةٌ من رشحات بحار علمه، ولمعةٌ من لمعات أنوار الحكمة اللامتناهية[2].

الفائدة الرابعة: بحوث الحكمة وآفاقها

قال المفسّر السبزواري[3]:

إذا تتبعنا الموارد التي ذكر فيها الحكمة في القرآن الكريم نرى أنّها:

تُذكر تارةً مقرونة بالكتاب قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٤.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ج ٧ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج ٤ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤ .

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

وأخرى بعد ورود جملة من الأحكام الشرعية التي نزلت لتهذيب الإنسان وسوقه إلى الكمال والسعادة، كما في سورة الإسراء قال تعالى بعد سرد جملة كثيرة من التكاليف الإلهية والأحكام الفطرية: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾[1].

تعريف الحكمة ومظاهرها:

ويستفاد من ذلك: أنّ الحكمة هي تلك المطالب الحقة التي ترتسم في النفس وتوجب التوفيق بين الاعتقاد والعمل والسوق إلى الكمال المنشود للإنسان، فتشمل جميع الحقائق الفطرية والأحكام الشرعية والمعارف الحقة التي تتعلّق بالمبدأ والمعاد، وتشرح الحقائق المتعلقة بالنظام الأحسن من حيث ارتباطه بسعادة الإنسان والتي لا تقبل الكذب والبطلان. فتكون للحكمة مظاهرُ كثيرةٌ متفاوتةٌ:

١ ـ فتارة تتجلّى في القرآن الكريم الذي هو مصدر كلّ ما يكون في العالم من أنواع الحكمة المتعالية، وهي من أشعة هذا النور العظيم وشوارق ذلك النيّر المعظّم، تأخّر زمان وجودها أو تقدّم لأنّ القرآن من اللوح المحفوظ، وهو محيط بهذا العالم، كما أنّ الكتب الإلهية من مظاهر هذا التجلّي الأعظم.

٢ ـ ومن مظاهرها أيضا الدّين ومعرفته والتفقه فيه، فإنّ الدّين هو القانون المتكفّل لجميع مطالب الإنسان من حين نشأته إلى ما بعد مماته. وعن نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله آتاني من الحكمة مثل القرآن وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلا كان خراباً. ألا فتعلّموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالاً**».

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

٣ ـ ومن أجلّ أفراد الحكمة وأعظمها شأناً معرفة الله الواحد الأحد المتفرّد الصمد. فهي، بحسب المبد، الجهد الأكيد في التصدّي لمرضاة الله الحكيم، وبحسب الغاية لذة روحانية مفاضة من الغيب العليم، ويلزم الإحاطة بحقائق الأشياء على قدر طاقة الإنسان. ولأجل هذا تطلق الحكمة على تلك المعلومات الحقة الصادقة، ويسمّى العارفُ بها حكيماً إلهياً أو متألّهاً.

وبالجملة: هي الخير الكثير كما وصفها به عزّ و جلّ، وفي الحديث: (إنّ في الجنة داراً ـ ووصفها، ثمّ قال ـ لا ينزلها إلا نبيٌّ أو صدّيقٌ أو شهيدٌ أو محكَّم في نفسه).

منبع الحكمة وأصناف أهلها:

ومن الحكمة ما يكون فطرياً إضافياً من عالم الغيب. ومنها ما يكون اكتسابياً يُكتسب بالمجاهدات والرياضات الشرعية، ومنها ما هو مركب منهما.

ومن الحكماء من اجتمع جميع أنواع الحكمة فيه، وهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه بكلّ معنى الصدق والوفاء، فشرح الله صدورهم بكلّ معنى الانشراح، تشتاق إليهم الجنان العاليات، وهذه هي إحدى مراتب الحكمة وقس عليها سواها.

ولكنْ للحكمة مرتبةٌ خاصّةٌ محجوبةٌ عن البصائر والأفكار لا تليق إلا لمن يقدر على تحمّل الأسرار. ويشهد لما قلناه شواهد من العقل والآثار والأخبار، كما أنّها ليست منحصرة بالبحث والنظر والفكر فقد تحصل للنفوس المستعدّة من إفاضات الباري؛ فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «**إذا رأيتم**

المؤمن سكوتاً فادنوا منه، فإنّه يلقي الحكمة»، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله**».

ولكنّ الأصل في إفاضة جميع أفراد الحكمة والعرفان ومراتبها هو الإخلاص لله جلّ جلاله. فعن نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وأنطق بها لسانه**».

وعن جمع من أكابر علماء النفس دعوى التجربة في ذلك، فتكون حقيقة الحكمة ارتباطاً خاصاً بعالم الغيب، وأمّا غيرها فهو فنّ وصناعة، وهما شيءٌ والحكمة الواقعية شيءٌ آخر.

الحكمة علميّة وعمليّة:

نعم، الحكمة تارة تكون علمية وأخرى عملية. ولا نهاية لمراتبهما.

أمّا الثانية فغايتها الرضوان ولقاء الله تعالى. ولا نهاية لكلّ واحد منهما.

وأمّا الأولى فإنّ غايتها الاستلهام من الغيب وهو غير محدود، والتحديد إنّما يكون من الممكن المستفيض لا في المبدأ المفيض.

وقال بعض الأعاظم من الحكماء المتألهين: (إنّ غاية ما للإنسان من الكمال هي الاتصال بالعقل الفعّال المسيطر على الملك والملكوت تسيطر الروح على الجسد). وهذا صحيح إذا كان المراد بذلك روح القرآن والشريعة الأحمدية المنبعثة عن الحقيقة المطلقة الأحدية، لأنّ الإحاطة بالواقعيات صعبة جداً إنّ لم تكن ممتنعة مهما بلغت فطنة العقول في الحدة والذكاء والدقّة، لا سيّما بالنسبة إلى المعارف وأسرار القضاء والقدر

التي لا يمكن أنّ يحيط بها غير علام الغيوب. وقد ورد النّهي عن الخوض في جملة منها، وأنّه لا يزيد الخوض فيها إلا تحيّراً، فلا مناص للحكيم من الوقوف على ظواهر الكتاب والسنة المقدّسة، وهي تحتوي على معادن العلم والحكمة والمعارف وما يكفي لتكميل النفوس الناقصة وإيصالها إلى أوج الكمال والمعرفة، وهي الحكمة الحقّة التي تفيد لجميع النشآت. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، أي الكتاب المشروح بالسنّة أو السنّة الشارحة للكتاب، وقال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2]، وهو مصدر كلّ علم ومعرفة هذا بالنسبة إلى الحكمة العلمية.

وأمّا الحكمة العملية فلا بدّ وأن تكون مطابقة للشريعة المقدسة الختمية وإلا كانت لغواً محضاً.

تقسيم منهجي:

ثمّ إنّه غلب استعمال الحكمة على الفلسفة المتوارثة عن اليونان، وقد اصطلح على قدماء الفلاسفة بالحكماء. وقسموهم إلى:

١ ـ الإشراقيين

٢ ـ والمشّائين

٣ ـ الرّواقيين

كما أنّهم قسموا الحكمة الاصطلاحية (الفلسفة) إلى:

١ ـ علمية

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

٢ ـ وعملية

والثانية عبارة عن:

أ ـ علم الفقه

ب ـ الأخلاق

وقسموا الفقه إلى:

١ ـ العبادات

٢ ـ والمعاملات (أي العقود و الإيقاعات)

٣ ـ والأحكام

٤ ـ والسياسات

وأنّ بمعرفتها، والعمل بها، يصل الإنسان إلى مقام الإنسانية والخروج عن حدود الحيوانية البهيمية. وبذلك تتم المدينة الفاضلة التي خلق الإنسان لأجل ورودها والاستكمال فيها.

وقسّمت الحكمة العلمية إلى قسمين:

١ ـ الإلهيات

٢ ـ والطبيعيات

ولكلّ واحد منهما فصول وأبواب، وقد جعل كلّ فصل من فصول الطبيعيات في العصر الحديث علماً مستقلاً برأسه.

كما أنّ من فصول الفلسفة الإلهية البحث عن كلام الله تعالى؛ من حيث قدمه وحدوثه. وكثر النقض والإبرام فيه حتّى جعل ذلك علماً مستقلاً

له أبواب كثيرة وفصول طويلة.

ولكن كلّ من نظر في الحكمة الاصطلاحية [الفلسفة الموروثة من اليونانيين] يرى أنّها كغبار على اللجين. ولو فرض فيها شيء صحيح فهو مستلهَم من الوحي المبين أو السنّة المقدّسة، وغيره ليس إلا من الأوهام والتخيلّات والمغالطات. وكلّ واحد منها حجاب عن الوصول إلى الواقع ولذلك كثر الخلاف وقلّ الوصول إلى المراد.

وقد ذكرنا أنّ الحكمة بمعزل عن البطلان والتكذيب، ومنزّهة عن جميع ذلك. وإذا كانت الحكمة ما ذكروه فليست هي إلا العلم بالمصطلحات فقط، فهي كعلم اللغة مثلاً، وهي صنعةٌ وفنٌّ لا تزيد على سائر الصنايع والفنون، بل ربما يكون بعضها أفضل منها كما هو المحسوس. انتهى.

ولئلّا يطول بنا الحديث النظري فَلننتقل إلى جو الآيات التي أخذت في شرح معالم الحكمة، ببيان ما ينبغي للحكيم أنّ يجعله ممارسةً دائمة ودائبة له في قوله وفعله، ضمن قواعد تسع:

القاعدة الأولى:

الاعتراف بالجميل

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

في هذا المقطع من الآية محطتان رئيسيّتان انطلقتا من أمر مشهودٍ ومحسوسٍ لكلِّ عاقلٍ، وهو (الإنعام). فما من مخلوقٍ يُنكر أنه غارقٌ في بحر من النعم وصنوف من الكرم، يرتع في رياضها آناء الليل وأطراف النهار.

وما من منعَم عليه لا تحركه فطرته الصافية نحو التعرّف على مصدر هذه النعم لمقابلة إحسانه بالإحسان ،في حدود الطاقة الإنسانية.

وهذا الأمر الأخير، أي مقابلة الإحسان بمثله، هو حقيقة الشكر. سواءٌ عرفنا حقيقة المنعِم أو لم نعرفه، وسواءٌ عرفنا قيمة النعمة أو لم نعرفها، وسواءٌ عرفنا طبيعة الشكر الواجب تقديمه أو لم نعرفها.

ومع ذلك نقول إنّ الشكر عُرِّف بأنه: الثناء ـ بالقول، أو الفعل، أو بكليهما ـ على النعمة الواصلة.

المحطة الأولى: الشكر

أَمَر الله تعالى في هذه المحطة عبدَهُ الصالحَ لقمانَ بـ(فعل الشكر)، فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، ولم يقل (لنا) لأنه لا يناسب التوحيد كما لا يخفى[1]. وأتبع

(١) تفسير الميزان، تفسير سورة لقمان.

ذلك ببيان أنّ نفع ذلك عائدٌ إلى الشاكر نفسه، وهو (الإنسان / المنعَم عليه) ، وليس إلى المشكور، وهو (الله / المنعِم)، فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، فإنه تعالى، كما قال علي عليه السلام: «**لا تنفعه طاعة مَن أطاعه، ولا تضرّه معصية مَن عصاه**»[1].

وهنا ملاحظات:

الأولى: أنّ الأمر تضمّن (الشكر) على الإطلاق دون تفصيل لأسبابه ودواعيه، وفيه تنبيهٌ إلى أنّ كلَّ داعٍ منها كافٍ لدفع الإنسان إلى أنّ يكون من أهل الشكر. بلا فرق بين أنّ تكون النعمة ظاهرة أو باطنة، وماديةً أو معنويةً، وسواء حصلت من قريب أو بعيد ...

ولا يخفى أنّ امتثال ذلك سيكون سبباً لإشاعة المحبّة بين الناس، لأنّ تقديم الشكر في مراتبه الأولى لهم يجعلهم بصدد تقدير الجهود المبذولة من أي طرفٍ فـ(بالشكر تدوم النعم)[2].

الثانية: أنّ الغاية التي أمر من أجلها بالشكر إنما هي الله تعالى، فقال سبحانه ﴿لِلَّهِ﴾. وفيه تنبيهٌ إلى أنّ المطلوب هو أنّ يكون الشكر خالصاً لله تعالى، وليس التملّق لهذا أو ذاك، أو بغرض كسب ودّه ومحبته، فنحن إذا كنّا من الحكماء فإنّ علينا أنّ نشكر النعمة وفاعليها من أجل الله لا نريد من أحد جزاءً ولا شكوراً.

وبطبيعة الحال، فإنّ هذا الخلق سيكون أدعى لتجسيد الإنصاف والقسط بين الناس، فلا يُتنكّر لجهد مجتهدٍ ولا لسعي ساعٍ .

---

(١) نهج البلاغة، خطبة المتقين (١٩٣).

(٢) مجمع البحرين، مادة (د و م).

الثالثة: يُلاحظ أنّ حكمة الشكر، التي ذُكرت في المقطع الثاني من الآية، جيء بها بصيغة المضارع للدلالة على أنّ المطلوب ليس هو إيقاع الشكر لمرّة واحدة، بل جعله سمةً متأصّلةً ودائمةً في مَن أراد أنّ يكون حكيماً. وذلك لدوام الفيض الإلهي بالنعم التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

الرابعة: في الآية دلالةٌ على التوحيد، لحصرها الشكر في الله، لمكان (اللام)، الدالّ على أنّ المنعم إنما هو الله وحده، فلا منعِم إلا الله، وذاك يعني أنه لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ يفيد أنّ الشكر يزيد النعم إذا ضممنا ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

المحطّة الثانية: الكفر

يقابل فضيلةَ الشكر رذيلةُ الكفر، ويراد بها (الكفران). فكما أنّ الشكر يعني الاعتراف بالنعمة والسعي في مراعاتها والقيام بواجب التعامل الحسن معها ومع من كان سبباً قريباً أو بعيداً فيها، فإنّ الكفر هو التستُّر والتكتُّم على النعم الواصلة إليه، ليؤدّي ذلك إلى التنكر لأولي الفضل والنعمة. فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. وقد أبانت الآية بعبارة صريحة وجازمة ومؤكّدة أنّ كفر الكافر لأنعُم الله لا ينقص من ملكه تعالى شيئاً. وأُشير إلى ذلك بقوله ﴿غَنِيٌّ﴾، وإلى ذلك فإنّ كفر الكافر وجحده للنعم لا يسلب الله استحقاقه للحمد والثناء على ما أنعم فهو ﴿حَمِيدٌ﴾.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

لطيفتان:

الأولى: جاءت صياغة الآية هكذا: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. فهل المقصود إيتاء الحكمة ليكون لقمان شاكراً بمعنى (شكر الحكمة)؟ أم أنّ المقصود هو أنّ أُولى قواعد هذه الحكمة أنّ يكون شاكراً، بمعنى (حكمة الشكر)؟

الجواب: كلاهما محتمل. وإن كان الثاني هو الأقرب لمكان واو العطف في الآية التالية، ولا معنى للعطف لو كان أول بنود الحكمة ما تعرّضت له من عظته لابنه بأنّ لا يشرك بالله تعالى، مع ما قد يقال من أنّ المقصود من كلّ بنود الحكمة وقواعدها التي سيقت في الآيات إنما هو لتحقيق مقام الشكر الذي يعد من أصول حسن المعاملة مع الله تعالى. وهو استفادة قيّمة في نفسها، لكنّا نرجّح ما قدّمناه من وجهٍ وسببٍ.

الثانية: قد يتساءل الفطن ويقول: لِمَ قدم الحديث عن (الشكر) على الحديث عن (التوحيد)، مع الأهمية القصوى للتوحيد؟

الجواب: قد يكون السبب في ذلك هو أنّ طبيعة (التوحيد ـ إنما يمكن الحديث عنها إذا سلّمنا بما يُعدّ دليلاً عليه، وبما يكون سبيلاً إلى حسن التعامل معه، وواقع (الشكر)، الذي يؤمن به كلُّ سويٍّ من الناس، هو خيرُ معينٍ على ذلك. أمّا إذا ساد الجحود والكفران، فلن يكون للحديث عن التوحيد قيمةٌ بين جاحدِين.

فالمدخل المنطقي للتوحيد هو الاعتراف بالنعمة. ولعلّ هذا ما يمكن استفادته من استدلال المتكلّمين، تبعاً للإشارات القرآنية، إلى التوحيد

بـ(وجوب شكر المنعم). قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

تتميم:

للمرحوم المرجع السبزواري كلامٌ وجيزٌ وعزيزٌ عن الشكر رأيت أنّ أتحف نفسي والقرّاء الكرام به:

إنّ الشكر من أجلّ الصفات الحسنة، ومن أرفع مقامات العبودية، وهو على أقسام:

الأول: أنّ يكون من المخلوق للخالق، وقد رغّب إليه الكتاب والسنّة المقدسة ترغيباً بليغاً بأنحاء مختلفة؛ بأنّ أضاف الشكر:

أ ـ تارة إلى نفسه، إذ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

ب ـ وأخرى إلى نعمه قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[4]. وهو يرجع إلى الأول، لأنّ كلّ ما بالعرض لا بد أنّ ينتهي إلى ما بالذات.

جـ ـ وثالثة إلى نفس الشاكر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾[5]، فإنّ غاية الشكر إنما ترجع إلى نفس الشاكر، كقوله تعالى:

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٢) سورة لقمان ، الآية: ١٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ١١٤.
(٥) سورة لقمان، الآية: ١٢.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[١]. ولا فرق في هذا القسم بين أنّ يكون الشكر على الآراء والمعتقدات الحسنة والمعارف الحقة، أو على النعم الخارجية، وجميع ذلك مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤]، وهو مطابق للقواعد العقلية، لأنّ أساس معرفة الله تعالى مبنيٌّ على وجوب شكر المنعم عقلاً ـ وهذا الوجوب عقليٌّ لا أنّ يكون شرعياً ـ ومعرفة الله تعالى من أرفع المقامات والكمالات الإنسانية التي وصل الإنسان إليها بحكم عقله.

الثاني: أنّ يكون من الخالق للمخلوق، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[٦]، بل الشكور من أسمائه الحسنى، فإنّ من عادة العظماء التشكّر مما يستحسنونه من أعمال الرعايا، وله دخلٌ كبيرٌ في سَوْق العباد إلى العمل وجلب قلوبهم.

الثالث: أنّ يكون من المخلوق لآخر مثله، وهو من مكارم الأخلاق، وقد ورد في الحديث: «**من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق**»[٧]، لانتهاء

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٧.

(٦) سورة الإنسان، الآية: ٢٢.

(٧) أقول: لم أجده بهذا اللفظ، وإنما روي عن الرضا عليه السلام قوله: من لم يشكر المنعِم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجل) انظر: عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٢٦. ولمضمونه شواهد عديدة.

المخلوق ونعمه إلى الخالق، فالشكر له ينتهي بالآخرة إلى شكر نعمائه، وترك شكر المخلوق ينتهي إلى ترك شكر الخالق في سلسلة الأسباب.

دواعي الشكر:

ثمّ إنّ الشكر:

تارة: يكون لله تعالى لذاته بذاته، بلا لحظ عناية أخرى، لأنه مبدأ الكل ومنتهاه فيستحقّ الشكر. وهو شكّر أخصّ الخواصّ، وأخلص أنواع الشكر وأعظمها.

وأخرى: يكون على ما يرِد منه تعالى على عبده من البلايا والمحن، فيشكر عليها كشكره على النعم. وهو شكر الخواصّ، وهو كالأول من أجلِّ مقامات العارفين بالله تعالى.

وثالثة: يكون بإزاء النعمة وهو شكر العامّة من الأنام ... انتهى[1].

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

القاعدة الثانية

تَوْحِيدُ اللّهِ خَلاصٌ تامٌّ

(الآية ١٣)

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

قبل الدخول في تبيان مضمون هذه القاعدة نمهِّد بوقفات.

الوقفة الأولى: المسؤوليّة التربويّة

تبيِّن لنا سورة لقمان، من خلال الآية مورد البحث، ما يجب على المربين مراعاته في الشأن التربوي. لأنّ التربية ـ وهي: الأخذ بيد الإنسان إلى كماله المادي والمعنوي ـ لا تسمح لنا بتوجيه الأوامر والنواهي، من مقام التسلط الأبوي، الذي علِق بأذهان كثير من الناس، حيث يسوِّغون لأنفسهم التعاملَ مع أبنائهم بروح التعالي؛ حيث الآمر والمأمور، والناهي والمنهي ... الأمر الذي ينعكس سلبياً على العلاقة بينهما، حتى لا يبقى جسر بينهما إلا تهدّم فتتقوّض قواعد الترابط ولا يسمع أحدهما للآخر ...

والآية الشريفة تؤكّد لنا أنّ ثمة (مسؤولية تربوية) في عنق الأب تجاه الابن. ومن مقتضيات هذه المسؤولية الجسيمة تحمُّل تبعاتها، وقبل ذلك فهمها واستيعابها.

وهذا ما يظهر لنا من الآية التي تؤكّد أنّ لقمان الحكيم كان يمارس هذه المسؤولية التربوية، فـ﴿قَالَ﴾ ما أراد أنّ يقوله من وجوه الحكمة التي آتاه الله تعالى إياها. ثمّ إنه مارس ذلك بشكل متكرر إذ إنه ﴿يَعِظُهُۥ﴾. وهذا ما يُستفاد من الروايات التي تحدّثت عن حالات لقمان ووصاياه لابنه. ولكنّ القرآن نصَّ على خصوص هذه الوصايا التي سيقت في السورة.

الوقفة الثانية: الوعظ

في هذه الوقفة نتلمس ما اعتمده لقمان في تحمله لمسؤوليته التربوية من آليات حكيمة، إشارة إلى أنّ على الحكيم أنّ لا يخرج عن الحكمة على مستوى الآليات كما أنّ عليه أنّ لا يخرج عنها في المبادئ والمضامين.

ومن جملة ما اعتمده لقمان هنا، أسلوب (الوعظ).

وقد عُرِّف بأنه: (وعظ مقترن بزجر)[١]. وفي حقيقة الأمر فإنّ هذا التعريف لا يعد تعريفاً، وإن قرَّب لنا معنى الوعظ. لذلك عرَّفه آخرون بأنه: (التذكير بالخير في ما يرقّ له القلب)[٢]. وهو تعريف أفضل من التعريف السابق. إلا أنّ فريقاً ثالثاً يرى أنّ الأفضل تعريفه بأنه: عبارة عن التذكير بالنعم والطيبات المقترن برقّة القلب ـ ويزيده إيضاحاً بقوله: (الحقيقة فإنّ كلّ نصح وإرشاد يترك أثراً في المخاطب، ويخوِّفه من السيئات ويرغِّبه في الصالحات، يُسمّى وعظاً وموعظةً)[٣].

والوعظ والموعظة لهما أبلغ الأثر في تطوير المسيرة الإنسانية، حتى

(١) مفردات ألفاظ غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (وعظ).

(٢) م ن.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج ٦، ص ٣٨٢.

إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول، في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**أحيِ قلبَك بالموعظة**»[1]. فهو يرى أنّ للموعظة أثراً بالغاً على الإنسان يفصله بين الموت والحياة، وبالطبع فإنّ المقصود حياة القلب المعنوية وليس المادية.

وهو عليه السلام يُصرّ على ضرورة أنّ يراعي الواعظ الظرف المناسب لعملية الوعظ، فليس من الصحيح أنّ يتعامل معه كحمل يجب أنّ نتخلص منه ونعظ بأي أسلوب ولأيٍّ كان، وفي أي ظرف. ويفلسف ذلك، وهو الخبير بالنفس الإنسانية، بقوله: إنّ للقلوب شهوةً وإقبالاً وإدباراً. فائتوها من قِبَل شهوتها وإقبالها، فإنّ (القلب إذا أُكرِه عمي)[2].

ويضيف عليه السلام أنّ من أهمّ وسائل الوعظ تحريك التفكير وتفعيله وتثويره، فيقول: «**رحم الله امرأً تفكَّر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليلٍ لم يكن، وكأنّ ما هو كائنٌ من الآخرة عمّا قليلٍ لم يزل**»[3].

والموعظة إنما تكون موعظةً في حقّ من وعظ بها، إذا كانت مؤثّرة فيه. ويشهد لذلك ما رواه محمد بن مسلم، عن أحدهما[4] عليهما السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾[5]، قال: «**الموعظةُ التوبةُ**»[6].

ومن ثَمَّ تتبيَّن لنا القيمة التربوية للموعظة، التي من شأنها أنّ تحول بين

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة: ١٩٣. نقلاً عن المعجم الموضوعي لنهج البلاغة.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٠. نقلاً عن المعجم الموضوعي لنهج البلاغة.
(٤) أي أحد الإمامين الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.
(٦) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٢.

الإنسان والخطأ والخطيئة، كما أنّ من شأنها أنّ تنتشله من حمأة هذا وذاك لو وقع فيه، وما أجمل ما قاله الواعظ المتعظ علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الموعظةُ كهفٌ لمن وعاها**»[1]. فهي كهف يلجأ إليه الإنسان من المخاطر والأعداء، الظاهريين والباطنيين. ولكنّ علينا أنّ نلتفت إلى أنّ للموعظة أسباباً يجب علينا أنّ نتوفّر عليها، ودونها موانع يجب علينا أنّ نتخلص منها، ولعلّ من أهمها الغرور والعجب والكبرياء. وفي ذلك قال علي عليه السلام: «**بينكم وبين الموعظةِ حجابُ العزةِ**»[2].

بعد كلّ هذا، على وجازة تعاطينا معه هنا، فلا يسوغ لأب أو لأمّ أنّ يهملا أبناءهما دون أنّ يكون الوعظ مادةً يومية يقدمانها على طبق من ذهب لفلذة كبدهما، الذي هو امتداد لعملهما الصالح إنّ كان صالحاً. والوعظ من أفضل ما يصلح الإنسان في سلوكه قولاً وفعلاً ومشاعر.

الوقفة الثالثة: الكلمة الطيبة

تكشف لنا الآية الشريفة عن وسيلة من وسائل الحكمة وآلية من آلياتها، أعني (الكلمة الطيبة). فإنّ لها دوراً مهمًا في التأثير في الآخر. ولقمان الحكيم اعتمد هذا الأسلوب ليصل إلى قلب ولده، فقد خاطبه في هذه الآية وآيتين أخريين بكلمة ﴿يَٰبُنَيَّ﴾. وهي كلمة حانية تشي بمقدار حنوّ الأب على ولده، فهو لم يقل (يا ابني)، ولم يقل (يا ولدي)، ونحوهما يمكن أنّ يخاطب به الكبير والصغير، والمحبوب وغير المحبوب ...، وإنما اختار ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، لما فيها من الإشفاق الأبوي على ولده الذي هو بعضه،

---

(١) من لا يحضره الفقيه، وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية، ج ٤، ص ٣٩٠.
(٢) تحف العقول، قصار ما روي عنه عليه السلام.

بل وجده (كله)[1].

وفي هذا الاختيار درسٌ بليغٌ لنا أنّ ندقّق في اختيار الكلمات، التي قد تتشابه معانيها، لكنها تتفاوت جداً في إيحاءاتها وظلالها، فنختار الأفضل والأحسن والأبلغ. وبذلك نمتثل أمر الله تعالى وتوجيهه لنا بحسن الاختيار. كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[2]، حيث إنّ المطلوب منا أنّ نكون من المحسنين فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وفي خصوص القول والكلام قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[4]. وهو ينسجم مع المبدأ الإسلامي العامّ من السير دائماً في الاتجاه الصحيح. أمّا غير الحسن، بل غير الأحسن، فليس من هذا القبيل، إذ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[5].

الوقفة الرابعة: مراعاة الأولويات

في هذه الوقفة يرشدنا النصّ الشريف إلى أنّ علينا، كتربويين حكماء، أنّ نراعي الأهمّ فالأهم، فنقدم ما له أولوية في التقديم، على ما ينبغي أنّ يكون في رتبة متأخّرة.

فإن لقمان الحكيم نهى ابنه أولاً عن الشرك، الذي هو، كما سيأتي، ظلمٌ عظيمٌ. لأنّ الإنسان إذا خرج عن الحدود والضوابط في الأهم، فسيكون من السهل عليه أنّ يخرج عنها في ما هو دون ذلك.

(١) نهج البلاغة، وصية الإمام علي عليه السلام لنجله الإمام الحسن عليه السلام، الكتاب: ٣١.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

وفي ذلك درسٌ لنا كي نحسن التفكير في ما نتعامل معه، فنضع كلّ شيء في موضعه، وهذا هو معنى الحكمة التي لا يلتزم بمضمونها أكثر الناس، حيث نجدهم ينغمسون في توافه الأمور وسفاسف الشؤون الحياتية، على حساب أخطر ما عليهم أنّ يراعوه.

الوقفة الخامسة: سبر الأغوار وفلسفة الأمور

نضيف إلى ما تقدّم من وقفات مَعْلماً من معالم حكمة لقمان، وهو سبره للأغوار وفلسفته للأمور؛ فإنه لم يقف في وصاياه ومواعظه عند حدود الظواهر، بل تعدى ذلك إلى الغوص في الأعماق ليعرِّف ابنه بكنه ما يريد أنّ يعظه فيه. لأنّ من شأن ذلك أنّ يزيد الولد، ومن هو في حكمه، بصيرةً بالأمر، وقناعةً بالنتائج التي نوجهه نحوها.

وقد ترجم لقمان الحكيم ذلك بعدم اكتفائه بالنهي عن الشرك، بل أضاف إليه العلّة لهذا النهي، وهو أنّ الشرك ظلمٌ عظيمٌ.

وفي ذلك توجيهٌ لنا أنّ لا نكتفي باللغة الجافة، بالأمر والنهي المجرَّدين. خصوصاً في مَن كُلِّفنا بتربيته، ومن جعله الله تعالى أمانةً في أعناقنا.

ثم إنّ في الأمر والنهي المجردين حرماناً للمأمور والمنهي من فهم طبائع الأحكام، وفي ذلك حدٌّ من نموه الفكري والمعرفي، مما سيجعله تابعاً، وإن كان مطيعاً، إلا أنه يشكّل عبئاً، قد يكون ثقيلاً في كثير من الأحيان.

وبالطبع، فإنّ ذلك لا يعني أنّ لنا القدرة أنّ نفهم كلّ شيء ونفلسف كلّ شيء، باعتبار أنّ كثيراً من الأوامر والنواهي الشرعية مبنيةٌ على التعبد والتسليم لمقام الربوبية. ولكنّ مع ذلك فهناك نماذج كثيرة لذكر العلّة أو

الحكمة من الحكم الشرعي.

وكنموذج على ذلك نسوق المثال التالي، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١).

هذا النصّ القرآني الطويل والمشتمل على عدد من الأحكام لم يكتف بسردها، بل إنه أردف ذلك بتبيان كثير من الحِكَم والفوائد التي تترتّب عليها. سواء في ذلك ما نُصّ عليه، أو ما أُوكل إلى معرفة العبد بعلم الله وحكمته وعزّته ...، أو ما أُحيل إلى أنّ التزام ذلك يقرِّب إلى الله بجلب محبته ومغفرته.

الوقفة السادسة: فهم الإنسان

مما نلتفت إليه في الوقوف بين يدي الآية أنّ على المربّي أنّ يعي حقيقة من يتولّى تربيته، لأنّ التربية شكل من أشكال الإدارة، ولا يُتوقع من الجاهل

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

بالشيء أنّ يحسن إدارته. ومن فهم الشيء سهل عليه أنّ يحدد الآليات التي ينبغي اتباعها في سبيل الوصول إلى الأهداف.

فالوعظ الذي قد يغلب عليه التخويف والترهيب يعبر عن أننا ندرك أنّ لـ(الترهيب) دوراً في التربية كما أنّ لـ(الترغيب ـ دوراً. فيحسن بنا أنّ نستعمل كلاًّ منهما في موضعه، لنحقق عنوان الحكمة.

هذه الوقفات بين يدي الآية يمكن أنّ نعتبرها مكمِّلات لما كانت الآية بصدده، وما كان لقمان مهموماً به، والذي اعتمد أفضل السبل لتوجيه ابنه نحو الحكمة التي أوتي إياها من الله تعالى، والتي ذكرنا أنها تشكل القاعدة الثانية، بعد الشكر، من قواعد الحكمة.

لطيفة فنية:

من لطائف السورة أنها أشارت إلى (الشكر) كبند أول من بنود الحكمة، ثمّ أشارت إلى (عدم الشرك) كبند ثانٍ. ولا يخفى اللطف حيث إنّ (الشكر والشرك) يلتقيان في مادة تتكون حروفها من (ش ك ر)، لكنهما يختلفان جداً في المعنى حيث إنّ الأول يأتي في قمة الفضائل، فيما يقع الثاني في حضيض الرذائل.

بعد هذا التمهيد ننتقل إلى الحديث عن مضمون هذه القاعدة، فنقول:

نهى لقمان الحكيم ابنه عن الوقوع في براثن الشرك، فقال ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾. والشرك هو الضدّ لـ(التوحيد). والقاعدة الفطرية والوجودية الأولى في الكون، أنّ الكون بما فيه (مخلوق) لموجود أسمى وأعلى هو (الخالق). والمطلوب من مفردات الكون أنّ تقر بكلّ وجودها بمخلوقيتها

وخالقِّيته تعالى. وهذا هو معنى التوحيد.

واللافت في تعبير الآية أنها أطلقت النهي عن الشرك، وقد أشبه الآيةَ في إطلاقها آياتٌ أُخرُ:

أ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1]. والآيةُ نصٌّ على الخطأ الفكري الحادّ الذي يقع فيه المشرك، حيث يتعلق بوهمٍ لا واقع له.

ب ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2]. وهذه الآيةُ نصٌّ على أنّ المشرك يفتئت على الله تعالى بأنّ يسوّي به غيره.

جـ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[3]. وهذه الآية تكشف عن مدى الخسارة التي يُلحقها المشرك بنفسه.

فالشرك ـ إذاً ـ مبغوضٌ ومنهيٌّ عنه بالإطلاق، فليس ثمة نوعٌ من الشرك مقبولٌ وآخر مرفوض، بل إنه، بكلّ مستوياته وشُعبه وفروعه ولوازمه وآثاره، مبغوضٌ ومكروهٌ.

ومن هنا، ننبّه إلى أنّ للشرك شُعَباً، كما أنّ للتوحيد شُعَباً، ولكي نفهم الأول، علينا أنّ نفهم الثاني. وذلك بعد التمهيد لذلك بتبيان محورية التوحيد في حركة الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣١.

محورية التوحيد في الأديان:

١ ـ أهمية التوحيد:

يقرّر القرآن الكريم قاعدة عامّة مفادها أنّ جميع الأنبياء والرسل إنما بعثوا بالدعوة إلى توحيد الله.

أ ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[١]. فثمة حقيقة واحدة شكّلت محور حركة الأنبياء هي مقولة (لا إله إلا الله)، التي هي إفراد الله بالألوهية ولوازمها، والتي ينبغي للناس أنّ يلتزموا بلوازمها، وهو أنّ يكونوا عباداً لله صالحين.

ب ـ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢]. فنحن إذاً أمام حقيقة كونية ليس لأحد، حتى لو كان نبياً، أنّ يتبنّى غيرها أو يدعو إلى خلافها.

وهذا المحور نفسه هو الذي أُمر رسول الله محمد ﷺ، وهو خاتم الأنبياء، أنّ يجعله محور دعوته ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

ولم يكتف الأنبياء عليهم السلام، وهم الموحى إليهم من الله تعالى، بالدعوة المجردة إلى التوحيد، وإنما شفعوا ذلك ببيان أسبابه ودلائله وبيناته، وقرّبوه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية:٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٩ ـ ٨٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٦.

بالأمثال والحكم.

أ ـ قال تعالى، في تقريب فكرة واقع الموحّد وواقع المشرك: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وهو مثلٌ رائعٌ لحالة الانسجام التي يعيشها الموحد، باعتباره يتوجه إلى جهة واحدة في مشاعره وتفكيره، وباعتبار وحدة ما يتلقاه من أوامر ونواهٍ ستكون منسجمةً في ما بينها بطبيعة الحال. في حين أنّ المشرك سيكون مشتّتاً ومتوزّعاً بين جهات عدة كلّ جهة تدعوه إلى جانب ... فيعيش حالة الضياع والتيه.

ب ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۞ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2]. وهذا تأكيد للمشركين أنّ ما هم فيه من عبادة من زعموا أنهم شركاء لله سبحانه، لا يتصفون بما يُرجى منهم، لأنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ولو كان المعتدي عليهم ذباباً، فكيف يكون هذا العاجز ربّاً؟!

ج ـ في مقابل ذلك فإنّ التوحيد مُثّل له بالشجرة الطيبة ذات الأصل الثابت والفرع الباسق والمثمرة في جميع الفصول، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3]. فيما يشكّل الشرك النقيض لهذه الحالة، فهو الاضطراب

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٧٣ ـ ٧٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ ـ ٢٥.

التامّ، ومُثِّل له بهذا النحو: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[١].

ويجب التأكيد هنا على أننا لا نتعامل مع مسألة اعتبارية نفترض لها حدوداً وأُطراً نزيد فيها تارةً وننقص فيها أخرى، ونتفق على عدم الزيادة والنقصان ثالثةً. باعتبار البشر المتفقين هم أصحاب النقض والإبرام فيها. وإنما نتعامل مع مسألة واقعية لا دخل للناس فيها إلا أنّ يقرأوها كما هي، لا دور لهم فيها إلا التلقي الصحيح، إنّ توفروا على شروطه، أو الخاطئ إنّ افتقدوها كلاًّ أو جلاًّ.

محور عمل الأنبياء عليهم السلام:

لهذا فإنّ جهد الأنبياء انصبّ على مسألتين أساسيتين:

الأولى: التعليم، التي كان السعي فيها من أجل التعريف بالواقعيات والمفاهيم التي لا يعرفها الناس، لسبب أو لآخر.

الثاني: التزكية، التي كان سعيهم فيها نحو:

١ ـ التخلي عن كلّ ما يُعدّ مانعاً من موانع المعرفة والعمل وفقاً لمقتضياتها.

٢ ـ التحلّي بكلّ ما من شأنه إعانة الإنسان على السير في دروب المعرفة وعدم النكوص عن التزاماتها[٢].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٢) قال السيد علي خان المدني الشيرازي في كتاب رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٢، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧:

اعلم أنّ كلمة الشهادة أشرف كلمة تنطبق على معنى التوحيد، لما تضمنه تركيبها من حسن الوضع المؤدي للمقصود التامّ منها. وبيان ذلك: أنه قد ثبت في علم السلوك إلى الله تعالى أنّ التوحيد المحقق=

وفي ذلك قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فإذا ما توفّر المسلم، وهو المستجيب لدعوة الأنبياء إلى الحياة، على هذا وذاك فقد بُذرت بذرة المجتمع الصالح الذي يحرص على أنّ يبقى في عالم الطهارة والنقاء على مستوى الفرد والجماعة، ويحرص إلى جانب ذلك على أنّ يبقى عنصر عطاء ونماء على مستوى القريب والبعيد. وذلك من خلال:

أ ـ حماية بنيته الدينية والاجتماعية من التآكل بسبب عوامل داخلية، لذلك فإنه يلزم وظيفتي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

ب ـ حماية نفسه من الاضمحلال لأسباب خارجية، وباعتباره يأبى أنّ يكون مظلوماً كما يُحرّم على نفسه أنّ يكون ظالماً، لذلك فإنه يلتزم مهمّة مقدسة هي (الدفاع)، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ

= والإخلاص المطلق لا يتقرر إلا بنفض كلّ ما عداه عنه، وتنزيهه عن كلّ لاحق له، وطرحه عن درجة الاعتبار، وهو المسمى في عرف أهل العرفان بمقام التخلية والنفض والتفريق، وما لا يتحقق الشيء إلا به كان اعتباره مقدماً على اعتباره. وقولنا: (لا إله إلا الله) مشتملٌ على هذا الترتيب، إذ كان الجزء الأول منها مشتملا على سلب كلّ ما عدا الحقّ سبحانه، مستلزماً لغسل درن كلّ شبهة لخاطر سواه، وهو مقام التنزيه والتخلية، حتى إذا انزاح كلّ ثان عن محل عرفانه استعد بجوده للتحلية بنور وجوده، وهو ما اشتمل عليه الجزء الثاني من هذه الكلمة، فكانت أجل كلمة نطق بها في التوحيد.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(١)].

ج ـ حماية حقّ الآخرين لأنّ يسمعوا صوت الحقّ دون منع أو دفع من أحد، لذلك فقد التزم أيضاً أنّ يكون حامل دعوة الرحمن لصلاح الإنسان عبر مهمة مقدسة ثالثة هي (الجهاد في سبيل الله)، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[(٢)].

وإذا كان التوحيد يحظى بكلّ هذه الأهمية، فمن المناسب ـ إذاً ـ أنّ نتعرّف على أقسامه التي تمثّل آفاق التوحيد، التي تمثّل أبعاد حضوره الشاملة، حيث لا نجد ساحة من ساحات الوجود الكوني في غنى عن الله تعالى، فالله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[(٣)]، ولا تخلو من ربوبيته، فـ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[(٤)]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٥)].

٢ ـ التوحيد أقسامه وأبعاده:

لدى استعراضنا آيات القرآن الكريم نجد أنّ لـ(الله) تعالى حضوراً شاملاً في الوجود، لا يحده زمانيٌّ ولا زمانٌ ولا يحيط به كونٌ ولا مكانٌ.

قال تعالى عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.

(٤) م ن.

(٥) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

ٱلْعَلِيمُ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4].

هذه المفاهيمُ، وغيرها، مترتّبةٌ على بعضها، فمتى أثبتنا لله صفةً وواقعاً فلا يمكننا التنصّل من لواحقهما، لنضعهما بين يدي آخرين، وإلا وقعنا في الشرك. وهذا ما يوصي به لقمان الحكيم ولده بقوله: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾. ومن هنا تأتي أهمية التعرّف على معالم التوحيد حتى نعرف من خلالها أبعاد الشرك، التي نعرف بعضها ويخفى علينا كثيرٌ من جوانبها. هذا مع التأكيد على أنّ آفة الشرك إنما يُبتلى بها العقلاء، أعني (الإنس والجن). أمّا الحيوانات والنباتات والجمادات فهي موحدة لله، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[5].

ونخلص من هذا الاستعراض السريع والموجز لأقسام التوحيد إلى أنّ له بعدين:

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 84.

(2) سورة الأنعام، الآية: 102.

(3) سورة الجاثية، الآية: 36.

(4) سورة الجاثية، الآية: 37.

(5) سورة الإسراء، الآية: 44.

الأول: البعد النظري للتوحيد. وهو يرتبط بالبعد المعرفي، بمعنى أنّ على الإنسان أنّ لا يغيب عن عقله وفكره أنّ لهذا العالم خالقاً واحداً له الألوهية والربوبية والعبادة ...

الثاني: البعد العملي، وهو يرتبط بالجانب السلوكي في مسارين اثنين:

١ ـ (الجوانح / الروح)، حيث المشاعر تجاه الخالق والمخلوق.

٢ ـ الجوارح، حيث التعامل بالسلب والإيجاب، والفعل ورد الفعل، وفي مختلف حالات الرضا والغضب، والحرب والسلم ... وتجاه الخالق والمخلوق أيضاً.

ولا يمكن للموحّد أنّ يحقّق التوحيد التامّ ما لم يستسلم لله تعالى في أبعاده الثلاثة (النظري، والعملي بقسميه)، إذ إنّ من الحقائق القرآنية أنّ التوحيد والشرك قد يجتمعان في قناعات الإنسان وسلوكياته، فهو موحد من جهة لكنه مشرك من جهة أخرى، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]. فهم مؤمنون، أي موحدون بنسبة، لكنهم إلى ذلك وفي الوقت نفسه مشركون. ولا يمكن القول بأنهم موحدون من الجهة التي هم فيها مشركون، لأنّ ذلك تناقض وباطل حاشا للقرآن أنّ يقع فيه.

ولأن المطلوب هو التوحيد التام، فقد قال تعالى ملقناً حبيبه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣.

وبالتالي فإننا ـ نحن المسلمين خصوصاً ـ مطالبون بأنّ نطمح إلى التوحيد التام، لأنّ أسوتنا وقدوتنا محمدٌ ﷺ هو الموحد الكامل، والحكيم الأفضل، لأنه تعامل مع هذه الحقائق دون تجاوز ولا تعدٍّ على شيء منها، وهذا هو معنى الحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

وبالطبع، فإنّ استجابة الناس وامتثالهم للوازم هذه الحقيقة ستكونان متفاوتَين، وهنا يتفاضلون، قال تعالى بعد الآيات السابقة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾[2].

الأول: التوحيد الذاتي

نريد بـ(التوحيد الذاتي) أنّ الله تعالى على مستوى الذات ليس فيه أي تعدّد ولا تجزّؤ. لأنه قد ثبت، في القرآن والبرهان، أنّ الشيء إذا كان مركباً من أجزاء، فهو مصداق من مصاديق الاحتياج، ولا يمكن أنّ يكون غنياً، بمعنى أنّ ذاته لكي تتحقّق يحتاج كلّ جزء منها إلى الجزء الآخر، وهذا هو الفقر. والله تعالى بلغة القرآن ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾[3]، وبلغة المعقول هو (واجب الوجود). وكلا المعنيين ينفيان الاحتياج والتركّب.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٨.

(٤) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[1].

وقد جاء التصريح بذلك في بعض الأخبار:

ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام، لما سئل: كيف هو الله الواحد؟ فأجاب: «**واحدٌ في ذاته فلا واحد كواحد ، لأنّ ما سواه من الواحد متجزئٌ، وهو تبارك وتعالى لا يتجزّأ ولا يقع عليه العدُّ**»[2].

وعن الإمام الجواد عليه السلام أنه قال: «**ما سوى الواحد متجزئ، والله واحد لا متجزئ، ولا متوهّم بالقلّة والكثرة، وكلّ متجزئ أو متوهم بالقلة أو الكثرة فهو مخلوقٌ دالّ على خالقٍ له**»[3].

الثاني: التوحيد الصفاتي والأسمائي

المراد بـ(التوحيد الصفاتي والأسمائي): أنّ صفات الله تعالى، التي نصوغها في قوالب الأسماء، ثابتةٌ له ليس على نسق ثبوت صفاتنا لنا. فنحن نولد جهّالاً ثمّ نتعلم فنصبح علماء، ثمّ نصاب بالمرض أو الهرم، فنعود جهالاً، وتزول صفة العلم عنا، لأنها ليست جزءًا ذاتياً فينا، وإنما هي طارئة علينا، تُفاض علينا من خارج ذواتنا. واتصافنا بها على هذا النحو يؤكّد حقيقة أننا الجانب الأضعف في عملية الخلق والترابط الكوني، وأن ثمة من يخرجنا مِن دائرة الفقر الذاتي إلى الغنى المكتَسَب. فـ(الذات) في الواحد منا، نحن الخلق، شيء، وأمّا (الصفة) فشيء آخر، فالوحدة فينا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٢) موسوعة العقائد الإسلامية، للريشهري، ج ٣، ص ٣٦٦، نقلاً عن كتابي الاحتجاج للطبرسي وبحار الأنوار للمجلسي.

(٣) م ن، ص ٣٧٢.

لا تتحقّق أبداً فـ(كلُّ مسمّى بالوحدة غيره قليلٌ)[١].

فهل هذا المعنى معقول في الله تعالى؟

الجواب: كلا! لأنّ هذا المعنى يستبطن الفقر، بل هو الفقر ذاته.

فهل نتصور أنّ ذات الله تعالى شيءٌ لحقت به (الصفة) في مرتبة تالية؟

وثانياً: من هو الذي سيفيض على ذاته تعالى هذه الصفة؟

وثالثاً: ألا يكون معنى ذلك أنّ المفيض قاهر، لأنّ يده يد فيض وعطاء، والمفاض عليه مقهور أبداً، لأنه آخذ ومتلقٍّ؟!

لذلك نؤكد على أنّ الله تعالى لا مجال للتعدد في ذاته من أي جهة، فهو واحد أحد في ذاته، وصفته، بل صفاته، عين ذاته. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]. فأوليته تعالى ليست شيئاً آخر غير آخريته، ولا ظاهريته تختلف عن باطنيته، ولا شيء منها، على مستوى المصداق، يباين الآخر[٣].

أجل، على مستوى التحليل والمفهوم، فإنّ معنى (الأول)، يختلف عن معنى (الآخِر)، وهكذا في سائر الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٦٥. وانظر مبحث أدلّة الوحدانية من كتاب (الإلهيات) وغيره من كتب العقائد.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٣) وفي معاني الأخبار للشيخ الصدوق، باب بعنوان (معنى التوحيد والعدل)، روى المؤلف فيه بسنده عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: التوحيد ظاهره في باطنه، وباطنه في ظاهره. ظاهره موصوف لا يرى، وباطنه موجودٌ لا يخفى. يُطلب بكلّ مكان، ولم يَخل منه مكان طرفة عين، حاضرٌ غير محدود، وغائبٌ غير مفقود ـ انتهى.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

الثالث: التوحيد الأفعالي

المراد بـ(التوحيد الأفعالي) أنّ المؤثّر الأول ومسبب الأسباب هو الله وحده. قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]. فالآيةُ ظاهرةُ الدلالة على أنّ المؤثر في الكون نفعاً وضراً إنما هو الله عزّ اسمه.

ويؤيد ذلك ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، الدالّ على حصر العبادة لله تعالى والاستعانة به، دون أنّ يعني ذلك نفي الأسباب القريبة، بل إنه تعالى أمرنا بذلك فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3]. فالعون في الآية الأولى يُراد به الأصل، وفي الآية الثانية يراد به الأسباب التي بُني الكون على إدارة تفاصيله من خلالها في ظل سنن الله سبحانه فقد: (أبى الله أنّ يجري الأشياء إلا بأسباب)[4].

الرابع: التوحيد في الخالقية

التوحيد في الخالقية يعني: أنّ عملية الخلق، بمعنى الإيجاد من العدم، إنما هي من الله تعالى وحده، فلا خالق غيره، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٤) مقطع من كلام للإمام الصادق عليه السلام، كما رواه الشيخ الكُلَيني في أصول الكافي، كتاب الحجة، باب معرفة الإمام الرد إليه، الحديث: ٧.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.

الخامس: التوحيد في المالكية

في التوحيد في المالكية تأكيدٌ على أنّ الله الخالق هو المالك ولا مالك غيره.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[2].

ويجب أنّ نلتفت إلى أنّ ملكية الله ومالكيته لهذا الكون ليستا من قبيل ملكياتنا الاعتبارية التي تحصل بعد أنّ لم تكن، وتزول بعد أنّ كانت حاصلة. بل إنّ ملكيته ترتبط بطبيعة العلاقة الوجودية بينه وبين ما خلق، حيث يتوقّف وجود المخلوق على الخالق توقفاً تاماً، فالملكية تكوينية وليست اعتبارية تقبل الانتقال من طرف إلى آخر ليكون الأول بائعاً والآخر مشترياً، فسبحان من ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3].

السادس: التوحيد في الربوبية والألوهية

في هذا القسم يتبيَّن لنا أنّ الله الخالق للكون ومالكه هو الذي يتولّى إدارته وتدبيره، وهو معنى (الربوبية)، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[4]. فبعد أنّ كان وحده المستحقَّ لذلك، وبعد أنّ توفّرت فيه

(١) سورة يونس، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

دون من سواه أسبابُهُ، فهو وحده (الإله)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[1].

قال العلّامة الطباطبائي:

(من المعلوم أنّ الملك الحقيقي لا ينفكّ عن التدبير، فإنّ الشيء إذا افتقر في وجوده إلى شيء، فلم يستقلّ عنه في وجوده، لم يستقل عنه في آثار وجوده، فهو تعالى ربٌّ لما سواه؛ لأنّ الرب هو المالك المدبُر وهو تعالى كذلك)[2].

وقال: (فهو تعالى مالك على الإطلاق من غير شرط ولا قيد، وغيره مملوك على الإطلاق من غير شرطٍ ولا قيدٍ)[3].

ونلاحظ على ما تقدم من أقسام لـ(التوحيد ـ أنّ بعضها يرتبط بالذات الإلهية، وبعضها يرتبط بالفعل الإلهي. ولا اختيار للعباد في شيء منها.

غير أنّ هناك أقساماً أخرى يجب على العبد أنّ ينسجم مع الواقع في الإقرار بها والتسليم بمضمونها نظرياً، ويستسلم لها عملياً، وكلّما كان التطبيق أفضل كان المطبِّق أعلى كعباً في الإيمان.

السابع: التوحيد في الحاكمية والتشريع

يترتّب على جميع ما مرَّ من أقسام للتوحيد، التي قدّمنا أنّ لا اختيار للعباد فيها. وثمة أقسامٌ أُخرى، نذكر منها أنّ تكون الحاكمية المطلقة لله، بحيث

---

(١) سورة طه الآية: ٩٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ١ ص ٢١. منشورات جماعة المدرسين، بدون تاريخ. تفسير قوله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

(٣) م ن، ص ٢٥.

لا أمر إلا أمره ولا نهي إلا نهيه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾(١).

قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

الثامن: التوحيد في الطاعة والعبودية

إذا كان الأمر والنهي لله وحده، فـ(التوحيد ـ إنما يتحقق إذا أفردناه تعالى بـ(الطاعة والعبادة)، بفارق أنه يمكن أنّ يأمرنا هو بطاعة فرد أو أفراد معينين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(٣).

ولكن يجب أنّ تتقيّد كلّ طاعة لغير الله بأنّ لا تكون معصية أو سبباً في معصية، فـ(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)(٤). بينما لا يُتصور أنّ يأمرنا بعبادة غيره، لأنّ العبادة إنما تكون لمن يستحقّها ذاتاً، ولا يستحقّها أحدٌ إلا الله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(٥).

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة: ١٦٥.

(٥) سورة يس، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

التاسع: التوحيد في المحبة

في هذا القسم الأخير من الأقسام التي استعرضناها بإيجاز لـ(التوحيد ـ ننتهي إلى قسم له أبلغ الأثر على البعد النفسي للإنسان. وذلك أنّ الجمال المطلق والكمال التامّ إنما هو في الله، فهو وحده المستحق للمحبة، وكلّ مظاهر الجمال والكمال في شيء من مخلوقاته، فهو تجلٍّ من تجليات جماله وكماله.

فلا غرابة، إذاً، أنّ يكون هو المحبوب، لذلك فهو وحده الولي، ولا ينبغي الولاء إلا له، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[٢].

هذه، باختصارٍ شديدٍ، معالم الرؤية القرآنية لـ(التوحيد)، التي قد يتوفّر عليها الموحّد فيكون في أعلى درجات الإيمان، وقد يفتقدها جميعاً فيصبح شركه محضاً، وبين هذا وذاك مراتب تجمع بين التوحيد والشرك. هذا مع ملاحظة أنّ مرتبة واحدة من مراتبه هي التي تضع الموحد في فريق المسلمين، وهي أنّ يعتقد إجمالاً بأنّ الله تعالى هو الربّ وأن محمداً ﷺ هو الرسول تحت شعار ما يعرف بيننا بالنطق بالشهادتين[٣].

(١) سورة الشورى، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٣) تفصيل ذلك مذكور في كتب الاعتقاد والفقه. ولتتميم الفائدة نكتفي بما جاء في الموسوعة الفقهية الميسرة للشيخ محمد علي الأنصاري، ج ٣، ص ٣١٨ ـ ٣٢٠، وهذا نصه: =

وعوداً إلى ما كنّا بصدده من موعظة لقمان الحكيم لولده، فإنه نهاه عن

= ... استعمل [الشرك] بمعنى اتخاذ الشريك لله تعالى حقيقة، وفي أهل الكتاب، وبمعنى الرياء. قال الراغب الأصفهاني:

شرك الإنسان في الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى . . .

والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق . . .).

وقال أيضاً: وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعاً، لقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقيل: هم من عدا أهل الكتاب، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧]، أفرد المشركين عن اليهود والنصارى) انتهى.

وينحصر البحث هنا بالإشراك بهذه المعاني:

أولاً: الإشراك بمعنى اتخاذ الشريك لله تعالى:

اتخاذ الشريك لله تعالى يتصور على أنحاء مختلفة نشير إليها في ما يأتي:

١ ـ الشرك في الذات: بمعنى أنّ يعتقد بوجود إلهين ـ أو أكثر ـ مستقلين في التأثير، أو مشتركين فيه، بحيث يُنسب الخلق والإحياء والإماتة والرزق إليهما. وهذا أظهر مصاديق الشرك.

٢ ـ الشرك في العبادة: بمعنى أنّ يقال بتعدد المعبود، سواء قيل بتعدد الذات، أو لا، كأن يعبد الله تعالى والشمس أو القمر أو الأوثان، أو يعبد هذه للتقرب إليه تعالى، كما حكاه عن عبدة الأوثان من مشركي العرب، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

٣ ـ الإشراك في الخالقية: وهو أنّ يعتقد باستناد الخلق والإيجاد إلى غير الله تعالى بأنّ يسنده إليه تعالى وإلى غيره من مخلوقاته، كما يعتقده الغلاة والمفوضة، أو إلى إلهين أو أكثر كما يعتقده الثنوية، وهم « المجوس » حيث ينسبون أفعال الخير إلى إله النور، وهو « يزدان »، وأفعال الشر إلى إله الظلمة، وهو «أهرمن».

٤ ـ الشرك في الطاعة: وهو أنّ يجعل طاعة غير الله في حدّ طاعة الله وفي عرضها، لا في طولها، وذلك مثل ما حكاه تعالى عن أهل الكتاب، فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فإنه قد ورد [في الخبر عن آل البيت عليهم السلام]: ألا إنهم لم يصوموا لهم ولم يصلوا، ولكنهم أمروهم ونهوهم فأطاعوهم، وقد حرموا عليهم حلالاً، وأحلوا لهم حراماً، فعبدوهم من حيث لا يعلمون، فهذا شرك الأعمال والطاعات).

وهناك أنواع ومراتب أخرى للشرك، مثل الشرك في الصفات، وهو أنّ يعتقد أنّ صفات الله غير ذاته،=

مخالفة التوحيد والوقوع في الشرك بقوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾. وهو نهي شامل لجميع أنواع الشرك. بمعنى أنه يرشده إلى ضرورة التوحيد على مستوى العقل والروح والجوارح والجوانح.

فلا تجعل ـ أيها الإنسان ـ لله تعالى شريكاً تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، لأنّ أحداً لا يملك هذا الحقّ إلا الخالق سبحانه، فهو المالك وهو الرب، وهو العالم بالمصلحة . . .

ولم يكتفِ لقمان الحكيم بالنهي بل إنه حرّك في ابنه حساً لا يفتقده سويٌّ من الناس، وهو أنَّ سلبَ ذوي الحقوق حقوقَهم عدوانٌ لا يُعذر فيه أحدٌ، وهو تصرّفٌ قبيحٌ. ولما كان التوحيد حقاً لله تعالى فإنّ اعتقاد الشرك، بمختلف مستوياته، يعتبر تعدّياً عليه سبحانه وهو ظلمٌ. بل إنه إمعانٌ في الظلم لأنّ وضوح الحقّ الإلهي في ما تقدّم من أقسام للتوحيد ليس شيئاً يخفى على ذي لبٍّ.

أجل، إنما يقع الإنسان في الظلم بسبب قبائح يسلِّم بها، أو فواحش يرتكبها، أو رذائل لم يتخلّ عنها. ومن هنا ألحقه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ

= والشرك في التشريع، بأنّ يكون الأمر والنهي في التشريع بيده وبيد غيره، والشرك في العمل، بأنّ يعمل لله ولغيره، والشرك في الولاء والمحبة، بأنّ يتولى الله ويتولى أعداءه، ونحوها مما ذكروه في علمي الكلام والأخلاق.

لكن القدر المتيقن منها الذي تترتب عليه الآثار الفقهية كالنجاسة وحرمة النكاح ونحوهما، هو الشرك في الذات والعبادة، والخالقية، وما سواها من مكمِّلات الإيمان.

ثانياً: إطلاق الإشراك على ما يعتقده أهل الكتاب:

اختلف الفقهاء في إطلاق عنوان «المشرك» على أهل الكتاب، فذهب جملة منهم ـ وخاصة المتقدمين ـ إلى صحة الإطلاق، وبناء على هذا الرأي تشمل النصوص المتضمنة لعنوان «المشرك» أهل الكتاب أيضاً، لكنّ استشكل جماعة أخرى في صحة هذا الإطلاق) انتهى.

عَظِيمٌ ﴾. في صيغة تضمّنت تأكيداتٍ أربعة[١]:

أولاً: حرف التوكيد (إن).

ثانياً: إسمية الجملة.

ثالثاً: لام التوكيد في الخبر.

رابعاً: وصف الظلم بالعظم.

الآلهة المزعومة:

في الكينونة الإنسانية أبعاد ثلاثة، هي:

العقل، الروح، الجسد

ولكلّ بعدٍ منها دورٌ في وقوع الإنسان في الشرك، الذي بدوره يتشكل في صور ومستويات:

أولاً: شرك على مستوى الاعتقاد

وندرك أبعاد هذا الشرك، ونتمكّن من التخلّص منه، بتعميق المعرفة الدينية بالتفقه والتعمق في فهم الرؤية الإسلامية على وجهها الصحيح.

وبالطبع، فقد تكون بعض وجوه الشرك هنا غير مخرِجة من الملة إلا لمن عرف حقيقتها[٢].

---

(١) بعد أنّ كتبت هذا وجدت في بعض التفاسير أنّ هناك من قرأ الآية بالوقف على ﴿لَا تُشْرِكْ ﴾. ثمّ الشروع بالقسم على عظم الظلم هكذا ﴿بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، ليكون القسم على ما بعدها لا على ما قبلها. وعليه، فالتأكيدات تصبح خمسة.

(٢) ومثالاً على ذلك اعتقاد أنّ صفات الله قديمة، حيث إنّ ذلك في نظر فريق من المسلمين وقوع في القول بتعدد القدماء. لكنه لا يقول بشرك من يذهب هذا المذهب لما قيل من أنّ لازم المذهب ليس بمذهب.

ثانياً: شرك على مستوى الروح

وهذا الشرك ندرك أبعاده ونتخلّص من آثاره بتعميق المحبّة لله تعالى، بعد إدراك غناه وقدرته واستحقاقه وحده أنّ يكون إلهاً يُعبد. والقرآن ينصّ هنا على أنّ هذا النمط من الشرك شائع فقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1].

ثالثاً: شرك على مستوى الممارسة

وهذا الشرك ندرك أبعاده ونتخلص من آثاره بفهم الأحكام الشرعية التي تناولها الفقهاء، مما يجب أنّ يختص به الله تعالى، ومما يحرم علينا أنّ نقع في شيء منه، لأنه يعبّر عن مظهر عبادي خاصّ.

ونتخلص بكلّ ذلك من تنوع الآلهة التي تعبد من دون الله، بين ما يسمى (إله) بحقٍّ، وبين ما تُنتحل له هذه الصفة زوراً وبهتاناً مهما سُمّي بذلك.

فمثلاً: قد يقع الإنسان في الشرك على مستوى العقل والروح والجسد، فيعتقد بألوهية وربوبية غير الله، كالشمس أو القمر، أو النار، أو الأصنام والأوثان ونحوها، فيقدّم لها رسوم العبادة وطقوسها، وهذا شرك أكبر.

وقد يقع في الشرك وذلك إذا اعتقد بعقله وقلبه أنّ غير الله ربٌّ يستحق العبادة، وهذا شرك مُخرج من الدين وإن لم يعبده عملياً.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

بين منهج القرآن والبرهان

نلحظ في عظة لقمان لابنه أنه لم يدخل في جدل فلسفي طويل لإثبات التوحيد لله تعالى، بل إنه اعتمد الحسّ الوجداني والأخلاقي والفطري للتسليم بمبدأ التوحيد، بحس الفطرة، وللالتزام بلوازمه بكلٍّ من الحسّ الوجداني والحسّ الأخلاقي.

وفي هذا المنهج التربوي الرائع درسٌ لنا في الاستفادة من المناهج القريبة من الفهم على مستوى العقل، والمحببة على مستوى الروح، وأن لا نغرق في التفاصيل الفلسفية، التي قد تنفع الصفوة من الناس، لكنها بغير شكّ تحرم الجمهور الأكثر عدداً من فوائد البحث والمعرفة.

أجل، لسنا من دعاة النبذ للبحث الفلسفي، لأنّ له دوراً جليلاً وأساسيا لا يمكن التنكر له، ولكنه بغير شكّ يأتي في مرتبة متأخرة عن المنهج الذي ألمحناه.

଼

القاعدة الثالثة

الوَفاءُ للوَالِدَيْن

(الآية ١٤)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

تدور الحكمة حول وضع الأشياء موضعها الصحيح، ومن ذلك إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم. وما من شكّ أنّ الناس يتفاوتون من هذه الزاوية. كما لا شكّ أنّ للوالدين أعظم الحقوق على الإنسان من غيرهما.

في هذا السياق تأتي هذه الآية، حيث تستعرض قاعدةً من قواعد الحكمة، ومفادها ـ باختصار ـ أنّ الله تعالى، والآية من كلامه عزّ اسمه وليست من كلام لقمان، حضَّ الإنسان على أنّ يراعي أبويه؛ مكافأةً على بعض جهودهما التي بذلاها في إنجابه وتربيته. وأن حقّهما عليه يقتضي شكرهما بعد شكر الله تعالى، محذراً من التقصير في ذلك بأنّ المصير إلى الله، حيث السؤال، فالثواب على العمل الحسن، أو العقاب على العمل القبيح. وهنا مسائل:

المسألة الأولى: الوالدان مظهر نعمة الله

تنطلق الآية المباركة، من خلال قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾، إلى الحديث عن حكم التعامل مع نعم الله، من خلال الحديث عن نعمة

الأبوين، الذين هما قناة الفيض الإلهي على الإنسان حيث ولد منهما، وتولّيا تربيته، وحرصا بشدّة على دفع السوء والبلاء عنه...

وهنا مفردات ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾

مفردة ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ مشتقة من (وصى) بمعنى: التقدم إلى الغير بما يَعمل به مقترناً بوعظٍ)[١]. وهو: أصل يدلّ على وصل شيء بشيء)[٢]. فالمراد بها إحداث الصلة بين الموصَى وشيء يراد له أنّ لا ينقطع عنه، وهو هنا فطرته التي خلقه الله عليها، والتي من لوازمها الأكيدة اعتماد الحسّ الأخلاقي. ومن شأن ذلك أنّ تراعى حقوق الأبوة والأمومة.

ولعلّ اختيار تعبير ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ بضمير الجمع للتنبيه إلى أنّ الوصية بالوالدين على درجة عالية من الأهمية في الميزان الشرعي. وهذا ما تفيده النصوص الكثيرة.

من حقوق الأبوين في النصوص الشرعية

من المناسب جداً أ ن نلقي الضوء، بإيجاز شديد، على ما للأبوين من حقوق عظيمة، مما ينبغي للإنسان أنّ يتعرف عليها خشية الوقوع في ما يضادُّها إنّ هو جهلها.

أولاً: حقوق الأبوين في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ

(١) مفردات ألفاظ غريب القرآن، مادة (وصى).

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة (وصى).

بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[3].

ومن أجمع الآيات في التعريف بحقوق الوالدين، قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[4].

ثانياً: حقوق الأبوين في السنّة المطهّرة

ما رواه الشيخ الكُلَيني بسنده عن أبي ولاد الحناط، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[5] ما هذا الإحسان؟ فقال: الإحسان أنّ تحسن صحبتهما، وأن لا تكلفهما أنّ يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه؛ وإن كانا مستغنيين. أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَن

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٣، وسورة النساء، الآية: ٢٦، وسورة الأنعام، الآية: ١٥١.

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١]. قال: ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام وأمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، قال: إنّ أضجراك فلا تقل لهما: ﴿أُفٍّ﴾، ولا تنهرهما إنّ ضرباك، قال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، قال: إنّ ضرباك فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قولٌ كريمٌ، قال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمةٍ ورقّةٍ، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدم قدامهما)[٢].

ما رواه بسنده عن محمد بن مروان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله! أوصني. فقال: **«لا تشرك بالله شيئاً وإن حرّقتَ بالنار وعذّبتَ إلا وقلبك مطمئنّ بالإيمان، ووالديك فأطعهما وبرّهما، حيّين كانا أو ميتين، وإن أمراك أنّ تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإنّ ذلك من الإيمان»**[٣].

ما رواه بسنده أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: **«يأتي يوم القيامة شيءٌ مثل الكبة[٤]، فيدفع في ظهر المؤمن فيدخله الجنة، فيقال: هذا البِرّ»**[٥].

ما رواه أيضاً بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت: أي الأعمال أفضل؟ قال: **«الصلاة لوقتها، وبِرُّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله عزّ وجل»**[٦].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) أصول الكافي، كتاب العشرة، باب البر بالوالدين، الحديث ١.

(٣) م ن، الحديث ٢.

(٤) هي ـ كما قيل ـ: الدفعة في الظهر، والحرب في القتال.

(٥) م ن، الحديث ٣.

(٦) أصول الكافي، كتاب العشرة، باب البِرّ بالوالدين، الحديث ٤.

في خبر معتبر روى الشيخ الكُلَيني بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله من أبرُّ؟ قال: «**أمَّك**. قال: ثمّ من؟ قال: **أمك**. قال: ثمّ من؟ قال: **أمك**. قال: ثمّ من؟ قال: **أباك**»[1].

في خبر ذي دلالة خاصّة روى الشيخ الكُلَيني بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله! إني راغب في الجهاد، نشيط[2]. قال: فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «**فجاهد في سبيل الله، فإنك إنّ تقتل تكن حياً عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعتَ رجعتَ من الذنوب كما وُلِدت**». قال: يا رسول الله إنّ لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي، ويكرهان خروجي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: »«**فقِرَّ مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأُنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة**»[3].

بسنده عن حنان بن سدير، عن أبيه، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: هل يجزي الولد والده؟ فقال: «**ليس له جزاء إلا في خصلتين: يكون الوالد مملوكاً فيشتريه ابنه فيعتقه، أو يكون عليه دينٌ فيقضيه عنه**»[4].

في خبر آخر يبيّن ضرورة البر بالوالدين والدوام عليه حتى ما بعد وفاتهما، وينبه إلى انقلاب الصورة سلباً وإيجاباً. وذلك ما رواه الكُلَيني بسنده عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إن العبد ليكون**

---

(١) م ن، الحديث ٩.

(٢) أي سريع.

(٣) م ن، الحديث ١٠.

(٤) م ن، الحديث ١٩.

بَراً بوالديه في حياتهما ثمّ يموتان، فلا يَقضِي عنهما ديونهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عاقاً، وإنه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بارٍّ بهما، فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله عزّ وجلّ باراً»[1].

ثالثاً: حقوق الأبوين في الفقه الإسلامي

من هذه الآيات والروايات استنبط الفقهاءُ سلسلةً من الأحكام الإلزامية والمندوبة لرعاية حقوق الأبوين، ولتكريس ثقافة الحس الأخلاقي في نفوس الناس.

ولا بأس بالتعرّف على تلكم الحقوق إجمالاً، بإيراد ما ذكره الشهيد الأول ﷺ في قاعدة من قواعده التي أوردها بهذا الخصوص[2]:

قاعدة تتعلّق بحقوق الوالدين..

لا ريب أنّ كلّ ما يُحرّم أو يجب للأجانب، يُحرّم أو يجب للأبوين، وينفردان بأمور:

الأول: تحريم السفر المباح بغير إذنهما، وكذا السفر المندوب. وقيل: بجواز سفر التجارة وطلب العلم، إذا لم يمكن استيفاء التجارة والعلم في بلدهما، كما ذكرناه في ما مرّ.

الثاني: قال بعضهم: يجب عليه طاعتهما في كلّ فعل وإن كان شبهة، فلو أمراه بالأكل معهما من مال يعتقد شبهته أكل، لأنّ طاعتهما واجبة، وترك

---

(1) م ن، الحديث 21.

(2) القواعد والفوائد، الشهيد الأول، ج 2 ص 46 ـ 48. وقد حذفنا التخريجات للأقوال والنصوص اختصاراً.

الشبهة مستحبٌّ.

الثالث: لو دعواه إلى فعلٍ، وقد حضرت الصلاة، فليؤخر الصلاة وليطعهما، لما قلناه.

الرابع: هل لهما منعه من الصلاة جماعة؟ الأقرب أنه ليس لهما منعه مطلقاً، بل في بعض الأحيان بما يشق عليهما مخالفته، كالسعي في ظلمة الليل إلى العشاء والصبح.

الخامس: لهما منعه من الجهاد مع عدم التعيين ، لما صحّ: أنّ رجلاً قال يا رسول الله: أبايعك على الهجرة والجهاد. فقال: هل من والديك أحدٌ حيٌّ؟ قال: نعم ، كلاهما. قال: أفتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم . قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما.

السادس: الأقرب أنّ لهما منعه من فرض الكفاية، إذا علم قيام الغير أو ظنّ، لأنه يكون حينئذ كالجهاد الممنوع منه.

السابع: قال بعض العلماء: لو دعواه في صلاة النافلة قطعها، لما صح عن رسول الله ﷺ: أنّ امرأة نادت ابنها ، وهو في صومعته ، فقالت: يا جريج[1]. فقال: اللهمّ أمي وصلاتي. فقالت: يا جريج. فقال: اللهمّ أمي وصلاتي. فقالت: لا تموت حتى تنظر في وجوه المومسات . . . .) الحديث . وفي بعض الروايات: أنه ﷺ قال: «**لو كان جريج فقيهاً لعلم أنّ إجابة أمه أفضل من صلاته**». وهذا الحديث يدلّ على قطع النافلة لأجلها. ويدل بطريق الأولى على تحريم السفر، لأنّ غيبة الوجه فيه أكثر وأعظم، وهي كانت تريد منه النظر

(١) وفي لفظ (جريح).

إليها والإقبال عليها.

الثامن: كف الأذى عنهما، وإن كان قليلاً، بحيث لا يوصله الولد إليهما. ويمنع غيره من إيصاله بحسب طاقته.

التاسع: ترك الصوم ندباً إلا بإذن الأب. ولم أقف على نَصٍّ في الأم[1].

العاشر: ترك اليمين والعهد إلا بإذنه أيضاً، ما لم يكن في فعل واجبٍ، أو ترك محرّمٍ. ولم أقف في النذر على نصٍّ خاصٍّ. إلا أنّ يقال: (هو يمينٌ، يدخل في النهي عن اليمين إلا بإذنه) انتهى.

وعلى كلّ حالٍ، فهذه الوصية الصادرة عن الله تعالى، والمشار إليها في الآية مورد البحث، بقوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ قد تأخذ شكلين:

الأول: الحسّ الأخلاقي الفطري. وهو الذي يشعر به، بالعقل والوجدان، كلُّ ولد تجاه والديه، إلا من شذّت به ضلالاته وسوء مسلكه حتى اعوجت فطرته. وهذا ما يؤكّد على محورية الأخلاق الفطرية في حركة الإنسان، وعلى ضرورة الحرص على تنميتها وترسيخها.

الثاني: الوازع الديني. وهو الذي رسخه الأنبياء في أممهم بالأمر والنهي.

والشكلان معاً يؤكدان أنّ الله تعالى لطف بعباده لطفاً لا حدّ له، فله الشكر أولاً وآخراً.

المفردة الثانية: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾

في هذه المفردة نقف أمام تعبير يشي بأنّ هذه الوصية الإلهية بالوالدين

---

(١) قال محقق الكتاب إنّ ثمة نصوصاً يستفاد منها شرطية إذنها.

لم يُستثن منها أحدٌ، فالناس جميعاً، وعلى اختلاف أديانهم ومذاهبهم، غرز فيهم ذلك وفُطروا عليه، كما أنهم جميعاً مُخاطَبون بهذه الوصية.

وفي ذلك دلالةٌ على أنّ الدين خطاب ربّاني للناس أجمعين.

وقد يقال إنّ اختيار كلمة (الإنسان) يشير إلى ترتب عنوان الإنسانية على مراعاة هذه الحقوق، فمن لم يلتزمها فقد خرج عن ربقتها. وكلّما زاد مراعاة الإنسان لهذه الحقوق، كلّما ارتفع منسوب الإنسانية فيه.

المفردة الثالثة: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾

في هذه المفردة أُشير إلى أنّ كلاًّ من الأب والأمّ له تلك الحقوق، فليس للولد أنّ يفي بحق أبيه على حساب أمه، ولا أنّ يفي بحقوق أمه على حساب حقوق أبيه.

كما أنّ مما يستفاد من التعبير أنّ الوالدين مطلقاً لهما حقوق يجب مراعاتها، بلا فرق بين أنّ يكونا مسلمين أو غير مسلمين، مؤمنين أو غير مؤمنين، وإن كان حقّ الأبوين يتأكد ويتضاعف إذا كانا مسلمَين فضلاً عمّا لو كانا مؤمِنين. وقد مرَّ في الآيات والروايات التي أوردناها سابقاً ما يصرّح بذلك.

وقد تتساءل قائلاً: ما ربط الحكمة برعاية حقوق الأبوين؟

الجواب: لقد قدّمنا أنّ الحكمة هي حسن التصرف ووضع كلّ شيء في موضعه. ومن مصاديق ذلك إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، ولا شكّ أنّ للأبوين من الحقوق ما يفوق ما لغيرهم، ولا يعقل أنّ يُصنّف ضمن أهل الحكمة مَن يقصّر في حقوق والديه وإن كانا غير مسلمين.

المسألة الثانية: أعباء الأمومة

اللافت في تعبير الآية الكريمة أنها أولت الأم عناية خاصّة من خلال النصّ على معاناة الأم في حمل ولدها وإرضاعه، وهما الفترتان الأشد حساسية في عمر الإنسان، ليس على مستوى الرشد الفكري والعاطفي فحسب، بل على مستوى الحياة المادية التي لولاها لما كان للحديث عن الحياة المعنوية معنى.

وقد نصّ سبحانه على الأمرين بقوله:

١ ـ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾

لم يغفل النصُّ الإشارةَ إلى الوهن، أي الضعف، الذي تُبتَلَى به الأم أثناء الحمل، مما نعرفه جميعاً. ولكنّ شيئاً من ذلك على صعوبته لم يمنع الأم من الإقدام على الحمل حباً بالولد. أفلا يكون ذلك جديراً بالعرفان والامتنان؟! فـ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[1].

٢ ـ ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾

المراد بـ(الفصال) فترة الرضاع التي تمتد عادة إلى سنتين. وما تقوم به الأم فيها ليس الرضاع فحسب، بل هو الرعاية الشاملة التي تكون دائماً على حساب صحّة الأم الجسدية وراحتها النفسية. وهي في كلّ هذه المدة الممتدة تقدم حاجة وليدها على حاجاتها. ومن هنا فلا عجب أنّ نقرأ ما قرأناه من التقديم في رعاية حقوق الأم أشدّ من مراعاتنا لحق الأب، دون أنّ يعني ذلك التقصير في حقوق الأخير، وإلا كنّا عصاة نستحقّ العقاب من الله تعالى.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

المسألة الثالثة: مسؤولية الولد تجاه الوالدين

في هذه المسألة تنتقل الآية الكريمة إلى تحديد المنهج المطلوب من الولد في حسن تعامله مع الوالدين، بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾. ويلفت النظر في هذا التعبير الجمعُ والقرنُ بين الشكر لله تعالى والشكر للوالدين، الأمر الذي يعني تعظيم جهود الأبوين حتى قرن بما يوجب الشكر لله الذي تؤكّد الآيات والبينات أنّ كلّ نعمة منه تعالى.

والمطلوب بصيغة الأمر هذه أنّ يكون الولد شاكراً لأبويه بالقول والفعل والقلب. ومن لم يفعل فسيكون ممن كفر بنعمة الله. وقد عقد المحدّث الحرّ العاملي في كتابه (وسائل الشيعة) باباً وضع له عنوان (تحريم كفر المعروف من الله كان أو من الناس)، ضمّنه ما يدلّ على ذلك.

كالذي رواه الكُلَيني في كتابه القيّم الكافي بسنده إلى عمّار الذهبي، قال: سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول: «**إن الله يحب كلّ قلبٍ حزينٍ، ويحب كلَّ عبدٍ شكورٍ. يقول الله تبارك وتعالى لعبدٍ من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا رب! فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكره؟ ثمّ قال: أَشكَرُكم لله أشكَرُكم للناس**»[1].

وتشير بعض النصوص إلى ضرورة أنّ يكون مكافاة المعروف ـ وهو نحوٌ من أنحاء الشكر ـ بالفعل في الدرجة الأولى، فإنّ لم يتأتّ فلا أقلّ من القول.

فقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أتى إليه معروفٌ فليكافِ به، فإنّ عجز فليُثنِ عليه، فإنّ لم يفعل فقد كفر**

(١) وسائل الشيعة، أبواب المعروف، باب تحريم كفر المعروف من الله كان أو من الناس، الحديث ٣.

النعمة»[١].

وفي نصّ ثالث ربط شكر الناس بشكر الله على أساس أنه جزء منه، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**من حقّ الشكر لله أنّ تشكر من أجرى تلك النعمةَ على يده**»[٢].

وفي نصّ رابع رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ مما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[٣].

على أي حال فإذا كان الموقف الأخلاقي المأمور به إسلامياً هو مكافأة المحسن أياً كان، فكيف بالأبوين اللذين لا يدانيهما أحدٌ من عامة الناس بالنسبة إلى الولد.

ونلفت النظر إلى أنّ هذا المقطع من الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وقوله تعالى سابقاً ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾، يؤكّدان معاً على المسؤولية التربوية والالتزام الأدبي المتبادل بين الآباء والأبناء[٤].

تنبيه وتذييل: الأبوّة المعنوية

لما كانت الأبوة تعني: كلّ من كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو (ظهوره)[٥]، فإنّ معنى (الأبوة) يتسع ليشمل (الأب السببي)، إلى جانب (الأب النسبي)؛ كالمعلم والمربي. وكلّما كان أثر المربّي على من تولّى تربيته أكبر كانت أبوته أعظم.

---

(١) م ن، الحديث ٢.

(٢) م ن، الحديث ٩.

(٣) م ن، الحديث ١٤.

(٤) نبّه إلى ذلك مؤلفو كتب (تفسير راهنما)، بالفارسية، ج ١٤، ص ٢٩٨.

(٥) مفردات ألفاظ غريب القرآن، مادة (أب).

ومن هنا جاء في بعض الأحاديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال مخاطباً علياً عليه السلام: «**أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»[1]. وما من شكّ أنّ أبوتهما عليهما السلام لغير أبنائهما الصلبيين، أبوة معنوية وليست سببيةً. ففي خصوص النبي صلى الله عليه وآله جاء قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[2].

ولكنّ ذلك لا يمنع من ترتّب أحكام العقوق على عصيانهما، تماماً كما هو الحكم في الأب النسبي. خصوصاً مع ملاحظة ما جاء في الكتاب الكريم من قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[3]. حيث إنّ مفادها هو أنّ حقوق الرسول صلى الله عليه وآله على الإنسان مقدَّمة على حقوق الإنسان نفسه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[4]. ومفادها حرمة إيذاء النبي صلى الله عليه وآله. وإذا تبيَّن لنا أنّ علياً عليه السلام هو نفس النبي، كما يفيده قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[5]، فإنّ له عليه السلام من الحقوق ما لرسول الله صلى الله عليه وآله، باستثناء ما قام الدليل على استثنائه؛ كالوحي والنبوة والزواج بأزيد من أربع

---

(١) معاني الأخبار، الباب ١٠٦، الحديث ٢، وباب معاني أسماء النبي صلى الله عليه وآله، الحديث ٣. ومفردات ألفاظ غريب القرآن، مادة (أب). وفي كتاب الغارات لإبراهيم الثقفي، ص ٧١٦، وص ٧٤٥. وقد روى المحدّث السيد هاشم البحراني في الأبواب الثامن والأربعين حتى الواحد والخمسين من كتابه غاية المرام، (في الصفحات ٢٩٤ ـ ٣٠٤ من الجزء ٥)، ثلاثة وعشرين حديثاً من مصادر الشيعة والسنة، فليراجع.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

ووجوب قيام الليل ونحو ذلك[١].

المسألة الرابعة: عواقب الأعمال

﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾

في هذه المسألة تُحذّر الآية الكريمة، بقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، من التهاون والتقصير في رعاية حقوق الوالدين، وأن الله تعالى سيصيِّر الناس إليه أولاً، وسيحاسبهم على ممارساتهم القولية والفعلية ثانياً، ليثيبهم على إحسانهم ويعاقبهم على إساءتهم، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٢].

وقد أشارت الآية إلى أنّ هذه المساءلة ستقع في يوم القيامة فـ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۞ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[٣].

وإذا كان الأمر كذلك فعلى كلٍّ منا، إذا أردنا أنّ نكون من أهل الحكمة، التفكيرُ في عواقب أفعالنا وأقوالنا، وبخاصة في ما يتعلّق بمن حقُّه علينا عظيمٌ كالأبوين، وعلينا أيضاً أنّ نكون من المحسنين لأنّ الله ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٤]، والإحسان يفتح باب الاهتداء بالقرآن الكريم، فهو ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٥]، الذي هو بدوره طريق الوصول إلى الحكمة[٦].

---

(١) انظر: كتاب تحرير الأحكام للعلامة الحلي (الفصل الثاني من كتاب النكاح)، وكتابه الآخر تذكرة الفقهاء (كتاب النكاح أيضاً)، وغيرهما من الكتب التي تعرضت للمسألة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الزلزلة، الآيات: ٥ ـ ٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٣.

(٦) انظر ما كتبناه في أوائل الكتاب تفسيراً للآية الثالثة.

(الآية ١٥)

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

تتميماً للمطالب جاءت هذه الآية الكريمة لتجلِّي لنا الموقفَ من بعض المواقف السيئة التي يقع فيها بعض الأَبوان، حين ينحازان إلى الباطل على حساب الحق، ويمارسان ضغوطهما على أبنائهما ليتبنوا ما تبنيّاه من باطل. وجاءت الآية لتؤكد على أنّ ما يقع فيه الآخرون من سوء ليس سبباً لسلب ما لهم من حقوق، فالإساءة يُتعامل معها في إطارها، والإحسان مطلوب في إطاره.

وقد تناولت الآية الكريمة مسائل عدة:

المسألة الأولى: المنافحة عن الباطل والدعوة له

تشير الآية إلى أنّ الأبوين قد يكون لهما خيارٌ فكريٌّ يضادُّ تماماً ما عليه الابن من الإسلام والإيمان، وقد لا يكتفيان بالاختيار، بل يتجاوزان ذلك إلى المنافحة عن سوء اختيارهما البالغ إلى مستوى الشرك بالله تعالى، بل الدعوة إليه بإلحاح وإصرار ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى ﴾. فهما يجاهدان أي يبذلان جهوداً مضاعفةً بالقول أو الفعل، أو كليهما معاً، لأنّ التعبير مطلق لم يقيَّد بشيء. وهما يبذلان ذلك حرصاً منهما على أنّ يختار ابنهما ما اختاراه.

المسألة الثانية: الإسلام وثقافة العلم

تؤكد الرؤية القرآنية على أنّ (العلم) يجب أنّ يكون مدار الحركة الإنسانية، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[١]، لتضيف أنّ اختيار غير طريق العلم يعرِّض الإنسان إلى المساءلة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢].

في هذا السياق جاءت الآية مورد البحث لتوجه المسلم إلى أنّ رفضك ـ يا من تسعى إلى الحكمة ـ لما ترفض يجب أنّ يكون لأنك بنيت موقفك مسبقاً على أساس العلم، فإنّ دعاك أبواك، وبالغا في دعوتك للوقوع في الشرك، فليس لك أنّ تستجيب لهما تحت ضغط الانتماء العاطفي لهما، فهما وإن كانا أبويك، ولهما حقٌّ عظيمٌ عليك، فإنّ الحق: ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾[٣].

فالشرك الذي يدعوانك له باطلٌ، وهو أبرز مصداق لـ: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾. ومن ثمّ فإنّ المنطق القرآني، وهو الموضوعية في أعلى مراتبها ينصُّ على مبدأ هو ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

والتشدّد هنا وجيهٌ، وهو مقتضى الحكمة، وينسجم تماماً مع حقانية الحقّ وموضوعية الواقع، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) م ن.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الكافرون.

وقد تسأل وتقول: لماذا لم ينهَ الله تعالى عن قبول دعوة الداعين إلى الشرك مطلقاً، وإن كان هو الأبوين نفسِهما مع كلّ ما لهما من المكانة والمنزلة في نفس ابنهما، دون تقييد الرفض بقوله ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾. لأنّ الشرك باطلٌ في نفسه، عَلِمَ العبد به أو لم يعلم.

الجواب: لعلّ ذلك من باب تعليم الإنسان أنّ يبني مواقفه على أساس العلم، فحتى الشرك الذي يُعدّ واضح البطلان في نفسه، فإننا نرفضه باعتباره لم يقم عليه الدليل؛ دون أنّ يعني ذلك أنّ الشرك يمكن إقامة البرهان عليه، فإنّ أقيم فليست الآية متعرّضةً له، وهي في هذه الصياغة على غرار قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

المسألة الثالثة: الصلابة على الحقّ في ظلّ الأخلاقية

مع أنّ من قواعد الفكر الإسلامي، ومن مقتضيات الحكمة أيضاً، الإصرارَ على الحقّ والالتزام بمضمونه، فلا يجوز أنّ يكون ذلك بوسائل باطلة، ولا بالعدوان على الآخرين بسلب ما لهم من الحقوق.

ومن هذا المنطلق فإنّ الآية مورد البحث، لما افترضت أنّ للأبوين حقوقاً فطرية وأخلاقية وشرعية في عنق الابن، فإنها أكدت على أنّ خروجهما عن مقتضيات الحق، بالدعوة إلى الشرك، لا يسوِّغ التعامل مع العدوان الصادر عنهما بعدوانية مماثلة. بل إنها أمرت باعتماد القيم الأخلاقية في التعامل معهما، فقال تعالى فيها: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية:١١٧.

والنص بصياغته هذه يعالج أموراً أربعةً:

الأول: المصاحبة. وهذا يعني أنّ مفارقتهما ليست واردةً في الرؤية القرآنية، لأنّ القطيعة ليست هي الموقف المفضّل، وإنما يُلجأ إليها في موارد محدودة ليس منها العلاقة بالأبوين.

الثاني: أنّ يكون إطار هذه المصاحبة، التي هي العيش معهما، أو التردد اليهما بالزيارة والصلة، أنّ يكون محكوماً بـ(المعروف). وهو عنوانٌ عريضٌ يشمل القول والفعل المباشرين وغير المباشرين. فليس للابن (الذكر والأنثى سواء بسواء) أنّ يسيء إلى أبويه أو إلى أحدهما، وإلا فإنّ المصاحبة ستخرج عن إطار المعروف، ولن تكون مصداقاً للأمر الإلهي. وفي ذلك تعريضٌ لمن صاحبهما كذلك للعقوبة.

الثالث: تطمين الابن، الذي يفترض أنه من المؤمنين، بأنّ مصاحبته هذه لأبويه المشركّين والداعيَين إلى الشرك، لن تجره إلى مصيرهما، فهذه المصاحبة تقف عند حدود الدنيا لا أكثر.

وفي ذلك تشجيعٌ وتحفيزٌ للابن على على أنّ يحسن صحبتهما، فالفترة المطلوب منه أنّ يلتزم فيها بذلك قليلة مهما امتدت.

الرابع: أنّ الآية أجملت في بيانها طريقةَ التعامل بالمعروف معهما، فقالت ﴿مَعۡرُوفٗا﴾، بما يفيد المرونة في أشكال التعبير عن الاحترام للأبوين، حسب المناطق والأعراف والأزمنة.

ونستفيد من مجموع ما قلناه هنا كم هي محورية مسألة الالتزام بالقيم الأخلاقية، حتى في أحلك الظروف، لأنّ الإسلام بصدد بناء الإنسان المحكوم بالقيم في سلمه وفي حربه، ومع الأعداء كما هو الحال مع الأولياء.

المسألة الرابعة: الانتظام في ركب الصالحين

نلمس في موارد عديدة من القرآن الكريم التأكيدَ على الربط بين المخاطَب ومن تقدمه من صالحين وتائبين. وهو كشف لحقيقة أنّ الحقّ يظل حقاً سواء كان قديماً أو حديثاً، والحديث (الجديد) ليس بالضرورة يكون حقاً. وفي ذلك تنبيه للإنسان إلى أنّ يكون طالباً للحقّ فحسب، بلا قيدٍ ولا شرطٍ.

ولعلّ هذا الأمر هو الذي جاء في سياقه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾. ومعناه أنّ الله تعالى لم يأمر بما أمر إلا باعتبار أنّ هذا الأمر هو الذي سلكه أهل الحكمة؛ ممن أفلح بالسير على طريق الرجوع إلى الله من خلال التوبة له والإنابة إليه، بما يستبطنه ذلك من الإشارة إلى أنّ سوء العلاقة بالأبوين، وإن كانا مشركين، هو معصيةٌ، أو مبغوضٌ على الأقل، بحيث يشكِّل السير فيه سيراً في اتجاه آخر لا يؤدّي بصاحبه إلى الله تعالى. فإنّ كان الوالدان ممن أناب إلى الله تعالى فليكن سبيلك سبيلَهما، وإلا فلا ولا كرامة.

ونلفت النظر إلى أنّ هذا المقطع هو جملة معترضة من كلام الله تعالى بدليل قوله عزّ اسمه ﴿إِلَيَّ﴾، ولو كانت من كلام لقمان لوجب أنّ يقال: (إليه). وهكذا القول في الجملة التالية: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

المسألة الخامسة: استشعار الرقابة الإلهية وسيلة تربوية

ثمة إصرارٌ في الرؤية القرآنية على أنّ صلاح الإنسان يتوقّف بشكل

رئيس على استشعار الوجود الإلهي، بمختلف تفاصيله. فكلّما كان هذا الحضور جلياً فإنّ تصحيح السلوك الإنساني سيكون أيسر وأسرع. وقد أشار التعبير القرآني مورد البحث إلى فروع ثلاثة هنا:

الفرع الأول: الرجوع إلى الله تعالى

وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾. وقد ورد هذا المضمون في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]. والآية ظاهرة في أنّ التزام العبادات الشرعية، وبخاصة (الصلاة)، عسيرٌ إلا على أولئك النفر من الناس الذين هم على يقين من رجوعهم إلى الله تعالى.

الفرع الثاني: اليقين

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[2]، تأكيدٌ على أنّ بركات الله وألطافه الخاصة، ومنه إيتاء الحكمة، كلّ ذلك ليس متاحاً لغير الموقنين بلقاء الله والرجوع إليه.

الفرع الثالث: العلم الإلهي

هنا استحضار لقضية لا تخلو من أهمية فائقة، أعني بها (العلم الإلهي) بأفعال العباد. فكلّما كان العبد على علم بأنّ الله خبير بأقواله وأفعاله، فإنه سيكون أشدّ حذراً من أنّ يقع في مخالفة لله العالم أولاً، والقادر على

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.

العمل بمقتضى ربوبيته وقدرته ثانياً. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد:

الأولى: شمولية الحشر

تفيد الآية أنّ أحداً من الناس ليس مستثنى من الحشر إلى الله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾. ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[1].

الثانية: مقت العقوق

تفيد الآية أنّ العصاة، خصوصاً العاقّين بآبائهم وأمهاتهم، ممقوتون بالمستوى الذي استوجب أنّ يكون خصمهم والمحاسب لهم هو الله نفسه ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2]، فليس هناك إلا فريقان: أهل الرضا والرضوان، وأهل السخط والنيران.

الثالثة: علم الله الشامل

تفيد الآية أنّ شيئاً من أعمال الناس لا يخفى على الله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ولا فرق في ذلك بين قول أو فعل، ولا بين عمل جارحة أو جانحة. قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

الرابعة: المداومة على المعصية أقبح

تفيد الآية أنّ المعاصي التي يدأب عليها الإنسان أشدّ قبحاً وأوجب للإدانة من المعاصي التي ترتكب لمرة واحدة. وذلك من قوله تعالى ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والتعبير، بكلتا كلمتيه، يفيد الدلالة على العمل المداوم على فعله.

الخامسة: الدنيا مزرعة الآخرة

تفيد الآية أنّ مصائر الناس في الآخرة يتقرر على أساس أعمالهم في الآخرة.

السادسة: المشاعر أعمال

أنّ أقوال الناس ومشاعرهم تدخل ضمن عنوان العمل، لأنّ كلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ جاءت للتعبير عن مقام المساءلة التي سيتعرض لها الإنسان من قبل الله تعالى، ولا شكّ أنّ الله عزّ اسمه لن يسائل الناس عى أفعالهم دون أقوالهم، بل إنه سيسائلهم عن الاثنين معاً:

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.

القاعدة الرابعة

مَعرِفَةُ اللهِ والشُّعُورُ بِالمسؤُولِيَّة

(الآية ١٦)

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

في ثقافة الإسلام هناك خالق هو (الله) تعالى، وهناك مخلوق هو السماء وما فيها والأرض وما عليها، وما نعرفه وما لا نعرفه. وطبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق يحكمها نظامٌ نابعٌ من طبيعة الطرفين، وليست أمراً يُقبل مضمونه في فترة زمنية ويُردّ في أخرى.

وبناء على هذه الرؤية فإنّ ثمة حقوقاً للخالق تقتضيها ذاته وحقوقاً للمخلوق تتطلبها طبيعته. كما أنّ هناك علاقةً بينهما يحكمها اللطف من الخالق والمسؤولية من المخلوق.

وهنا نؤكد على أنه لا مناص لأي من الطرفين أنّ يتنصل من واجباته تجاه الآخر، سواء تلك التي يفرضها الكمال والجمال في ذات الخالق، أو تلك التي تقتضيها طبيعة الذات في المخلوق. وبعبارة أخرى: لا مناص من تحمل الخالق تبعات لطفه تجاه المخلوق، وتحمل المخلوق المسؤوليةَ تجاه الخالق والمخلوق، وتجاه الذات والآخر. وهذا التحمل هو الذي يجعل

فاعلها صالحاً وحكيماً.

وبطبيعة الحال، ففي ما يرجع إلى الناس فإنهم ليسوا سواء في ذلك، فهناك الصالح وغيره، والمبادر والمتراخي، قال تعالى في بيان هذا الواقع: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[1].

ومع ملاحظة هذا الواقع فإنّ الإنسان، إذا ما أراد لنفسه، أو أريد له، أنّ يكون صالحاً، هو بحاجة إلى أنّ يستشعر المسؤولية تجاه ما هو مكلّفٌ به، حتى لا يقصِّر في تحملها والعمل بلوازمها. لكنّ قد يقع منه تقصيرٌ في تحملها لو دُفع إليها مع ترغيبه في ثواب ومكافأة، وذلك إذا كان ممن لا يبالي بهذا أو ذاك، لأنّ الإنسان، وإن كان بطبعه نَزوعاً نحو الخير محباً له، لكنه ليس بالضرورة يتحرك نحو ذلك، لسبب أو لآخر. قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾[2].

ومن هنا، فإننا بحاجة، تربوياً، في دفع الإنسان نحو استشعار المسؤولية، إلى حافز آخر، هو (الترهيب). وهو ما وظّفه لقمان الحكيم هنا بقوله المحكيِّ على لسانه والمرضيِّ من الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾.

وما دام أنّ ثمة ارتباطاً بين: معرفة الإنسان لربه، وتحمله للمسؤولية، فإنّ من المفيد جداً ـ إنّ لم نقل من الضروري ـ أنّ يُصار إلى زرع حس

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠ـ ٢١.

المسؤولية لدى المخلوق بتعميق معرفته بالخالق. ومن هذا المنطلق فقد ركّز لقمان في حديثه على ثلاث صفات لله تعالى، من شأن الالتفات إليها أنّ يثبت الحكمة في عقل الإنسان ووجدانه ليكون أقرب دائماً إلى فعل الصواب وأبعد عن فعل الخطأ.

ولكن، قبل إيراد تلكم الصفات، لا بأس بالإشارة إلى الموانع من الاطلاع على الأشياء، فنقول:

إن المانع من ذلك أحد أمور:

أن يكون الشيء في منتهى الصغر.

أن يكون ثمة ما يحجب الشيء عن أنّ يكون في معرض الاطلاع عليه.

أن يكون الشيء نائياً وبعيداً، فيُحال بين المطلع وبينه.

أن يكون الشيء واقعاً في ظلمات تعيق النظر إليه.

فإن توفّرت أسباب الاطلاع ورفعت هذه الموانع فسيتاح التعرّف على الشيء.

وقد أشارت الآية الشريفة إلى المانع الأول بقوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، وإلى المانع الثاني بقوله:﴿فِى صَخْرَةٍ﴾، وإلى المانع الثالث بقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وإلى المانع الرابع بقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

(١) وقد لفت نظرنا إلى هذه الموانع الفخر الرازي في تفسيره، بالنسبة إلى الموانع الثلاثة الأخيرة، والألوسي بالنسبة إلى المانع الأول.

الصفة الأولى: القدرة الإلهية

أشير إلى صفة القدرة الإلهية من خلال التأكيد على أنّ مفردةً من مفردات الوجود، ولو بمقدار مثقال، أي جزء صغير من حبة من خردل ـ وهذه بدورها بالغة الصغر من بين الحبوب ـ لا تخفى على الله، وهذا كناية عن التناهي في القدرة الإلهية؛ فمن لم يعجز عن السيطرة على الصغير الذي قد يخفى فسيطرته على الكبير الذي لا يخفى أولى. فهذا الجزء الصغير المتناهي في صغره: ﴿يَأْتِ﴾ به الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[1].

الصفة الثانية: اللطف الإلهي

ثم انتقل لقمان، كما نصت الآية، إلى بيان صفة أخرى على درجة عالية من الأهمية في مسألة كبح الإنسان عن الوقوع في المعصية ومخالفة الله، وذلك أنّ القدرة وحدها قد لا تكفي الردع، لما قد يقع في وهم الواهم أنّ القادر يخفى عليه القبيح، بالخصوص لو كان فعلاً من أفعال الجوانح التي هي خفية بالطبع، حتى إنّنا نحن معاشر الناس لا نستطيع التعرّف على الحسود من غيره، ولا الحقود من غيره ...، إلا أنّ يقوم هذا وذاك بما يكشف عن حسده وحقده من خلال تصرفاته العملية.

لهذا أضاف لقمان، في عظته لابنه، التنبيه إلى أنّ الله تعالى: ﴿لَطِيفٌ﴾. واللطيف هو البالغ في اقتداره، وذاك يستلزم سعة الحيلة كما يقال. ولا شكّ أنّ أياً منا، إذا استشعر لطف الله في حياته، لن يقع في مخالفة مقتدر لطيف لا يعجزه شيء صغر أو كبر، بَطَن أو ظهر.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

الصفة الثالثة: العلم الإلهي الشامل والكامل

ثم أضاف لقمان، كتعبير عن حكمته، وصف الله بأنه تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾، وهو: من أسمائه الحسنى، يدلّ على علمه بجزئيات أحوال الأمور الكائنة ومصالحها[1]. وذاك يعني سعة علم الله تعالى، لأنّ الخبرة هي العلم. فإذا كان الله عالماً على الإطلاق بما يعمله الناس فليس لهم أنّ يقوموا بأي شيء إلا أنّ يكون مُرضيّا له تعالى ومقبولاً عنده.

وقد تسأل وتقول: لماذا استعمل صفة (خبير) دون غيرها من الأسماء الحسنى لله ذات الدلالة على علمه، كـ(عليم) أو (بصير)؟

الجواب: قد يكون ذلك للإشارة إلى أنّ العلم نوعان:

نظري، يحظى صاحبه بالمعرفة المجردة.

عملي، يجمع صاحبه إلى المعرفة المجردة المعرفة العملية (الممارسة)، التي تضيف إلى العلم الدقةَ والإتقانَ.

وبما أننا في مقام التحذير والتخويف من إساءة العمل والوقوع في المعصية الظاهرة والباطنة، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2]. فالأنسب ـ إذاً ـ أنّ يُنبَّه الإنسان إلى أنه مسؤولٌ أمام الله تعالى، وسيُسأل عن كلّ شيء إذا هو وقف بين يديه ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[3]. ثمّ إنّ لازم الخبرة بطبيعة الحال هو: (الجزاء على العمل)[4]. وهو

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠ ص ١٣٩، ط جماعة المدرسين بقم المقدسة.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ٤٠٢.

الأنسب لما ذكرناه من أنّ الآية بصدد التأكيد عليه، وهو حس المسؤولية لدى الإنسان تجاه ما يعمله، ليكون ذلك أدعى للإحسان في القول والفعل معاً، وعلى مستوى الجوارح والجوانح سواء بسواء.

وقفات:

الأولى: الضمير في قوله ﴿إِنَّهَآ﴾ يرجع إلى الأعمال، التي ذُكرت في قوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾، من دون فرق بين الحسنات والسيئات معاً.

الثانية: تكرار لفظ الجلالة ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾، مع إمكان الاكتفاء بالضمير، لمكان الحاجة إلى استحضار الذات الإلهية، وإيراد الاسم أبلغ من الضمير هنا، كما لا يخفى.

الثالثة: لعلّ تعبير ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ إشارة إلى: أنّ علمَ الله تعالى حضوريٌّ.

سعة القدرة الإلهية، فإنه ليس عالماً بها فحسب، وإنما هو قادرٌ على الإتيان بها، وفي ذلك كمال قدرته.

الرابعة: من الفوائد التربوية، لمعرفة علم الله الشامل، الكفُّ عن المعاصي والذنوب حتى المحقرات منها. وهذا ما أشار إليه الخبر المروي عن أبي بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: سمعته يقول: اتَّقُوا المحقراتِ من الذنوب، فإنّ لها طالباً يقول أحدكم: أُذنب وأستغفر، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1]،

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

وقال عزّ وجلّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

خلاصة واستنتاج:

في هذه الجولة تكتمل موعظة لقمان الحكيم، وما تخللها من مداخلات ربانية، في الجانب الاعتقادي والمعرفي والتربوي، حيث نبّهه فيها إلى:

أصل التوحيد وما يتفرع عنه من علم وقدرة، وذلك في قوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾، وقوله: ﴿ ٱشْكُرْ لِي ﴾، وقوله: ﴿أَنَابَ إِلَيَّ ﴾، وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم ﴾. وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ﴾.

أصل العدل، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، بما تضمنته من قبح الظلم الذي هو خلاف العدل.

أصلّي (النبوة والإمامة)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾، وقوله: ﴿مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾، حيث فُسِّر بالنبيﷺ وبطبيعة الحال خلفائه من بعده[2].

أصل المعاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾، وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾.

منهج التلقّي السليم والتصرّف الحكيم، مع أولي الفضل من الآباء الماديين والمعنويين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱشْكُرْ . . . وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾.

لينتقل بنا السياق في جولة تربوية جديدة حدد فيها معالم البرنامج العملي الذي ينبغي للحكيم وطالب الحكمة أنّ يترسمه في حياته، ليجسد

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٢) للتوسع يراجع كتاب بحار الأنوار، ج ٢٣، باب تأويل الوالدين ...

الحكمة في سلوكه القولي والعملي والنفسي، في مسارات العلاقة بأطراف ثلاثة:

الطرف الأول: الله عزّ وجل، بما يمثله من كمال وغنى وإنعام.

الطرف الثاني: النفس، بكلّ ما تعنيه لصاحبها من الكينونة والوجود.

الطرف الثالث: الناس، في الدوائر القريبة والبعيدة على حدّ سواء.

القاعدة الخامسة

الْوِصَالُ مَعَ اللّهِ

من الحكمة أنّ لا يضع الإنسان نفسه في موضع أعلى من موضعه، فيقع في التكبر، وأن لا يتضع عن موضع هو موضعه فيقع في الذل. وهذا موقف لا يغيب عن بال أحدٍ من الناس في علاقاتهم الاجتماعية، فهم لا يقبلون أنّ يقلّل غيرهم من شأنهم، ولا يرضون للآخرين أنّ يتكبروا عليهم.

هذا بين الناس الأسوياء العقلاء، لكنّ المؤسف هو أنّ كثيراً من الناس، ما إنّ يَحتّج بعضهم إلى بعض، أو يستغنِ بعضهم عن بعض، حتى تُصاب تلك القواعد الصارمة بالارتخاء والتآكل، فما كان لازماً يصبح غير لازمٍ، وما كان باطلاً يصبح حقاً، فيتَّضِع المتكبر، ويتكبر المتواضع. وفي بيانٍ هذه الحقيقة يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1].

فهل تجري هذه الحقيقة في علاقة الناس بالله تعالى؟

الجواب: نعم! إنّ علاقة الإنسان بالله يحكمها في الغالب ما يرجوه من نفع وما يخشاه من ضرر. ولذلك فإنّ جوهر الإنسانية إنما يتحقق بقدر ما يسعى الإنسان في تحقيق معرفته بالله أولاً لتنتهي به معرفته إلى حبه لله، لأنه منبع الخير، وخوفه منه، لأنه وحده القادر على الإضرار به. وانطلاقاً

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

من هذه الحقيقة اعتمد لقمان الحكيم التأكيد على معرفة الله تعالى، لأنها التي من شأنها أنّ ترسخ في العارف به واقع الاستقامة السلوكية مع الخالق والخلق معاً.

وبعد معرفة الله تتولد في النفس رغبةٌ في الوصال به، لذلك لا بد من التعرّف على منهج التعامل معه تعالى، فكان أول بند هو (إقامة الصلاة).

وقد قدّمنا في تفسير الآية الرابعة من هذه السورة بعض ما يتعلق بالصلاة وإقامتها. ونضيف بعض ما يرتبط بالمقام هنا بمناسبة أمر لقمان ابنه بإقامة الصلاة.

(الآية ١٧)

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

١ ـ الصلاة في اللغة:

لدى مراجعتنا للمعاجم اللغوية للتعرف على المعنى الذي يرده أرباب اللغة العربية إلى (الصلاة) وجدنا التالي:

١ ـ قال في المقاييس:

(صلى): الصاد واللام والحرف المعتل أصلان:

أحدهما: النار وما أشبهها من الحمّى.

والآخر: جنسٌ من العبادة[1].

٢ ـ وقال الراغب الأصفهاني:

أصل الصَّلْي لإيقاد النار، ويقال صلى بالنار وبكذا، أي: بلى بها، واصطلى بها. وصليت الشاةَ، شويتَها، وهي مصلية. قال: ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ ﴾، وقال: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾، قُرئ (سيصلون) بضم الياء وفتحها، ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾، ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[2]. وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى

---

(١) مقاييس اللغة، مادة (صلى).

(٢) تخريج الآيات المذكورة كالتالي: سورة يس، الآية: ٦٤. سورة الأعلى، الآية:١٢. سورة الغاشية،

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1]، فقد قيل: معناه لا يصطلي بها إلا الأشقى الذي ... والصلاء يقال للوقود وللشواء. والصلاة ، قال كثير من أهل اللغة: هي الدعاء والتبريك والتمجيد، يقال: صلَّيت عليه، أي دعوت له وزكيت ، وقال عليه السلام: إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائماً فليصلِّ) أي ليدعُ لأهله ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾[2].

وصلوات الرسول وصلاة الله للمسلمين هو في التحقيق تزكيته إياهم . وقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[3]. ومن الملائكة هي الدعاء والاستغفار كما هي من الناس، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾[4].

والصلاة، التي هي العبادة المخصوصة، أصلها الدعاء. وسُمّيت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه.

والصلاة من العبادات التي لم تنفكّ شريعةٌ منها؛ وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع . ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[5].

الآية: ٤. سورة الانشقاق، الآية: ١٢. سورة النساء، الآية: ١٠. سورة المجادلة، الآية: ٨. سورة المدثر، =
= الآية: ٢٦. سورة الواقعة، الآية: ٩٤.

(١) سورة الليل، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣. سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصلاء، قال ومعنى صلى الرجل أي أنه أزال عن نفسه بهذه العبادة الصلاء الذي هو نار الله الموقدة . . .

ويسمى موضع العبادة الصلاة، ولذلك سُمّيت الكنائس صلوات؛ كقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾[1].

وكل موضع مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حثّ عليه ذُكر بلفظ الإقامة نحو ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقُلَ المصلّين إلا في المنافقين نحو قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[2]. وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً أنّ المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط، ولهذا رُوي أنّ المصلّين كثيرٌ والمقيمين لها قليلٌ)[3].

٣ ـ وقال الطريحي في مجمع البحرين:

قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا﴾[4]، أي احترقوا بها. يقال: صليْتَ النار وبالنار، إذا نالك حرُّها . . .

واختُلف في اشتقاق الصلاة بمعنى ذات الأركان:

فعن المغرب أنها فعلة من (صلى)، كالزكاة من زكيَ، واشتقاقها من (الصلا)، وهو من العظم الذي عليه الأليان، لأنّ المصلي يحرّك صَلَويه في الركوع والسجود.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) تخريج الآيات كالتالي: سورة النساء، الآية: ١٦٢. سورة الأنعام، الآية: ٧٢. سورة الأعراف، الآية: ١٧٠. سورة الماعون، الآيتان: ٤ ـ ٥. سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٣) مفردات ألفاظ غريب القرآن، مادة (صلى).

(٤) سورة يس، الآية: ٦٤، وسورة الطور، الآية: ١٦.

وعن ابن فارس هي من (صلَيْت العود بالنار) إذا ليَّنته، لأنّ المصلّي يلين بالخشوع. و (الصلاء)، ككساء: الشواء لأنه يصلى بالنار...)[1].

والخلاصة: أنّ الصلاة إنما سُميت بذلك لأنّ لها أثراً في مؤديها إلى الدرجة التي تجعله أطوع لربه وأقرب إليه بالتزام أوامره، وأبعد عن ناره لاجتناب نواهيه. ولعلّ هذا ما يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2]. حيث إنّ الآية الشريفة تخبر عن واقع الصلاة وأثرها في المصلي، لذلك أمر بها بقوله تعالى ﴿أَقِمِ﴾.

وإذا كان للصلاة كلّ هذا الأثر الحيوي والمهم فمن الطبيعي أنّ يعظ لقمان الحكيم ابنه بأنّ يكون ممن يقيم الصلاة. لأنها من سمات الحكماء، وسبيل طلاب الحكمة.

٢ ـ الصلاة في الشريعة:

إذا ما عرّجنا على النصوص الدينية، للتعرف على الحكمة من تشريع الصلا، وجدنا عجباً، ولْنسُقْ على ذلك بعض النماذج:

أ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[3].

وهو نصٌّ بالغ الدلالة على أنّ المطلوب من العبد أنّ يكرّس عبوديته لله تعالى لا شريك له، وأن يترجم اعتقاده وتعبده بإقامة الصلاة، التي جُعلت في الآية عنواناً وحيداً للعبودية والعبادة. وكفى بذلك تعريفاً بأهمية الصلاة.

---

(١) مجمع البحرين للشيخ الطريحي، مادة (صلى).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) سورة طه الآية ١٤.

ب ـ ورُوي عن رسول الله ﷺ: «**إنما فرضت الصلاة . . . لإقامة ذكر الله**»[١].

ونذكّر هنا بأنّ المطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها وإتيانها. وقد ألمح الحديث إلى ذلك.

ج ـ وعن الإمام علي عليه السلام: «**فرض الله الإ يمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر**»[٢].

د ـ وفي الخبر عن هشام بن الحكم قال:

سألت أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام عن علة الصلاة؛ فإنّ فيها مشغلةً للناس عن حوائجهم ومتعبةً لهم في أبدانهم!!

قال: «**فيها عللٌ، وذلك أنّ الناس لو تركوا بغير تنبيهٍ ولا تذكُّر للنبي ﷺ، بأكثر من الخبر الأول وبقاء الكتاب في أيديهم فقط**[٣]**، لكانوا على ما كان عليه الأولون، فإنهم قد كانوا اتخذوا ديناً ووضعوا كتباً ودعوا أناساً إلى ما هم عليه وقتلوهم على ذلك، فدرس**[٤] **أمرهم وذهب حين ذهبوا. وأراد الله تبارك وتعالى أنّ لا يُنسيهم أمر محمد ﷺ، ففرض عليهم الصلاة، يذكرونه في كلّ يوم خمس مرات؛ ينادون باسمه، وتُعُبِّدوا بالصلاة وذكر الله لكي لا يغفلوا عنه وينسوه فيندرس ذكره**»[٥].

---

(١) الصلاة في الكتاب والسنة للشيخ محمد الريشهري، ص ٢٣.

(٢) م ن.

(٣) يريد الإمام عليه السلام أنّ يقول لو أنّ الناس تُركوا في إيمانهم برسول الله ﷺ على النقل التاريخي أباً عن جدٍّ، بأنه مرسل من عند الله، وبوجود القرآن بين أيديهم ...

(٤) أي زال واندثر.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣ ـ ٢٤.

أقول: إنّ الإمام عليه السلام حينما يذكر (علل) تشريع الصلاة، فإنه بصدد ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على الصلاة وأدائها، وليس بصدد ذكر (العلل) بالمصطلح الفلسفي الذي يعني زوال المعلول بزوال العلة، وانتفاء المعلول بانتفاء العلة. وإلا لنُقض بأنّ الذاكر لرسول الله صلى الله عليه وآله ليس بحاجة إلى الصلاة، وهو غير مراد قطعاً.

كما أنّ النصّ يبين الفائدة النفسية الدينية للصلاة في الدرجة الأولى، وانعكاساتها الاجتماعية في الدرجة الثانية.

هـ ـ وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: إنّ علة الصلاة أنها:

إقرارٌ بالربوبية لله عزّ وجل.

وخلع الأنداد.

وقيامٌ بين يدي الجبّار جلّ جلاله، بالذلّ والمسكنة والخضوع والاعتراف، والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم إعظاماً لله جلّ جلاله.

وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطِر.

ويكون خاشعاً متذلّلاً راغباً طالباً للزيادة في الدين والدنيا.

مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عزّ وجلّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبدُ سيدَهُ ومدّبرَهُ وخالقَهُ؛ فيبطر ويطغى. ويكون ذلك في ذكره لربه جلّ وعزّ وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي، ومانعاً له من أنواع الفساد)[1].

---

(١) م ن.

وهذا النصّ الشريف واضح الدلالة غنيٌّ عن التعليق، فقد فصَّل في تبيان حكم الصلاة وفوائدها. وكيف لا يسير في طريق الحكمة من يقيم الصلاة ويجني مثل هذه الثمرات والنتائج الطيبة؟!

٧ ـ وفي نصّ جليل عن أهل بيت العصمة ذُكر أنّ لـ(الصلاة) حدوداً وآداباً تفوق ما يتصوره الناس من صورة منقوصة للصلاة. فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أجاب من سأله عن الصلاة وحدودها، بقوله: «**للصلاة أربعة آلافِ حدٍّ لستَ تؤاخذ بها**».

فقال: أخبرني بما لا يحلّ تركه ولا تتمّ الصلاة إلا به.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**لا تتم الصلاة إلا لذي طهرٍ سابغ، واهتمام بالغ، غير نازغ ولا زائغ. عرف فوقف، وأخبت فثبت، فهو واقفٌ بين اليأس والطَّمع، والصَّبر والجزَع، كأنّ الوعد له صُنع، والوعيد به وقع. بذل عرضه وتمثّل غرضه، وبذل في الله المهجة، وتنكّب غير المحجة، مرتغماً بإرغام، يقطع علائق الاهتمام. يعين من له قصد، وإليه وفد، وفيه استرفد، فإذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي بها أُمِر، وعنها أُخبِر، وإنها هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر**»[1].

ونحن هنا بين يدي فلسفة للصلاة تختلف عمّا نمارسه نحن إذا أدينا الصلاة، التي يغلب عليها فيها ممارسة رتابة عبودية (روتين). ولو أنّ أياً منا استحضر ما ذكره الإمام عليه السلام في بيانه لهذه الحدود، لما وجدنا في أنفسنا غِلاً ولا حقداً، ولا امتلأت قلوبنا حَنَقاً وحسداً، ولا ابتلينا بما نعانيه من كسل ولا فشل، ولما وجدنا فتوراً يستولي علينا إذا أقبلنا على الصلاة

---

(١) م ن، ص ٢٤.

كما لو كانت عبئاً ثقيلاً.

أوليس من حكمة لقمان التي آتاه الله إياها أنّ يكون ممن يقيم الصلاة ويعظ ابنه أنّ يكون كذلك (اللهمّ أقمها وأدمها، واجعلنا من خير صالحي أهلها عملاً)[١].

---

(١) دعاء يستحب قوله إذا قال المقيم للصلاة: (قد قامت الصلاة). انظر العروة الوثقى، للفقيه السيد محمد كاظم اليزدي، فصل الأذان والإقامة. وكذلك جامع أحاديث الشيعة، للفقيه السيد حسين البروجردي.

القاعدة السادسة

الإِصْلاحُ الدِّينِي والمسْؤُوليَّةُ الاجْتِمَاعِيَّة

ينتقل لقمان الحكيم في عظته لابنه إلى التطرق لمسألتين مهمتين، هما (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). ومآل المسألتين، كما لا يخفى، إلى مسألة واحدة يمكن عنونتها بـ(الإصلاح الديني والمسؤولية الاجتماعية). واستيعاب أبعاد المسألة يتوقّف إلى درجة كبيرة على فهم فلسفة وجود الإنسان ودوره وما كُلّف به على الأرض، لذا نقول:

إن الله عزّ وجلّ في بدء خليقة الإنسان قال لملأ الملائكة ما هو مقدِمٌ عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]. فالإنسان ـ إذاً ـ هو: خليفة الله، بكلّ ما يعنيه الاستخلاف من ضرورة أنّ يسير الخليفة في الدرب الذي رسمه مَن استخلفه، وعلى النهج الذي اختاره له.

وبالطبع، فإنّ هذا الدور الكريم يتطلّب مؤهّلات لم يجد الملائكة أنّ هذا المخلوق (الإنسان) متوفر عليها، حتى ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾. فقد قرأوا، بغض النظر عن أسباب وصولهم إلى هذه النتيجة، أنّ الإنسان سيقع في ممارسات تتنافى وكونَه خليفة لله، وذلك بوقوعه في الفساد وسفك الدماء. ولا ينبغي لخليفة الله، كما يفهمه

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الملائكة، وكما تقتضيه طبيعة الاستخلاف، أنّ يحصل شيءٌ من ذلك. فإنّ طبيعة الاستخلاف والعبودية الصالحة تقتضي أنّ يقوم الإنسان بما يقوم به الملائكة وشرحوه بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فماذا ينبغي لمن أراد السير في طريق الاستخلاف أنّ يفعل أمام الانحراف الذي قد يقع فيه الناس بحيث يُسمّى في العرف الشرعي بـ(المنكر)، وذلك إذا فعلوا ما هو حرام، أو إذا أهملوا (المعروف) بترك الواجب؟

الجواب: إنه الإصلاح الديني. ونعني به هنا ممارسة (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر). وهما معنيان يمثلان دورين اثنين، إلا أنهما، من الناحية العملية، غالباً ما يكونان متلازمين.

فمن خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضمن الأمة الاستقامة الفكرية والسلوكية للأفراد والجماعات. وتأسيساً على ذلك تتسع دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتشمل:

خطواتٍ احترازية ووقائية، يصار من خلالها إلى الحؤول دون وقوع الأفراد والجماعات في الأخطاء والخطايا في القول والفعل، والجوارح والجوانح. وينتظم في هذا بشكل عامّ (التربية والتعليم، والوعظ والإرشاد ...).

خطواتٍ علاجية، يصار من خلالها إلى تخليص الواقع الإسلامي الفردي

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

والاجتماعي من المعاصي والانحرافات القولية والفعلية بل والشعورية.

وبهذه القراءة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتبين لنا خلفية قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١]. باعتبار أنّ هذه الخيرية والأفضلية تتوقف على أداء هذه الوظيفة المقدسة، التي تتكفل بـ(الإصلاح الديني) بمعناه الواسع والشامل مَهمتَّين أساسيتين، مع ما يتفرع عنهما من مهامّ كما قدمنا. والمهمتان هما:

الأولى: تنقية الفكر الديني من الشوائب التي يمكن أنّ تعلق به في ذهن الناس لسبب أو لآخر. وهذه (خطوة علاجية).

الثانية: وقاية الفكر الديني من علوق الشوائب به. وهذه (خطوة وقائية).

لكل هذا أكّد لقمان الحكيم الساعي لتعليم نجله أصول الحكمة على ذلك بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

وقد تسأل وتقول: لماذا كان من قواعد الحكمة أنّ نسعى في إصلاح الآخرين بحفظ الدين في سلوكهم وتصحيح فهومهم عنه، أوليس القرآن ينص على ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٢]؟!

الجواب: أجل، لا ترابط بين مصير شخص وآخر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]. لكنّ هذا لا يعني أنّ نتخلى عن المسؤولية تجاه الناس، التي من

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

أهمها الدعوة إلى الله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1].

ماذا نعني بالمسؤولية؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول:

(تنقسم المسؤولية الإسلامية إلى نوعين:

النوع الأول: ما يرتبط بالشيء في ذاته، كالصلاة، والصوم، والحج، حيث تجب على المكلَّف على كلّ حال، سواءٌ كان وحده أو مع جماعة. ويمكن القول إنّ هذا النوع قد استوعبه الفقهاء بالبحث في العبادات.

النوع الثاني: ما يرتبط بالشيء بلحاظ ما يترتب عليه من الأثر سلباً أو إيجاباً، من قبيل الحجاب، حيث إنه واجب على المرأة إذا كانت في محضر رجل أجنبي، فهو حكم معلق على وجود أجنبي، فلا يجب عليها أنّ ترتدي الحجاب إذا كانت وحدها، أو كانت بين النساء.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا اللحاظ يدخل ضمن النوع الثاني. بمعنى أنهما يجبان أو يُستحبان، على تفصيل يأتي، في ما إذا كنّا نعيش في وسط اجتماعي، أمّا لو كان المكلف وحده، فلا وجوب لأمرٍ بمعروفٍ ولا نهيٍ عن منكرٍ حينئذٍ، إذ لا مأمور ولا منهي.

ويمكن أنّ نطلق على المسؤولية من النوع الأول (المسؤولية الإسلامية الفردية)، وعلى المسؤولية من النوع الثاني (المسؤولية الإسلامية الاجتماعية). ولكنّ هذا لا يعني أنهما منفكّان تماماً، بل قد يؤثّر أحدهما

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

في الآخر، كما إذا كان المكلَّف معذوراً من حيث الصيام، كالمريض والمسافر، فله من حيث (المسؤولية الفردية) أنّ يأكل، ولكنّ يحرم عليه ذلك من حيث (المسؤولية الاجتماعية)، إذا ترتب عليه تشجيع الآخرين على الإفطار دون عذر شرعي، أو أدى إلى تشويه صورته الاجتماعية)[1].

وإن مما يؤسف له أنّ هناك قصوراً في فهم (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وتقصيراً في أدائها، الأمر الذي يفرض على الأمة بالخصوص علماءها أنّ يبذلوا الجهود اللازمة لرفع هذا وذاك، لأنّ ذلك وحده هو السبيل إلى توفير الأسباب اللازمة للنهوض بالأمة من كبوتها، وإعادة الحياة إلى أطرافها.

وهنا جهات ينبغي التوقف عندها:

الجهة الأولى: آليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طرائق مختلفة، يفترض بنا الالتفات إليها إذا ما أردنا مراعاة الحكمة في الأمر والنهي. فليس كلّ طريقة تناسب أي شخص، لأنّ تفاوت الناس عقلياً ونفسياً وجسدياً يَفرض أنّ يُختار لكلّ منهم ما يناسبه في مقام التوجيه والإصلاح.

وهذه الطرائق هي:

١ ـ الطرائق القولية

وذلك من خلال الخطابات المباشرة التي يمكن للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أنّ يعتمدوها بالنسبة إلى هذا الفرد أو ذاك. وينتظم

---

(١) فقه المسؤولية الاجتماعية، للمؤلف (مخطوط).

في هذا الباب كلّ قول سواء كان ملفوظاً في محفل عامّ أو خاص، أو مكتوباً في كتاب أو جريدة أو خطاب خاص أو عامّ ، أو وصية . . .

ونؤكد على أنّ القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون دائماً، بطريقة مباشرة، بل قد يكون الأمر والنهي المباشران غير مؤثرين، لذلك قد يكون من الضروري اعتماد القول الإيحائي كما هو سائد في لغة الإعلام التي يمرر أصحابها من خلال الإيحاء ما يتغلغل في النفوس بطريقة سحرية!! وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: إنّ من البيان لسحراً)[1].

٢ ـ الطرائق العملية

وذلك من خلال الحيلولة عملياً بين المنحرفين أو المخطئين والوقوع في منكر من المنكرات، أو حملهم بطريقة أو بأخرى على فعل المعروف. وينتظم في ذلك الارتقاء بمستوى المجتمع فكرياً وأخلاقياً بحيث ينظر أفراده إلى المنحرفين، أفراداً وجماعات، بطريقة تحشرهم في زاوية يضطرون معها إلى العودة إلى الالتزام بمنظومة القيم السائدة في المجتمع، كما حصل بالنسبة إلى الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقوطعوا، حتى لم يجدوا بداً من التسليم بالخطأ والعودة إلى كنف المجتمع بالتوبة والاستغفار.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولأهمية هذا الباب نورد مسائل مما دونته يراع الإمام الخميني قدس سره في كتابه الفقهي (تحرير الوسيلة)، باعتبارها أشمل ما دوِّن في هذا الباب

(١) عوالي اللآلئ، ج ١، ص ٧١. ورواه البخاري في كتاب الطب من صحيحه.

في الرسائل العملية، قال ﷺ في بيان مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المرتبة الأولى: أنّ يعمل عملا يظهر منه انزجاره القلبي عن المنكر، وأنه طلب منه بذلك فعل المعروف وترك المنكر. وله درجات كغمض العين، والعبوس والانقباض في الوجه، وكالإعراض بوجهه أو بدنه، وهجره وترك مراودته ونحو ذلك.

مسألة ١ - يجب الاقتصار على المرتبة المذكورة مع احتمال التأثير ورفع المنكر بها. وكذا يجب الاقتصار فيها على الدرجة الدانية فالدانية والأيسر فالأيسر، سيما إذا كان الطرف في موردٍ يهتك بمثل فعله. فلا يجوز التعدي عن مقدار اللازم، فإنّ احتمل حصول المطلوب بغمض العين المفهِم للطلب لا يجوز التعدي إلى مرتبة فوقه.

مسألة ٢ - لو كان الإعراض والهجر مثلاً موجِباً لتخفيف المنكر لا قلعه، ولم يحتمل تأثير أمره ونهيه لساناً في قلعه، ولم يمكنه الإنكار بغير ذلك وجب[1].

ثم استعرض ﷺ عدداً من التطبيقات لعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخصوص علماء الدين، ثمّ أضاف قوله:

المرتبة الثانية: الأمر والنهي لساناً

مسألة ١ - لو علم أنّ المقصود لا يحصل بالمرتبة الأولى، يجب الانتقال إلى الثانية مع احتمال التأثير.

(١) تحرير الوسيلة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مسألة ٢ ـ لو احتمل حصول المطلوب بالوعظ والإرشاد والقول الليِّن، يجب ذلك، ولا يجوز التعدي عنه.

مسألة ٣ ـ لو علم عدم تأثير ما ذُكر انتقل إلى التحكم بالأمر والنهي، ويجب أنّ يكون من الأيسر في القول إلى الأيسر مع احتمال التأثير، ولا يجوز التعدي سيما إذا كان المورد مما يهتك الفاعل بقوله.

مسألة ٤ ـ لو توقف رفع المنكر وإقامة المعروف على غلظة القول والتشديد في الأمر والتهديد والوعيد على المخالفة، تجوز بل تجب مع التحرز عن الكذب.

مسألة ٥ ـ لا يجوز إشفاع الإنكار بما يحرم ويُنكر كالسب والكذب والإهانة. نعم، لو كان المنكر مما يهتم به الشارع ولا يرضى بحصوله مطلقاً؛ كقتل النفس المحترمة وارتكاب القبائح والكبائر الموبقة، جاز، بل وجب، المنع والدفع؛ ولو، مع استلزامه ما ذُكر، لو توقف المنع عليه.

مسألة ٦ ـ لو كان بعض مراتب القول أقلّ إيذاءً وإهانةً من بعض ما ذكر في المرتبة الأولى يجب الاقتصار عليه، ويكون مقدَّماً على ذلك، فلو فرض أنّ الوعظ والإرشاد بقولٍ ليِّنٍ ووجهٍ منبسطٍ مؤثّرٍ أو محتمل التأثير وكان أقل إيذاءً من الهجر والإعراض ونحوهما لا يجوز التعدي منه إليهما، والأشخاص آمراً ومأموراً مختلفة جداً، فربَّ شخصٍ يكون إعراضه وهجره أثقل وأشد إيذاءً وإهانةً من قوله وأمره ونهيه، فلا بدّ للآمر والناهي من ملاحظة المراتب والأشخاص، والعمل على الأيسر ثمّ الأيسر.

مسألة ٧ ـ لو فرض تساوي بعض ما في المرتبة الأولى مع بعض ما في المرتبة الثانية لم يكن ترتيب بينهما بل يتخير بينهما، فلو فَرض أنّ الإعراضَ مساوٍ للأمر في الإيذاء وعَلم أو احتَمل تأثير كلٍّ منهما يَتخير بينهما ولا يجوز الانتقال إلى الأغلظ.

مسألة ٨ ـ لو احتَمل التأثير وحصول المطلوب بالجمع بين بعض درجات المرتبة الأولى أو المرتبة الثانية، أو بالجمع بين تمام درجات الأولى أو الثانية مما أمكن الجمع بينها، أو الجمع بين المرتبتين مما أمكن ذلك وجب ذلك بما أمكن، فلو عَلِم عدم التأثير لبعض المراتب واحتَمل التأثير في الجمع بين الانقباض والعبوس والهجر والإنكار لساناً مشفوعاً بالغلظة والتهديد ورفع الصوت والإخافة ونحو ذلك، وجب الجمع.

مسألة ٩ ـ لو توقف دفع منكر أو إقامة معروف على التوسل بالظالم ليدفعه عن المعصية جاز، بل وجب مع الأمن عن تعديه مما هو مقتضى التكليف، ووجب على الظالم الإجابة، بل الدفع واجب على الظالم كغيره ووجبت عليه مراعاة ما وجبت مراعاته على غيره من الإنكار بالأيسر ثمّ الأيسر.

مسألة ١٠ ـ لو حصل المطلوب بالمرتبة الدانية من شخص وبالمرتبة التي فوقها من آخر فالظاهر وجوب ما هو تكليف كلّ منهما كفائياً، ولا يجب الإيكال على من حصل المطلوب منه بالمرتبة الدانية.

مسألة ١١ ـ لو كان إنكار شخص مؤثراً في تقليل المنكر وإنكار آخر مؤثراً في دفعه وجب على كلّ منهما القيام بتكليفه، لكنّ لو قام الثاني بتكليفه وقلع المنكر سقط عن الآخر، بخلاف قيام الأول الموجب للتقليل

فإنه لا يسقط بفعله تكليف الثاني.

مسألة ١٢ ـ لو علم إجمالاً بأنّ الإنكار بإحدى المرتبتين مؤثرٌ يجب بالمرتبة الدانية، فلو لم يحصل بها المطلوب انتقل إلى العالية.

المرتبة الثالثة: الإنكار باليد.

مسألة ١ ـ لو علم أو اطمأنّ بأنّ المطلوب لا يحصل بالمرتبتين السابقتين وجب الانتقال إلى الثالثة، وهي إعمال القدرة مراعياً للأيسر فالأيسر.

مسألة ٢ ـ إنّ أمكنه المنع بالحيلولة بينه وبين المنكر وجب الاقتصار عليها لو كان أقل محذوراً من غيرها.

مسألة ٣ ـ لو توقفت الحيلولة على تصرف في الفاعل أو آلة فعله ـ كما لو توقفت على أخذ يده أو طرده أو التصرف في كأسه التي فيها الخمر أو سكينه ونحو ذلك ـ جاز بل وجب.

مسألة ٤ ـ لو توقف دفع المنكر على الدخول في داره أو ملكه والتصرف في أمواله؛ كفرشه وفراشه، جاز لو كان المنكر من الأمور المهمّة التي لا يرضى المولى بخلافه كيف ما كان؛ كقتل النفس المحترمة. وفي غير ذلك إشكال، وإن لا يبعد بعض مراتبه في بعض المنكرات.

مسألة ٥ ـ لو انجرت المدافعة إلى وقوع ضرر على الفاعل؛ ككسر كأسه أو سكينه، بحيث كان من قبيل لازم المدافعة، فلا يبعد عدم الضمان، ولو وقع الضرر على الآمر والناهي من قبل المرتكب كان ضامناً وعاصياً.

مسألة ٦ ـ لو كسر القارورة التي فيها الخمر مثلا أو الصندوق الذي فيه آلات القمار، مما لم يكن ذلك من قبيل لازم الدفع، ضمن وفعل حراماً.

مسألة ٧ ـ لو تعدى عن المقدار اللازم في دفع المنكر، وانجر إلى ضرر على فاعل المنكر، ضمن، وكان التعدي حراماً.

مسألة ٨ ـ لو توقفت الحيلولة على حبسه في محل أو منعه عن الخروج من منزله جاز، بل وجب، مراعياً للأيسر فالأيسر والأسهل فالأسهل، ولا يجوز إيذاؤه والضيق عليه في المعيشة.

مسألة ٩ ـ لو لم يحصل المطلوب إلا بنحو من الضيق والتحريج عليه، فالظاهر جوازه، بل وجوبه، مراعياً للأيسر فالأيسر.

مسألة ١٠ ـ لو لم يحصل المطلوب إلا بالضرب والإيلام، فالظاهر جوازهما مراعياً للأيسر فالأيسر والأسهل فالأسهل، وينبغي الإذن من الفقيه الجامع للشرائط، بل ينبغي ذلك في الحبس والتحريج ونحوهما.

مسألة ١١ ـ لو كان الإنكار موجِباً للجر إلى الجرح والقتل، فلا يجوز إلا بإذن الإمام عليه السلام على الأقوى، وقام في هذا الزمان الفقيه الجامع للشرائط مقامه مع حصول الشرائط.

مسألة ١٢ ـ لو كان المنكر مما لا يرضى المولى بوجوده مطلقاً؛ كقتل النفس المحترمة، جاز، بل وجب الدفع، ولو انجر إلى جرح الفاعل وقتله، فوجب الدفاع عن النفس المحترمة بجرح الفاعل أو قتله لو لم يمكن بغير ذلك، من غير احتياج إلى إذن الإمام عليه السلام أو الفقيه مع حصول الشرائط، فلو هجم شخص على آخر ليقتله وجب دفعه ولو بقتله مع الأمن من الفساد، وليس على القاتل حينئذ شيء.

مسألة ١٣ ـ لا يجوز التعدي إلى القتل مع إمكان الدفع بالجرح، ولا

بد من مراعاة الأيسر فالأيسر في الجرح، فلو تعدى ضمن، كما أنه لو وقع عليه من فاعل المنكر جرح ضمن أو قتل يقتص منه)[١].

وقد أشارت الآية الشريفة إلى كلّ ذلك بإطلاق قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، حيث لم يدخل لقمان الحكيم في موعظته لابنه في تفاصيل الأمر والنهي، لعلمه عليه السلام أنّ ما يصلح في مقام ليس بالضرورة يكون صالحاً في مقام آخر، فـ(لكل مقام مقالٌ)، والبلاغة هي مراعاة مقتضى الحال.

وثمة إطلاقان في قول لقمان الحكيم:

١ ـ إطلاق في الأمر والنهي، ليشمل كلّ أمر وكلّ نهي بمختلف مراتبهما، بالتفصيل الذي حكيناه عن الإمام الخميني قدس سره.

٢ ـ إطلاق المعروف والمنكر، ليشمل كلّ معروف وكلّ منكر، فيلزم الأمر بالمعروف الواجب، ويُستحب الأمر بالمعروف المستحب، كما يجب النهي عن المنكر الحرام، وينبغي النهي عن المكروه.

الجهة الثانية: الدعوة إلى الله بصمت

من الأساليب المهمّة والمجربة في توجيه الآخرين الالتفات إلى أنهم يلاحظون في الآمر والناهي مدى التزامه بما يأمر به وينهى عنه، أكثر من نظرهم إلى قوله، ويجعلون ذاك مؤشر مصداقيته الذي يتعرفون من خلاله على صوابية الشعارات التي يدعو الناس إليها.

ومراعاة هذا الأمر يمكن عدُّه عنواناً لـ(البصيرة) التي فرض علينا أنّ

---

(١) تحرير الوسيلة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نراعيها في فعل الدعوة في قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾(١).

ولهذا ورد في النصوص الشريفة التأكيد على أنّ يلتزم الداعي بما يدعو له قبل أنّ يكون همُّه الأول والأخير الدعوة القولية، كما نقرأه في ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية)(٢). وهو ما ينسجم تماماً والأدب القرآني القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

قال الإمام الخميني قدس سره:

(من أعظم أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأشرفها وألطفها وأشدّها تأثيراً وأوقعها في النفوس، سيّما إذا كان الآمِرُ أو الناهي من علماء ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم، أنّ يكون لابساً رداء المعروف واجبِهِ ومندوبِهِ، ومتجنِّباً عن المنكر بل المكروه. وأن يتخلّق بأخلاق الأنبياء والروحانيين، ويتنزّه عن أخلاق السفهاء وأهل الدنيا، حتى يكون بفعله وزيّه وأخلاقه آمراً وناهياً، ويقتدي به الناس. وإن كان ـ والعياذ بالله تعالى ـ بخلاف ذلك، ورأى الناس أنّ العالم المدعِي لخلافة الأنبياء وزعامة الأمة غيرَ عاملٍ بما يقول صار ذلك موجباً لضعف عقيدتهم وجرأتهم على المعاصي وسوء ظنّهم بالسلف الصالح. فعلى العلماء، سيما رؤساء المذهب، أنّ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الورع، الحديث ١٤.

(٣) سورة الصف، الآيتان: ٢ ـ ٣.

يتجنّبوا مواضع التهم، وأعظمُها التقربُ إلى سلاطين الجور والرؤساء الظلمة، وعلى الأمة الإسلامية أنّ لو رأوا عالماً كذلك حملوا فعله على الصحة مع الاحتمال، وإلا أعرضوا عنه ورفضوه، فإنه غير روحاني تلبس بزي الروحانيين، وشيطان في رداء العلماء، نعوذ بالله من مثله ومن شره على الإسلام)[1].

الجهة الثالثة: عبادية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مما أكّد العلماء عليه هو أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمران عباديان، أي أنّ من شروطهما النية الخالصة، ومراعاة الشروط الشرعية، فهما إذاً ليسا مزاجيين، لفاعلهما أنّ ينفذهما كيفما شاء، بل يلزمه أنّ ينضبط بالضوابط الشرعية في ذلك مع نية التقرب إلى الله تعالى.

وهذا ما يعني أنّ على المتصدي لهما ـ وعلى الحكيم أنّ يفعل ذلك ـ مراعاة جميع ما يجب مراعاته من شروط استعرضها الفقهاء في بابه، وتعرّض لها الأخلاقيون في مؤلّفاتهم. ويمكن أنّ يستفاد مما دوِّن من قبل الإعلاميين والنفسيين والاجتماعيين ... في هذا المجال. والحديث في هذا الباب ذو شجون.

قال الإمام الخميني قدس سره:

(ينبغي أنّ يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في أمره ونهيه ومراتب إنكاره كالطبيب المعالج المشفق، والأب الشفيق المراعي مصلحة المرتكب، وأن يكون إنكاره لطفاً ورحمةً عليه خاصة، وعلى الأمة عامةً، وأن يجرّد قصده لله تعالى ولمرضاته، وأخلص عمله ذلك عن شوائب

(١) تحرير الوسيلة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المسألة ١٥، من المرتبة الثالثة.

أهوية نفسانية وإظهار العلوّ، وأن لا يرى نفسه منزَّهةً، ولا لها علو أو رفعة على المرتكب، فربما كان للمرتكب ولو للكبائر صفاتٌ نفسانيةٌ مُرضيةٌ لله تعالى أحبه تعالى لها وإن أبغض عمله، وربما كان الآمر والناهي بعكس ذلك وإن خفي على نفسه)[1].

الجهة الرابعة: ماهية المعروف وماهية المنكر

يمكن تعريف المعروف وتمييزه ممّا عداه بأنه ما قبله الشرع والفطرة، وأقرّته المجتمعات السوية. والمنكر بخلافه. وهما أمران فيهما مراتب، فمن المعروف ما يكون مطلوباً إلى حدّ الوجوب والضرورة. ومنه ما لا يتجاوز حدود الاستحباب والندب. ومن المنكر ما يبلغ حدّ الحرمة والمنع، ومنه لا يتجاوز حدود الكراهية.

وقد أوجبت الشريعة المقدسة الأمر بالمعروف الواجب، وندبت إلى الندب، كما أوجب النهي عن المنكر المحرم، وحضت على النهي عن المكروه.

ولئلا يطول الحديث بنا ويخرج عن طور التفسير نوكل التفصيل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى ما كتب الأعلام والباحثون والمختصون في هذا الصدد.

(١) تحرير الوسيلة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المسألة ١٤، من المرتبة الثالثة.

القاعدة السابعة

الصَّبْرُ

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

من قواعد الحكمة الأساسية أنّ يتحلّى الإنسان بـ(الصبر). وهو مفهوم واسع يستوعب حياة الإنسان العقلية والروحية والجسدية ... فليس يستغني الإنسان في تأمين أيٍّ من طموحاته دون أنّ يكون من الصابرين، ولا هو قادر على أنّ يتجنب شيئاً من الشرور دون أنّ ينخرط في سلك الصابرين.

بل إنّ الصبر فضيلة من الفضائل وتعبير عن كمال من الكمالات التي تكشف عن مرتبة وجودية تسنَّمها من اتصف بـ(الصبر).

وتأسيساً على ذلك يوصي لقمان ابنه بواحدة من مفردات حكمته التي آتاه الله إياها، وذلك بقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. وقد أثار لقمان عليه السلام في عظته هذه ثلاث قضايا:

القضية الأولى: وجوب الصبر

يأمر لقمان الحكيم ابنه بالصبر بنحو الإلزام والوجوب، وذلك في قوله: ﴿وَاصْبِرْ﴾. ويدرك لزوم الصبر العقلُ ويؤكده النقل، لما للصبر من

آثار لا يسمح بإهمالها ولا التهاون فيها، لأنّ في التفريط فيه إيذاءً للنفس وليس فقط تفويتاً للمنافع .

وأمّا لماذا هو واجب؟ فلا يمكن الإجابة عن ذلك دون التعرُّف على حقيقة الصبر. ولنقف على تعريفه في اللغة والاصطلاح في مقامين:

المقام الأول: التعريف اللغوي

اختلف اللغويون في صياغة معنى الصبر على أقوال تختلف في التعبير والقيود، ولكنها تلتقي جميعاً في المراد، فمن تلك التعريفات:

أن الصبر ـ لغةً ـ هو: الإمساك في ضيق. يقال: (صبرت الدابةَ أي حبستُها بلا علف، وصبرت فلانا أي حلفته حلفة لا خروج له منها)[1].

أنه: (حبس النفس عن الجزع)[2].

أنه: (حبس النفس عن إظهار الجزع)[3].

أنه: مطلق (الحبس)[4].

وواضحٌ أنّ أعمَّ التعريفات هو آخرها، لأنّ الأول منها قيَّد الصبر بالتحفظ بقيد الضيق النفسي من الحبس والتحفظ. أمّا الثاني فلا يخفى أنه يعرِّف الصبر ببعض أقسامه، أعني خصوص الصبر على الآلام التي تحصل بسبب فقدان عزيز أو مال أو ما بحكمهما. وأمّا الثالث فهو يعرِّف الصبر بحبس النفس عن خصوص إظهار التألم بسب الفقدان، مع أنّ

(١) مفردات ألفاظ غريب القرآن، مادة (صبر).

(٢) مختار الصحاح ، مادة (صبر).

(٣) مجمع البحرين، مادة (صبر).

(٤) معجم مقاييس اللغة، مادة (صبر).

للصبر موارد أشمل من حالات الفقدان، من قبيل ما يطالب به طلاب المعالي من التجلد وحبس النفس على بعد الهمة. وأمّا التعريف الرابع فهو أشمل التعريفات حيث إنه يوسِّع من دائرة الصبر ليشمل كلّ مورد نحتاج فيه إلى تحفظ أو جلَد أو همة وغير ذلك مما يدخل في أنواع الصبر وأقسامه، لأنّ الحبس:

أ ـ قد يكون عن الشيء، بالكف عنه، وقد فسر الصبر بالصوم.

ب ـ وأخرى على الشيء بالتزامه والثبات عليه.

المقام الثاني: التعريف الاصطلاحي

إذا تجاوزنا التعريف اللغوي وصرنا بصدد التعريف الاصطلاحي فلا نكاد نجد فرقاً بينهما في الجوهر والمضمون وإن اختلف في المظهر والشكل.

فمثلاً: يعرِّف المحقق الطوسي الصبر بأنه: (حبس النفس عن الجزع عند المكروه)[١]. وهو تعريف يلتقي تماماً مع ما ذكره اللغويون، في خصوص التعريفين الأول والثاني. لكنّ الطوسي يذكر في مقام التطبيق ما يوسِّع من دائرته بحيث: يمنع الباطن عن الاضطراب، واللسان عن الشكاية، والأعضاء عن الحركات غير المعتادة ..[٢].

أمّا النراقي فيحكي تعريفاً لـ: مطلق الصبر بأنه (مقاومة النفس مع الهوى)[٣]. ويزيده توضيحاً بقوله: (إنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث

---

(١) نهج السعادة، للشيخ المحمودي، ج ٧، ص ٢٨٣.

(٢) م ن.

(٣) جامع السعادات، ج ٣، ص ٢٢٦.

الهوى)[١].

فهو ﷺ يؤكّد على ملاحقة عوامل التخلي عن فضيلة الصبر وبواعثه، وذلك أنّ ثمة عاملين يتجاذبانه هما:

الأول: الدين، بكلّ ما له من التأثير في عقل المتديّن ونفسه، بحيث يتشكل وعيه على أساس الدين لتتحرك جوانحه وجوارحه وفقاً للمعارف الدينية، حسب فهمه لها والتزامه بمضامينها.

الثاني: الهوى، بكلّ ما يعنيه من غرائز وشهوات تدفع بالإنسان نحو اللهث في طلب الدنيا وما يتفرع عنها، والعزوف عن الله وما يقرب منه.

وهذان العاملان أو الباعثان يتصارعان على التأثير في الإنسان. وهما اللذان ورد في الأخبار الإشارة إليهما بـ(جنود العقل والجهل). فكلّما كان الإنسان أصبر فهو أقرب إلى الدين / العقل، وأشد التصاقاً بصفاته، وأبعد عن الهوى / الجهل، وأشد انغماساً والتصاقاً بقبائحه.

ومن هنا فـ:

(الصبر منزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحّدين. وبه ينسلك العبد في سلك المقرَّبين، ويصل إلى جوار ربّ العالمين)[٢].

ولأن الصبر يصل بصاحبه إلى هذه المقامات العالية فلا عجب أنّ توليه الأديان ـ وهي شرعة الله لخلقه ـ أهميةً قصوى، فقد: أضاف اللهُ أكثر الدرجات والخيرات إليه، وذكره في نيّف وسبعين موضعاً من القرآن،

(١) م ن.

(٢) م ن، ص ٢٢٩.

ووصف الله الصابرين بأوصاف ، فقال عزّ من قائل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[(١)]، وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾[(٢)]، وقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[(٣)]، وقال: ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾[(٤)].

فما من فضيلة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(٥)].

ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[(٦)].

وعلَّق النصرة على الصبر ، فقال: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[(٧)].

وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى، فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[(٨)].

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حدّ الاستقصاء)[(٩)].

والسر في ذلك واضحٌ، حيث إنّ الصبر يشكل عاملاً رئيساً من عوامل الثبات على خطّ التكامل، وهو ما يتطلّب عزماً راسخاً وإرادةً

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥٤.
(٥) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.
(٨) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.
(٩) جامع السعادات، ج ٣، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

صلبةً لا تلين أمام الشدائد والمعوقات التي لا مناص من مواجهته لها، الأمر الذي يوقعه في:

- التشويش على مستوى التفكير.
- الخطأ في الفكر.
- الانحراف في السلوك.

ويترتب على كلّ ذلك البعد عن الله والنكوص عن السعادة العظمى، ومن هنا ف:

(الصبر أقوى عونٍ على الشدائد، وأشدّ ركن تجاه التلون في العزم وسرعة التحول في الإرادة، وهو الذي يُخلّي بين الإنسان وبين التفكير الصحيح المطمئن، حيث تهجم عليه الخواطر المشوشة والأفكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كلّ جانب، فالله سبحانه مع الصابرين)[1].

القضية الثانية: مجال الصبر

ما نقرأه في وصية لقمان عليه السلام هو خصوص الصبر الذي هو على النقيض من الجزع بسبب:

فقدان الخير والنعمة، ماديةً كانت أو ظاهريةً.

وجدان الألم والعذاب الجسدي أو الروحي أو العقلي.

وذلك ما نستفيده من قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

وقد تسأل: هل من الضروري أنّ يوصي لقمان ابنه بالصبر؟

الجواب: نعم! إنه كذلك، لأنّ بناء الكون قائمٌ على أساس التزاحم

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٩٦.

بين الإرادات والتدافع بين الناس. ومتى افترضناه على هذا النحو فإنّ لازمه أنّ يتأرجح الإنسان بين الوجدان تارة والحرمان أخرى. والإنسان ـ كما نعرف ـ نَزُوعٌ نحو الخير بكلّ أشكاله، وهو ساعٍ دائماً لوجدانه، فارٌّ دائماً من فقدانه.

ولهذا فلا غنى للإنسان عن التحلّي بفضيلة (الصبر)، لأنه بهذه الفضيلة يتمكن من السير في طريقين اثنين:

الأول: التخلي عن الرذائل، التي يدعوه إليها هواه وجهله من داخله، ووساوس الشيطان وضغوط الواقع من خارجه.

الثاني: التحلي بالفضائل، التي يدعوه إليها عقله ودينه من داخله، ووحي ربه ودعوات الأنبياء والأولياء من خارجه.

ويلقي الضوء على هذين الطريقين ودور الصبر في التوفّر عليهما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

فهذه الآيات دعوة إلى التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل في رد عدوان المعتدين وخصوماتهم، وبيانٌ بأنّ هذا وذاك ليسا متيسّرين لغير الصابرين، الذين يستعينون بالله ويثبتون على منهاجه في مقاومة وساوس الشيطان ونزغاته.

ومن هنا ندرك السرّ وراء ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٣ ـ ٣٦.

«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[١]. وذلك باعتبار أنّ الدين والإيمان سلسلةٌ من الالتزامات تجاه الخالق والمخلوق والذات، ولا يتأتّى فعل ذلك بغير الصبر، فمن افتقد الصبر، لأي سبب، فلن يتمكن من الثبات على دينه.

القضية الثالثة: فلسفة الصبر

كما قدّمنا فإنّ منهج لقمان الحكيم التربوي لا يكتفي بالتلقين، بل إنه يشفعه بفلسفة الأوامر والنواهي؛ لأنه أدعى للإقناع وأوجب للثبات. وهو درسٌ لنا في فن التربية الواعية والمؤثّرة. وقد كرر ذلك ثانياً بقوله هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. حيث لم يكتفِ بأمره ابنه بـ(الصبر)، وإنما أضاف إلى ما ألقاه إليه التأكيد على طبيعة الصبر وتصنيفه في سلّم الفضائل، وهو أنه ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

ولجلاء الغموض عن فلسفة الصبر نقف عند آيات أربع أخرى تناولت فضيلة الصبر وأنه من الفضائل التي لا يستغني عنها طالب كمال.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٢].

وهذه الآية بصدد تنبيه المؤمنين إلى أنّ طريقهم هو طريق ذات

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، الحديث ٥. وقد روي هذا المضمون بألفاظ قريبة عن رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وزين العابدين عليه السلام.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

الشوكة، وأن عليهم أنّ يستوعبوا حجم المشكلات والعقبات الكأداء التي ستواجههم، وبالتالي عليهم أنّ لا يستهينوا بها حتى لا تخور قواهم في مقاومتها. وهي تضع ثلاثة مستويات لهذه العقبات والأزمات:

المستوى الأول: الابتلاء في الأموال

بمعنى أنّ الجماعة المؤمنة ينطبق عليها قانون رباني مفاده أنّ الدنيا دار تزاحم بين الناس في مصالحهم، والتدافع بينهم واقعٌ لا محالة، كما أنّ ضيق عالم الدنيا لا يسمح بالبقاء المطلق لأي شيء فـ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1]. ومقتضى هذا وذاك أنّ النقص سيصيب أموالهم المنقولة وغير المنقولة، لا ريب، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾.

المستوى الثاني: الابتلاء في الأنفس

الابتلاء الآخر الذي على المؤمنين أنّ يوطنوا أنفسهم على مواجهته هو النقص في الأنفس، سواء بالموت العادي أو بالموت في الحروب التي تُشنّ عليهم من قبل الأعداء، أو يبادرون هم إليها جهاداً في سبيل الله ونشراً لدينه أو دفاعاً عن مستضعفين هنا أو هناك. ومن لوازم الحروب زهوق الأنفس التي هي عزيزة بطبعها، فقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي ... وَأَنفُسِكُمْ﴾.

المستوى الثالث: الكلام الجارح

كما تنبه الآية الكريمة إلى ما هو من اللوازم الطبيعية للجماعات المبدئية، أعني صنوف الأذى القولي التي يمارسها أعداؤهم لعلّ ذلك

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

يثبّط من عزائمهم، خصوصاً بالنسبة إلى المجتمع المسلم الذي هو ثورة جذرية تسعى إلى اقتلاع الفساد من أصله ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[1].

ولسنا بحاجة إلى ضرب أمثلة فالتاريخ الإسلامي القديم والحديث مشحون بما يؤكّد شراسة الصراع بين مشروع الإسلام وخصومه[2].

وقد أشارت الآية إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾.

هذه أزمات ثلاث، أو ابتلاءات ثلاثة، على المؤمنين أنّ يواجهوها، ولن يكون ذلك بغير الصبر. وهذا ما نصّت عليه الآية ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[3].

فاللازم ـ إذاً ـ التحلي بالصبر، وهو العزم والإرادة الصلبة. وهو من مقتضيات الحكمة في معالجة الأزمات، فمن لا صبر له لا حكمة له.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) لا حاجة بنا إلى التأكيد على أنّ مواجهة المشروع الإسلامي انتقلت من حالة خارجية في مراحل الدعوة الأولى إلى حالة داخلية منذ أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وبعد وفاته. وللاستزادة حول الموضوع يمكنك أخي القارئ مراجعة كتاب (المواجهة الكاملة) للمحامي أحمد حسين يعقوب رحمه الله، الذي وافته المنية أثناء تدوين هذا الكتاب في شهر رمضان عامّ ١٤٢٨ هـ. وكذلك (تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي ـ مسار الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله ونشأة المذاهب ـ للباحث صائب عبد الحميد. وكذلك كتاب التبشير والاستعمار لعمر فروخ وزميله.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥ ـ ١٥٦.

ولذلك كان من أهم ما أوصى به لقمانُ ابنَه هو ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1].

وهذه الآية جاءت في سياق تعداد سمات المؤمنين الكمَّل، وأن منها قدرتهم على صبرهم على ما مسّهم من أذى الآخرين وإساءتهم لهم، والعفو عنهم، وأن ذلك لا يتأتى من كلّ أحد، وإنما من خصوص أصحاب العزائم الراسخة النابعة من عمق الإيمان فيهم.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾[2].

وهذه الآية الكريمة بصدد الحضّ على التحلّي بصفة من صفات كبار الأنبياء عليهم السلام الذين هم أولو العزم، بمعنى أصحاب الإرادات الصلبة الذين لا يمكن أنّ يتخلوا عن ما أوجبه الله عليهم فعلاً أو تركاً.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[3].

وهذه الآية تحكي التجربة الإنسانية الأولى في الإخفاق أمام التوجيهات الإلهية، وقد سيقت ليتنبه أبناء آدم أنّ عليهم أنّ يستفيدوا من تجربته هذه[4].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٤) تبعاً لأهل البيت عليهم السلام لا نقول بأنّ هذا الإخفاق كان على مستوى المعصية لأمر مولوي، وإنما كانت مخالفة لإرشاد رباني. وبالتالي ففيه العتاب دون العقاب. وعلى أي حال فهي تجربة تصلح لأنّ تكون عبرة للمعتبر. وعلى من أراد التوسع في ذلك فليراجع ما كتب في عصمة الأنبياء عليهم السلام، كـ(تنزيه = = الأنبياء) للشريف المرتضى رحمه الله.

القاعدة الثامنة

التَّوازُنُ النَّفْسِيَ في السُّلوكِ الاجْتِمَاعِي

(الآية ١٨)

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

من الحكمة أنّ يعرف الإنسان قدره، ومن السّفَه أنّ يجهل قدر الناس. ولهذا السفه وتلك الحكمة مضارّ وفوائد على الفرد والمجتمع. ومن هنا فقد حرص الحقّ سبحانه على تعريف العباد بما لهم وما للناس أولاً، وبما يتنافى وتلك الحقوقَ ثانياً، كما أنه سبحانه حرص على كشف مناشئ كلّ ذلك.

والآية الشريفة أعلاه جاءت ضمن هذا السياق، مستعرضةً حكمين وفلسفتهما، ولنتناول ذلك في مقامات ثلاثة:

المقام الأول: النهي عن التكبُّر

الحكم الأول الذي وعظ لقمانُ الحكيمُ ابنَهُ أنّ يلتزمه هو تجنب التكبر. الذي هو: حالة الزهو التي يشعر بها المتكبر وتدفعه إلى استشعار العلوّ والرفعة على الآخرين، دون أنّ يكون هو كذلك.

وكنى لقمان عن ذلك بـ(الصعر)، الذي هو داء يصيب البعير فتعوج رقبته.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾

والتواضع مطلوب من الجميع للجميع، وبخاصة من ذوي المسؤوليات الكبرى التي تتطلب منهم أنّ يتصفوا به لئلا تُبنى بينهم وبين من هم تحتهم سدود وحدود تحول بينهم وبين التعرّف على مشكلات العامة. قال علي عليه السلام في كتابه إلى واليه على مصر:

ثم الله الله!! في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤس والزمنى؛ فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً. واحتفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كلّ بلد. فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطرٌ، فإنك لا تُعذر بتضييعك التافهَ لأحكامك الكثيرَ المهمَّ فلا تشخص همَّك عنهم، ولا تصعِّر خدك لهم.

وتفقَّدْ أمورَ مَن لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيونُ وتحقره الرجالُ، ففرِّغ لأولئك ثقتَك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم. ثمّ اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه. فإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكلٌّ فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه.

وتعهد أهل اليتم، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه[1].

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: تصعير الخد

حذَّر لقمان الحكيم ابنَه أنّ يقع فريسةً لأوهام الترفع على الناس، وهذه الأوهام تنشأ عادةً من الجهل الذي يعشعش في عقول المتكبرين ومن الطيش الذي جعلوا أزمتهم بين يديه. ليتجلى هذا الوهم في الشعور بالانتفاخ والتعاظم على الآخرين، كما لو كانوا هم أبناء الحُرّة وأولئك أبناء الأَمَة، كما يقال.

ويبدو هذا الانتفاخ العقلي والنفسي الموهوم في سلوك المرتفع والمتكبر، سعياً منه في تأكيد شعوره وإبرازه. وحيث إنّ الوجه هو المعبِّر الأول عن شخصية الإنسان وميوله، في بغضه وكرهه، وفي تواضعه وترفعه، حيث تكون قسمات وجهه في حالات الرضا تختلف عنها في حالات السخط. ومن هذا القبيل إذا تكبر فإنه يلوي عنقه، ولا يقبل على من يتكبر عليهم، في حين تجده هاشاً باشاً في وجه من يودّهم ويميل إليهم.

وصرف الوجه عن المبغوض شائعٌ، وكذلك الإقبال بالوجه على المحبوب، كتعبير واضح لا يحتاج إلى كلام قد لا يكون أبلغ في التعريف بهما.

وقد وظَّف لقمان الحكيم حالة المرض التي يصاب بها البعير فيضطر إلى لَيِّ عنقه، ليكون أبلغ في تصوير الحالة على مستوى تعريفها، وتشويهها في آنٍ.

المسألة الثانية: احترام جميع الناس

ليس في ثقافة الإسلام استثناءات في عالم القيم الأخلاقية، فهي قيمة مطلوبة مطلقاً، لأنها أحد فروع التقوى، وهذه مطلوبة في كلّ حال، ومع كلّ أحد، من غير فرق بين أنّ يكون طرف المعاملة صديقاً أو عدواً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وتأسيساً على هذا، فإنّ الآية مورد البحث أكدت على النهي عن التكبر كنقيض للتوازن العقلي والنفسي للإنسان السويِّ، ولم تقيد النهي عنه بفريق دون آخر، فالتكبر مرفوض من أيٍّ كان على عموم الناس، فـ:﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

وفي هذا السياق جاءت بعض النصوص لتنهى الإنسان عن التعالي على فريق من الناس ليحرمهم العلم الذي جاؤوا يطلبونه في ما يوفره لغيرهم، فعن طلحة بن زيد ، عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، قال: «**ليكن الناس عندك في العلم سواء**»[2].

أجل، قد تكون ثمة استثناءات تقتضيها طبائع الناس، حيث إنّ هذا البعض قد يمعن في اعتماد الأساليب الملتوية، ومنها تكبره على الناس، بحيث لا مجال لمعالجته والحد من إيذاءاته إلا أنّ يقابل بتكبر مماثل، ليكون أوجع في الردّ على إيغاله في الانحطاط.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) أصول الكافي، كتاب العلم، باب بذل العلم، الحديث ٢.

المقام الثاني: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾

وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: رذيلة التيه

أشارت الآية إلى رذيلة يترجم المتكبرون تكبرَهم من خلالها، وهي (التيه)، ونعني بها الشعور بالزهو والفرح الناشئين من الشعور بالتفوق الذاتي على الآخرين. وقد نهت الآية عن التعبير عن ذلك لأنه منافٍ للواقع فإنّ الناس سواسية في أنفسهم ولا كرامة لأحد على أحد إلا بالتقوى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وحينما تقبّح الشريعة التكبر فذاك لا يعني أنّ نلبس البالي من اللباس وأن لا نستحمّ تعبيراً عن التواضع، فـ(النظافة من الإيمان)[2]، كما أنّ النصوص الشرعية أكدت على (قيمة الجمال).

فقد رُوي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً شعثاً شعرُ رأسِهِ وسخةٌ ثيابُهُ، سيئةٌ حالُهُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من الدين المتعةُ وإظهارُ النعمةِ»**[3].

وعنه عليه السلام أنه قال: **«إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحب أنّ يراها عليه، لأنه جميلٌ يحب الجمال»**[4].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) مستدرك سفينة البحار، مادة (نظف).

(٣) فروع الكافي، باب التجمل، الحديث ٥.

(٤) م ن، الحديث ٤.

المسألة الثانية: لماذا المشي؟

قد يتساءل أحدٌ فيقول: لمَ اختارت الآية النهي عن (التيه) ولم تختر حالة أخرى من حالات الإنسانَ؟

الجواب: إنّ أبرز ما يعبّر عن التيه والتبختر في الإنسان هو (المشي)، حيث إننا نتعرف من خلاله على المتبختر والتائه والمعجب بنفسه، وإن لم نخاطبه أو يخاطبنا.

المقام الثالث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

هذا المقطع من الآية أشبه ما يكون ببيان الحكمة من النهي عن التيه والاختيال والفخر، وهو ما يدعو للتكبر على الآخرين، ببيان أنّ كلّ ذلك مبعِدٌ عن الله، الأمر الذي يعني البعد عن السعادة الحقيقية باعتباره تعالى مصدر الخير والهناء.

ولهذا السبب نجد في ما روي من نصوص عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ما يبين خلفية الفخر والكِبْر وما يكشف عن مآلاته، وما يترتب عليه من مفاسد، وكذلك خطأ الأوهام التي يبني عليها المتفاخرون مواقفهم ومشاعرهم.

ولذلك عقد الشيخ الكُلَيني قدس سره باباً عنونه بـ(باب الفخر والكبر)، جاء فيه:

قال علي بن الحسين عليهما السلام: «**عجباً للمتكبر الفخور، الذي كان بالأمس نطفةً ثمّ هو غداً جيفةٌ**»[1].

(١) الحديث ١.

وهذا بيانٌ لحقيقة لا تسمح للإنسان أنّ يتيه معها على الناس، فمن كان مآله إلى أنّ يصبح جيفة في حفرة من حفر الأرض فلا مناص له من أنّ يتواضع لا أنّ يتفاخر.

وبسنده عن السكوني، عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**آفة الحسب الافتخار والعُجْب**»(١).

وهذا تبيينٌ لمرض يُبتلى به الجاهلون بالقيم الحقيقية التي يرتفع بها الناس. فـ(الحسب الرفيع) وإن كان حسناً في نفسه، لكنه لا يُعدّ قيمة تتيح لصاحبها أنّ يترفع على الناس.

وبسنده عن عقبة بن بشير الأسدي قال: قلت لأبي جعفر [الباقر] عليه السلام: أنا عقبة بن بشير الأسدي، وأنا في الحسب الضخم من قومي! قال: فقال: «**ما تمنُّ علينا بحسبك؟ إنّ الله رفع بالإيمان مَن كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر مَن كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً. فليس لأحدٍ فضلٌ على أحد إلا بالتقوى**»(٢).

وفي هذا النصّ إيضاحٌ للقيمة الوحيدة التي ينبغي أنّ تكون سبباً للتفاخر، وهي (التقوى)، التي تجعل من صاحبها قريباً من الله وجنانه، بعيداً عن سخطه ونيرانه، وتلكم هي السعادة الحقيقية التي لا قيمة لشيء بدونها.

ولو سألت عن السبب في مذمومية الكِبْر والتفاخر لأجبناك بما قاله إمامنا الكاظم عليه السلام لتلميذه هشام، حيث يقول:

---

(١) الحديث ٢.

(٢) الحديث ٣.

«يا هشام! إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا. فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبّار، لأنّ الله جعل التواضع آلة العقل وجعل التكبر من آلة الجهل. ألم تعلم أنّ من شمخ إلى السقف برأسه شجّه. ومن خفض رأسه استظلّ تحته وأكنّه. وكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله»[1].

(١) تحف العقول، باب ما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

القاعدة التاسعة

التَّوازُنُ النَّفسِيّ الذَّاتِيّ

(الآية ١٩)

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

في هذه الآية الكريمة أدبان من آداب الحكماء، وعظ لقمان ابنه بجعلهما سلوكاً من سلوكياته لا يتجاوزهما، وهذان الأدبان هما:

الأدب الأول: الوقار

وقد عالجت الآية هذا الأدب ضمن مفردتين، هما:

المفردة الأولى: القصد

ذُكر للقصد في قواميس اللغة معانٍ عدة، من قبيل: القتل، والكسر، والعدل، والقرب، والرشد ...، والذي يظهر أنّ لها قاسماً مشتركاً يشكّل المعنى الأصلي لها، وهو: التوجه والإرادة نحو القيام بعمل ما. فيقال للقاتل إنه قاصد لأنه متوجه ومريد للقتل، وكذلك للراشد حيث إنه مريدٌ للرشد، وهكذا العادل يقال إنه قاصد لأنه مريد لإحقاق الحقّ والقيام بالقسط[1].

وأمرُ لقمان ولدَهُ بمراعاة القصد في المشي إنما هو للتعبير عن توازنه النفسي الذي يعيشه في داخله، لأنّ من يفعل ذلك يكشف عن تواضعٍ

(١) للتوسع انظر: التحقيق في كلمات القرآن، للسيد حسن المصطفوي، مادة (قصد).

واستقامةٍ ينافيهما الاختيال والتبختر والتكبر. فالقاصد في المشي هو الذي يسير سيراً معتدلاً حيث لا يسرع كما يفعل المتهورون والجهلة، ولا هو يبطئ كما يفعله متصنعو الزهد والتقوى. بل إنه يفعل ذلك لما هو كامنٌ بين جوانحه من وقار واطمئنان.

وقد تسأل، وتقول: كيف يكشف المشي عن الوقار أو التكبر؟

الجواب: إنّ للإنسان ظاهراً وباطناً، فظاهره جوارحه، وباطنه جوانحه، وقد يتطابق الظاهر والباطن بأنّ تكون الجوارح معبِّرةً تماماً عمّا في الجوانح، وقد لا تكون كذلك. والوقار هو حالة باطنية للإنسان بينما المشي حالةٌ ظاهريةٌ، فإنّ كان الإنسان وقوراً فسينعكس على مشيه، حيث يختار الاعتدال بين السرعة والبطء، وإن كان مضطرباً مشى مسرعاً، وإن كان خاملاً فسيكون مشيه بطيئاً، وهكذا ...

لذلك فالمشي معبِّرٌ عن شخصية الإنسان، ولما كان لقمان بصدد تعليم ولده الحكمةَ، التي هي وضع الشيء موضعه، فإنّ من الحكمة المشي المعتدل بين السريع والبطيء، لذلك وجهه بقوله ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾.

وتأسيساً على ذلك، فقد نتعرف على شخصية الإنسان من مشيه، كما نتعرف عليها من صوته، أو من نظرات عينيه، أو من لون وجنتيه.

فالقصدُ ـ بمعنى الاعتدال ـ، في المشي وفي غيره، فضيلةٌ من الفضائل، سواء كانت في الأبعاد النفسية أو العقلية أو السلوكية. فالقصد، أو الاعتدال، ركيزةٌ أساسية في تثبيت الإنسان على مسار الحكمة ببعديها النظري والعملي.

ولا فرق في الرؤية الإسلامية في ضرورة التزام فضيلة العدل كقيمة أخلاقية، بين أنّ يكون في شأن الدين أو الدنيا، كما لا فرق بين أنّ يكون في أمر جزئي أو كلي، فما جاء من الوعظ بالقصد في المشي ليس سوى مثال وليس إلا: كناية عن أخذ وسط الاعتدال في مسير الحياة)[1].

وبالطبع ، فلا بدّ من التفصيل بين أبعاد القصد لنحكم على كلّ واحد منها بحكمه، فـ(من الاقتصاد:

ماهو محمودٌ مطلقاً، وذلك في ما لَه طرفان: إفراطٌ وتفريطٌ ، كالجود؛فإنه بين الإسراف والبخل. وكالشجاعة؛ فإنها بين التهوّر والجبن، وإليه الإشارة بقوله [تعالى]: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2].

ومنه ما هو مترددٌ بين المحمود والمذموم، وهو في ما يقع بين محمود ومذموم؛ كالواقع بين العدل والجور، وعلى ذلك قوله [تعالى]: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[3][4].

وما من شكّ في أنّ الاقتصاد في المشي من النوع المحمود وليس من المتردد بين المذموم والمحمود، فضلاً عن أنّ يكون من النوع المذموم.

وزيادةً في استجلاء هذه الحقيقة نستعرض التالي:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة المائدة، تفسير الآيات ١٥ ـ ١٩ .

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٤) بصائر ذوي التمييز، مادة (قصد).

أولاً: مبدأ الاعتدال والاقتصاد

يمثل الاقتصاد والاعتدال في الرؤية الإسلامية مبدأً مركزياً له أولويةٌ على كثير من القيم، باعتباره التعبيرَ الجيدَ عن المواءمة بين الحاجات التي تعود لهذه القوة أو تلك، والتناغم بين الحاجات ذات الطابع العاجل، والأخرى ذات الطابع الآجل، كما أنه تعبيرٌ عن التوازن بين حاجات الفرد والمجتمع من جهة، وبين متطلّبات الإنسان وأوامر الرحمن من جهة أخرى. كلّ ذلك في ما إذا كان ثمة تعارض بين حاجتين أو تزاحم بين قوتين.

ومن هذا المنطلق فإننا نسأل الله تعالى أنّ يهدينا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[١]، فلسنا نطلب منه الهداية إلى أي صراط، بل خصوص المستقيم منه، لأنّ غيره لا يؤدّي إليه، وإذا أدى فلن يخلو من الأضرار.

ثانياً: الاقتصاد في العبادة

مع أنّ التعبد لله تعالى يعد المقصد الرئيس للدين من لدن آدم إلى النبي الخاتمﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٢]. إلا أنّ الله تعالى اللطيف الخبير لم يرغب لعبده أنّ يكون منصرفاً بشكل كامل إلى العبادة ، بمعناها الخاص، وإنما دعاه إلى التوسط في ذلك، وكمثال على ذلك ما سجله الشيخ الكُلَيني ﵀ في باب خاص عقده في كتابه (أصول الكافي) لهذا الغرض عنوانه (الاقتصاد في العبادة)، أورد فيه عدداً من التوجيهات القولية والعملية، مما نطقت به أبواب الهدى عترة رسول اللهﷺ، رواية

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

عنه ﷺ، أو على ألسنتهم الشريفة. ولنستعرض ذلك في فقرات:

الفقرة الأولى: الإفراط يتنافى مع مقاصد الدين

روى الشيخ الكُلَيني بسنده عن حفص بن البختري، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: لا تكرِّهوا إلى أنفسكم العبادة)[1]. وهذه الرواية تلحظ بُعداً من أبعاد النفس البشرية، وهو ما يرتبط بالمتعبد نفسه، حيث إنّ للنفس إقبالاً وإدباراً، ولا ينبغي للإنسان أنّ يثقل على نفسه بالعبادة، وإن كانت في نفسها حسنةً مطلوبةً، ولكنّ مراعاة مقتضى الحال أيضاً أمرٌ مطلوبٌ. والرواية تنهى عن الإيغال في العبادة إلى الحدّ الذي تكرهها النفس.

وبسنده عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال:

قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الدين متينٌ فأوغلوا فيه برفق. ولا تُكرِّهوا عبادةَ الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى**»[2]. والرواية لا تنهانا عن التعبد لله، وإنما هي بصدد التنبيه إلى أنّ الطبيعة البشرية تتطلب الترفق، وحيث إنّ الدين متينٌ، ما خفي منه على الناس يُعدّ أضعاف ما ظهر لهم، فإنّ اللازم على الدعاة إلى الله، ناطقين أو صامتين، أنّ يكونوا على ذُكرٍ من هذه الحقيقة، الأمر الذي يفرض عليهم تحبيب العبادة إلى الناس، وذلك من خلال القصد والاعتدال فيها. ولعلّ استحباب أداء الصلاة جماعة بصلاة أضعف المأمومين من هذا الباب، ففي صحيحة معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا كنت إماماً**

(١) م ن، الحديث ٢.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة، الحديث ١.

أجزأتك تكبيرةٌ واحدةٌ، لأنّ معك ذا الحاجة والضعيفَ والكبيرَ»[١].

الفقرة الثانية: الكيف أولاً والكم ثانياً

تحرص الرؤية الإسلامية على بلوغ الأهداف، وليس ثمة تلازمٌ بين الكثرة وبلوغ الأهداف، بل قد يكون بينهما تنافرٌ، كما ألمعنا إليه في الفقرة السابقة. وفي الخبر عن حنان بن سدير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **«إنّ الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً فعمل [عملاً] قليلاً جزاه بالقليل الكثيرَ، ولم يتعاظمه أنّ يجزي بالقليل الكثيرَ له»**[٢]. فما دامت الأعمال المأمور بها من الله تعالى، بعد الحدّ الأدنى الذي هو الواجب، ليست سوى تعبير عن حالة العبودية، فلا يهمّ عندها ـ بمنطوق الرواية ـ أنّ يكون العمل كثيراً أو قليلاً، لأنه مُتقبَّلٌ.

وقد حرص المشرِّع الإسلامي على التنبيه على حقيقة أنّ العمل العبادي إذا لم يُراع فيها الطبيعة البشرية، في إقبالها وإدبارها، قد يكون لها تبعات عكسية، ومن ذلك ما رواه أبو بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: **«مرَّ بي أبي، وأنا بالطواف وأنا حدث، وقد اجتهدت في العبادة، فرآني وأنا أتصابُّ عرقاً، فقال لي: يا جعفر! يا بني! إنّ الله إذا أحب عبداً أدخله الجنة، ورضي عنه باليسير»**[٣].

وفي لفظ آخر أنه قال: **«اجتهدت في العبادة وأنا شابٌّ، فقال لي أبي: يا بني! دون ما أراك تصنع، فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً** رضي عنه

(١) وسائل الشيعة، الحديث ٧٢١٣، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.
(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة، الحديث ٣.
(٣) م ن، الحديث ٤.

باليسير»[١].

وقد اختصر الإمام علي عليه السلام نهج الإسلام العملي بوصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «**سيرته القصد**»[٢]. بمعنى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يوغل في شيء أو يبالغ فيه بأزيد مما كلّفه الله به، خصوصاً إذا كان الأمر يرتبط بالتعريف بالإسلام والدعوة إليه.

وقد يُثار في ذهن القارئ تساؤل مفاده: كيف نوفّق بين هذا الكلام وبين ما نقرأه ونسمعه من أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تعبّد لله حتى تورّمت قدماه؟

الجواب: أنّ ذلك محمولٌ على ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في علاقته الخاصة بربه مما لا ينعكس سلباً على الناس وممارستهم للعبادة.

تنويرٌ: القصد بمعنى الهدف

يجب التنبيه إلى أنّ للقصد معنى آخر غير التوازن والاعتدال، وهو: بلوغ الهدف.

قال علي عليه السلام: «**ربما أخطأ البصير قصده**»[٣]، بمعنى أنّ مفتوح العينين ليس بالضرورة يصل إلى هدفه، وذاك في ما إذا لم يحسن استعمالهما، بينما قد يصيب (الأعمى رشده)[٤]، وذاك إذا ما فتح بصيرته.

كما وصف عليه السلام المتقي بقوله: «**سلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب**»[٥]. فهو لحكمته يدقّق كثيراً في خطواته بحيث يختار أفضلها

---

(١) م ن، الحديث ٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٤.

(٣) م ن، الكتاب: ٣١.

(٤) م ن.

(٥) م ن، الخطبة: ١٨٣.

وأحسنها للإيصال إلى المطلوب. ولذلك فإنّ الناس يُكبرونه فـ(من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشّروه بالنجاة)[1]. بينما (من أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق)[2].

وقد تكون موعظة لقمان بصدد بيان هذا الأمر، حيث إنّ من الحكمة أنّ يكون الماشي قد حدّد لنفسه هدفاً أو نقطةً يريد الوصول إليها، وإلا فسيكون سيره أشبه بالفعل العبثي.

المفردة الثانية: المشي

تَبيّن لنا مما تقدم أنّ المشي وسيلة من وسائل الكشف عن مكنون الشخصية، وما دام كذلك فلا ينبغي لنا أنّ نهمل فيه دون أنّ نعيره أهمية. ومن ثَمّ جاء في الآداب الشرعية الكثير من التوجيهات ليكون المشي معبِّراً عن استقامة الإنسان وحكمته، وقد عقد مصنفو جوامع الحديث أبواباً لهذا الغرض، كما فعل المحدّث المجلسي ﵀ في بحار الأنوار ننتقي مما ضمّنه ما يلي[3]:

أولاً: النصوص القرآنية

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۞ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[4].

---

(١) م ن، الخطبة: ٢٢٢.
(٢) م ن.
(٣) بحار الأنوار، باب آداب المشي، ج ٧٣.
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٣٧ ـ ٣٨.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾[٢].

ثانياً: النصوص الروائيّة

جاء في مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام:

«إن كنتَ عاقلاً فقدِّم العزيمةَ الصحيحةَ والنيةَ الصادقةَ في حين قصدك إلى أي مكان أردتَ، وانهَ النفسَ من التخطي إلى محذورٍ، وكن متفكراً في مشيك، ومعتبراً لعجائب صنع الله عزّ وجلّ أينما بلغتَ، ولا تكن مستهتراً ولا متبختراً في مشيتك، وغُضَّ بصرك عمّا لا يليق بالدين، واذكر الله كثيراً فإنه قد جاء في الخبر أنّ المواضع التي يُذكر الله فيها وعليها تَشهد بذلك عند الله يوم القيامة، وتستغفر لهم إلى أنّ يدخلهم الجنة. ولا تكثر الكلام مع الناس في الطريق، فإنّ فيه سوءَ الأدب. وأكثر الطرق مراصدُ الشيطان ومتجرته، فلا تأمن كيده. واجعل ذهابك ومجيئك في طاعة الله والمشي في رضاه، فإنّ حركاتك كلّها مكتوبة في صحيفتك، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣]، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[٤].

وفي نوادر الراوندي: بإسناده، عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام،

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**بئس العبد عبد تبختر واختال، ونسي الكبير المتعال**».

وعن علي عليه السلام، قال: اعتمّ أبو دجانة الأنصاري وأرخى عذبة العمامة من خلفه بين كتفيه، ثمّ جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ هذه لمشيةٌ يبغضها الله تعالى إلا عند القتال**».

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**كان علي بن الحسين عليهما السلام لا يسبق يمينُهُ شمالَهُ**».

وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «**سرعةُ المشيِ يذهب ببهاء المؤمن**».

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس للنساء سراة الطريق، ولكنّ جنباه**». يعني بالسراة وسطه[1].

فالمشي ـ إذاً ـ معبِّر عن شخصية الإنسان، ولا ينبغي أنّ يمشي الإنسان كيفما اتفق. بل ينبغي له أنّ يتكامل في نفسه، وأن يعبر عن تكامله بمظهره، ومنه المشي فـ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾.

الأدب الثاني: الغض من الصوت

جاء هذا الأدب في قوله تعالى حكايةً لعظة لقمان عليه السلام: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾. وكما ذكرنا في المشي أنه تعبير عن شخصية الإنسان، من حيث الاستقامة والانحراف، ومن حيث الكمال والنقصان، كذلك الصوت، فإنه تعبير عن ذلك.

ولقمان عليه السلام، يوصي ولده ـ هنا ـ بأنّ مستوى صوته ونبرته ميزانٌ

(١) جميع هذه الأخبار في بحار الأنوار، باب آداب المشي ج ٧٣.

لكماله، فكلّما كان أخفض كان أكمل، وكلّما كان ذلك أعلى كان أقرب إلى النقص والاعوجاج.

ولسنا بحاجة إلى جهدٍ جهيدٍ في بيان أنّ العقلاء يستهجنون رفع الصوت بغير مسوِّغ، من خطابة أو درس أو إنقاذ...، لأنّ ذلك يعني أنّ من يرفع صوته يكشف عن عدم احترامه للآخرين، وقبل ذلك عدم الاحترام لنفسه، حيث لا يعنيه الانطباع لدى الناس عن شخصيته. كما أنّ الناس يحبون ويقدرون غض الصوت بمعنى خفضه.

ويستعين لقمان في رسم صورة مقززة لواقع الصوت المرتفع بصوت الحمير وبشاعته واستنكار الناس له[1].

---

(١) قال الدكتور زغلول النجار:

... الدراسات الحديثة تؤكّد أنّ الضوضاء صورة من صور تلوث البيئة، وأن هناك علاقةً وثيقةً بين الاستقرار البدني والنفسي للكائن الحيّ ـ بل وللجمادات ـ في وسط ما، وبين مستوى الضجيج السائد في ذلك الوسط. فالضوضاء الصاخبة تؤدّي إلى خللٍ واضحٍ في أنشطة ووظائف الأجهزة المختلفة في جسم الإنسان، من مثل زيادة إفراز مادة الأدرينالين مما يؤدّي إلى توتره العصبي، ويقظته الزائدة، وشدة انتباهه فوق الطاقة، مما يزيد من إرهاقه، وشعوره بالإعياء الفائق عن الحد. فجسم الإنسان ـ كأي كائن آخر ـ يستقبل الموجات الصوتية كما يستقبل غيرها من صور الطاقة بدرجات متفاوتة، وينتج عن ذلك فيه قدرٌ من ردود الأفعال المتباينة في مختلف أجهزته، خاصّة في كلّ من جهازه العصبي المركزي، وجهازه الدوري، وجهازه السمعي، وفي أنظمة غددها وإفرازاتها الداخلية، وذلك لأنّ الأصوات تحدث تغيرات في ضغط الهواء بالزيادة (التضاغط) والنقصان (التخلخل)، وتندفع هذه التغيرات على هيئة موجات من الذبذبات المنتشرة في كلّ الاتجاهات من مصدر الصوت بسرعة تقدر بنحو ٣٣٠ متراً في الثانية المتوسطة). تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، ج ٢، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

وقال: وللمقارنة بين شدة موجتين صوتيتين تستخدم وحدة خاصّة تسمى البل (Bel) نسبة إلى جراهام بل (Graham Bell) مخترع التليفون. وهذه الوحدة تستخدم كذلك كوحدة لقياس كل من شدة الصوت والقدرة على السمع. ولما كانت هذه الوحدة كبيرة نسبياً فقد اقترح قسمتها على عشرة، واستخدام هذه الوحدة العشرية التي عرفت باسم عشر البل ـ الديسيبل (Decibel) ـ في=

= المقارنة بين شدة صوتين من الأصوات.
وأقل تردد يمكن لأذن الإنسان أنّ تسمعه وهو ٢٠ هيرتز حركة طبلة الأذن كبيرة، ولكنّ إذا زادت الضغوط الصوتية إلى أعلى من ١٦٠ ديسيبل يمكن أنّ تتمزق طبلة الأذن بالكامل) ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.
وقال: ... وقد ثبت بالقياس أنّ شدة صوت نهيق الحمار تتجاوز المائة ديسبيبل، وأن كثرة التعرض لهذا الصوت قد يصيب الإنسان بالعديد من الأمراض) ص ٥٠٠.

(الآية ٢٠)

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾

بعد أنّ فرغ السياق القرآني السابق من حكاية مواعظ لقمان عليه السلام وحكمه، انتقل إلى محور آخر يصبّ في اتجاه ذكر المسوّغات التي ينبغي أنّ يضعها المسلم والمؤمن في حسبانه ليلتزم السير في طريق الحكمة، الذي هو طريق الهداية. ويبتعد جداً عن أسباب الغواية والانحراف، بتجنب الأساليب الملتوية والجدل العقيم والمنابع الفكرية الخاطئة.

وجاءت هذه الآية في فقرتين:

الفقرة الأولى: التحفيز

اعتمد الحقُّ صيغة التساؤل، للحثّ على التأمل والتدبر والتعقل، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ وفي هذه الفقرة أمور:

الأمر الأول: الحثّ على التفكير

من خلال التساؤل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾. وهو تساؤل إنكاري، يراد منه

الحض والحث على إعمال الرؤية، التي يراد بها هنا التفكير والرؤية العقلية، وليس خصوص الرؤية البصرية، التي قد يحرم منها بعض الناس، ومع ذلك فإنهم عقلاء قادرون على النظر والتفكير.

الأمر الثاني: تسخير السموات والأرض

وذلك من خلال قوله تعالى ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وهذا يعني أنّ العلاقة بين الكون والإنسان هي علاقة (تسخير)، يكون الإنسان فيها سيّد الموقف، والمتصرف في كلّ ذلك بإذن الله وأمره. أي إنّ الله سبحانه هيأ الكون كله ليستثمره الإنسان، وينشط فيه وبه، فلا مجال للكسل والفشل (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والفشل)[1]. فكل ما في السموات، كما يستفاد من تعبير ﴿مَا﴾، متاح للإنسان أنّ يهيمن عليه، وكذلك جميع ما في الأرض.

الأمر الثالث: إسباغ النعم الظاهرة والباطنة

وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. وهذا يعني أنّ رحمة الله بالناس وحبه لهم دعاه إلى أنّ يغدق عليهم النعم المادية والمعنوية، ذات النفع الشامل والمحدود. ليستوعب هذا التعبير:

١ ـ النعم الملكية والملكوتية

٢ ـ النعم المادية والمعنوية

٣ ـ النعم المعروفة والمجهولة

وكدليل على تنوع نعم الله وتفاوت أهميتها نسوق حادثة تاريخية أراد

(١) من دعاء السحر شهر رمضان، المصباح للشيخ الطوسي، ص ٥٩٧.

النبي ﷺ أنّ يعرِّف أصحابه بنعم الله من جهة، وبمنزلة الإمام علي عليه السلام وتميزه منهم، من جهة ثانية، وجاء فيها:

... أقبل ﷺ على من شهده من أصحابه، فقال: إني لأتخوُّلكم بالموعظة تخولاً مخافة السأمة عليكم، وقد أوحى إليَّ ربي (جلّ جلاله) أنّ أذكِّركم بالنعمة، وأنذركم بما اقتص عليكم من كتابه، وتلا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ [الآية]. ثمّ قال لهم: قولوا الآن قولكم: ما أول نعمة رغّبكم الله فيها وبلاكم بها؟

فخاض القوم جميعا فذكروا نعم الله التي أنعم عليهم، وأحسن إليهم بها؛ من المعاش والرياش والذرية والأزواج إلى سائر ما بلاهم الله (عزّ وجلّ) به من أنعمه الظاهرة.

فلمّا أمسك القوم أقبل رسول الله ﷺ على علي عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن ، قل فقد قال أصحابك.

فقال: فكيف لي بالقول ـ فداك أبي وأمي ـ وإنما هدانا الله بك. قال: ومع ذلك فهات! قل ما أول نعمة بلاك الله (عز وجل) وأنعم عليك بها؟

قال: أنْ خلقني جلّ ثناؤه، ولم أك شيئاً مذكوراً.

قال: صدقت. فما الثانية؟

قال: أنّ أحسن بي إذ خلقني فجعلني حياًّ لا ميتاً.

قال: صدقت ، فما الثالثة؟

قال: أنْ أنشأني، فله الحمد في أحسن صورة وأعدل تركيب.

قال: صدقت ، فما الرابعة؟

قال: أنّ جعلني متفكّراً راغباً لا بلهةً ساهياً.

قال: صدقت ، فما الخامسة؟

قال: أنّ جعل لي شواعر أدرك ما ابتغيت بها، وجعل لي سراجاً منيراً.

قال: صدقت ، فما السادسة؟

قال: أنّ هداني ولم يضلّني عن سبيله.

قال: صدقت ، فما السابعة؟

قال: أنّ جعل لي مرداً في حياة لا انقطاع لها[1].

قال: صدقت ، فما الثامنة؟

قال: أنّ جعلني مَلِكاً مَالِكاً لا مملوكاً.

قال: صدقت ، فما التاسعة؟

قال: أنّ سخر لي سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقة.

قال: صدقت ، فما العاشرة؟

قال: أنّ جعلنا سبحانه ذكراناً لا إناثاً[2].

قال: صدقت ، فما بعد هذا؟

---

(١) أي إنه تعالى سيحشره ويرده في حياة خالدة.

(٢) ليس في هذا القول احتقارٌ للإناث، وإنما هو بصدد ذكر النعم، وبطبيعة الحال فإنّ الحياة الاجتماعية تجعل الفرصة للذكور متاحة أكثر لفعل الخير العامّ، لذلك حَمِد أمير المؤمنين عليه السلام ربَّه تعالى أنّ جعله ذكراً، نقول ذلك لأنّ منطق القرآن الذي ينطلق منه علي عليه السلام في حكمه على الأمور يؤكّد على أنّ الأكرمية عند الله للتقوى.

قال: كثرت نعم الله يا نبي الله فطابت، وتلا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١].

فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «**لتهنك الحكمة، ليهنك العلم يا أبا الحسن! وأنت وارث علمي، والمبيِّن لأمتي ما اختُلف فيه من بعدي. من أحبك لدينك، وأخذ بسبيلك، فهو ممن هُدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ، ومن رغب عن هواك وأبغضك لقي الله يوم القيامة لا خلاق له**»[٢].

ومن هنا، فقد تعدّدت التفاسير في ما هو المقصود من هذه النعم، فقال صاحب مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث:

أ ـ فالظاهرة: ما لا يمكنكم جحده؛ من: خلقكم، وإحيائكم، وإقداركم، وخلق الشهوة فيكم، وغيرها من ضروب النعم.

ب ـ والباطنة: ما لا يعرفها إلا من أمعن النظر فيها.

وقيل: الباطنة مصالح الدين والدنيا مما يعلمه الله، وغاب عن العباد علمه، عن ابن عباس. وفي رواية الضحاك عنه قال: سألت النبي ﷺ عنه فقال: يا بن عباس! أمّا ما ظهر فالإسلام، وما سوى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق. وأمّا ما بطن فستر مساوئ عملك، ولم يفضحك به.

يا ابن عباس! إنّ الله تعالى يقول: ثلاثة جعلتهن للمؤمن، ولم تكن له:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) الأمالي، للشيخ الطوسي الابن، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢.

الأول: صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله.

الثاني: وجعلت له ثلث ماله أكفِّر به عنه خطاياه.

والثالث: سترت مساوئ عمله، ولم أفضحه بشيء منه، ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم).

وقيل: الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة: الشفاعة ، عن عطا.

وقيل: الظاهرة نِعَم الدنيا. والباطنة: نِعَم الآخرة.

وقيل: الظاهرة نِعَم الجوارح. والباطنة: نعم القلب، عن الربيع .

وقيل: الظاهرة ظهور الإسلام، والنصر على الأعداء. والباطنة: الإمداد بالملائكة، عن مجاهد.

وقيل: الظاهرة حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة، عن الضحاك .

وقيل: الظاهرة القرآن. والباطنة: تأويله ومعانيه.

وقال الباقر عليه السلام: «**النعمة الظاهرة النبي صلى الله عليه وآله وما جاء به النبي من معرفة الله ، عزّ وجل، وتوحيده. وأمّا النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت، وعقد مودتنا**» انتهى.

ولكنه رحمه الله يرى في كلّ ما قيل أنها تطبيقات لمعنى واسع وشامل لا يسوغ حصره في ما ذكره المفسرون، لأنّ نعم الله لا تُعدّ ولا تُحصى - ويُعرف بعضها ويُجهل أكثرها، لذلك فإنه أصاب حين علّق على ذلك بقوله:

(ولا تنافي بين هذه الأقوال، وكلها نعم الله تعالى، ويجوز حمل الآية على الجميع) انتهى.

الفقرة الثانية: جهل المنحرفين وأسبابه

ممّا ابتُلي به الإنسان على الدوام (الجهل)، فإنّ هو حكَّم هذا الجهل فيه، فالويل له في العاجل والآجل. وتأسيساً على هذا، نبهت الآية الشريفة إلى السفيه يختار طريقاً لا يؤدّي به إلى الحكمة، لأنه اختار مصادر لمعرفته ليس من شأنها أنّ تهديه إلى بصيرة من عمى، والأسباب التي ابتُلي بها هؤلاء السفهاء ثلاثة:

السبب الأول: الجهل

وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وإذا كان الحكيم لا يتكلّم في المسائل الصغيرة إلا أنّ يحيط بها علماً، فكيف به في مسألة كبرى هي أعظم المسائل على الإطلاق، أعني (الله تعالى). لذلك فإنّ من يجادل ويخاصم ليقبل أو يرفض في مسائل التوحيد وهو لا يعتمد في ذلك على علم حقيقي فإنه ليس حكيماً.

وقد يقال بأنّ العلم هنا أريد به ما كان مصدره العقل، الذي هو أهمّ ما يملكه الإنسان، والحكيم خصوصاً، لمعرفة نفسه وما يجهله.

السبب الثاني: فقدان الهداية

الإنسان لا يعتمد على العقل وحده في التعرّف على الأشياء، بل إنّ ثمة مصادر أخرى تعين العقل على تحصيل المعرفة للإنسان، من قبيل (الفطرة والفؤاد)، اللذَيْن من خلالهما يغوص الإنسان في عوالم معرفية لا يتيسر الخوض فيها بمعونة العقل. كما نجده في الإلهامات والغريزة ونحو ذلك.

والإنسان قد يحرم من معرفة عقلية، لكنه يحظى ـ بدل ذلك ـ بمعرفة فطرية أو ما تطلق عليه الآية الـ﴿هُدَىٰ﴾. فينتقل من الجهل إلى المعرفة، فيبدل سفهه الحكمةَ. وقد ورد في عن رسول الله ﷺ في معنى شرح الصدر أنه: (نور يقذفه الله في قلب من يشاء)[1]. وقد قال تعالى، حاكياً منطق موسى عليه السلام في سجاله مع فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

السبب الثالث: عدم اعتماد الوحي

ثمة مصدرٌ معرفيٌّ ثالثٌ يضاف إلى العقل والفطرة، وهو (الوحي). وذلك أنّ العوالم تفوق قدرة الإنسان عن أنّ يحيط بها، مهما بلغ من قوة العقل والفؤاد، فلا مناص من الاعتماد على الله تعالى بأنّ يؤمِّن له ما لا قدرة له للوصول إليه، وهذا أحد أسباب الحاجة إلى الأنبياء عليهم السلام الذين يتنزَّل إليهم الوحي من الله، وهي معرفة خاصّة لا يحظى بها غيرهم، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[3]. فالأنبياء ـ إذاً ـ يعلّموننا معارف ليس من شأننا الوصول إليها، وإن اجتمع الإنس والجن.

ومن هنا جاءت الآية مورد البحث لتقول إنّ على الإنسان الراغب

---

(١) بحار الأنوار، الجزء ٦٥، الباب الرابع والعشرون (الفرق بين الإيمان والإسلام ...)، تفسير قوله تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام ...).

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

في التحدث عن الله تعالى أنّ يكون عالماً أو ملهَماً أو يوحى إليه مباشرة أو يعتمد على نبي يوحى إليه أو إمام ملهَم لذلك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

ومما نستفيده من الآية الكريمة أنّ على الإنسان أنّ يتواضع في دعاواه، فلا يتصدّى للحديث في ما لا يعرفه، ومن ذلك الأحكام الشرعية والمفاهيم الدينية، التي تتحدّث بطبيعتها عن مصالح ومفاسد وقيم تتجاوز عالم الشهادة الذي يقصر الإنسان عن الإحاطة به فضلاً عن الغيب الذي لا يحيط بشيء منه. ومن هنا بنيت المعرفة الدينية على التسليم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[1]. وليس ذلك نابعاً من حرمان الإنسان من هذه المعرفة ـ كيف ودين الإسلام يقوم على أساس تفضيل الإنسان العالم على الجاهل؟ وإنما لأنّ قدرة الإنسان محدودة في الإحاطة العلمية بكلّ شيء.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(الآية ٢١)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

تستعرض هذه الآية معالم الجهل الذي ابتلي به فريق السفهاء، وخلاصته أنّ هؤلاء يرفضون الحقائق المعروضة عليهم حتى لو كانت نازلة من عند الله تعالى. وكفى به سبباً للقبول والإذعان، لكنّ معاصيَ هؤلاء وذنوبهم وانشدادهم لماضيهم من جهة ـ خوفاً من المستقبل المجهول، أو رغبة في المحافظة على مكاسبهم الحالية، أو انكساراً نفسياً أمام الآباء والأجداد ـ وحاجتهم إلى تبرير مواقفهم من جهة ثانية، دعتهم إلى أنّ يبحثوا عمّا يصلح ـ بنظرهم ـ للاستدلال على ما يلزمهم العمل به، وهو أنهم يتبعون (آباءهم). فيأتي الردّ الإلهي أنّ احترام الآباء، وإن كان فعلاً حميداً، لكنه مشروطٌ بأنّ لا يكون بطريقةٍ باطلةٍ، أو أنّ يكون مؤدّياً إلى خلاف المصلحة. فإذا كان كذلك فهي دعوة شيطانية وليست مراعاةً لقيمة أخلاقية.

فالآباء ليسوا جهة تصلح لأنْ تُجعل في مقابل الله تعالى، لأنّ الله حقّ محض، فـ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. والآباء إنما يحترمون، في الحياة والممات، بقدر ما يكون احترامهم معبِّراً عن الحق.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

لطائف فنية:

مما نلحظه في تعبير الآية:

١ ـ أنّ الميزان في حقانية الحقّ هو القرب من الله، لذلك فإنهم طولبوا بالإيمان بـ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. ولا يمكن أنّ يطالب الله أحد بالإيمان المطلق بشيء إلا أنّ يكون حقاً، وإلا كان ذلك تحكماً من جهة، أو دعوةً إلى باطل، وحاشا لله أنّ يمارس هذا أو ذاك.

٢ ـ أنّ هؤلاء السفهاء لم يذكروا دليلاً حقيقياً يلزمهم اتباع الآباء إلا كونهم (آباء)، وليس ذلك دليلاً من قريب ولا من بعيد. فمنطقهم هو ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، فهو اتباع أعمى خالٍ من التفكير والنظر. والحكيم لا يمكن أنّ يتبع من هو مثله بطريقة عمياء، لأنّ ذلك هو السَّفَهُ بعينه.

٣ ـ أنّ الاستجابة إلى الباطل والخرافة هي استجابة لدعوة شيطانية، وإن كان الداعي لها ظاهراً هو الإنسان، قريباً كان أو بعيداً. لذلك صح أنّ يكون التعبير في الآية: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. لنستخلص:

أولاً: أنّ الدعوات الباطلة كلّها ليست سوى دعوات شيطانية ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾.

ثانياً: أنّ الدعوات الشيطانية يمكن أنّ تكون قولية من شخص إلى آخر، وفعلية يمارسها أحد لتنتشر شيئاً فشيئاً، ومشاعر تتحكّم في وجدان الإنسان فتبعث فيه الحوافز على قول أو فعل.

ثالثاً: أنّ مآل الفعل الخاطئ، بالتزام الفكر المنحرف، هو العذاب المحقّق والشديد، الذي هو نار تحيط بصاحبها، شعر بذلك أم لم يشعر.

(الآية ٢٢)

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾

تتحدّث هذه الآية عن فريق الحكماء، نظرياً وعملياً، وذلك من خلال الالتزام الفكري والعملي بمقتضياته ولوازمه، وذلك في جُمَل:

الجملة الأولى: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

بهذه الجملة بيّنت الآية الكريمة أنّ أهل الإيمان والحكمة ترجموا عملياً قناعاتهم الإيمانية بالاستسلام لله تعالى بشكل كامل، وذلك من خلال الانصياع المطلق لأوامره ونواهيه. واختير للكشف عن ذلك تعبيران اثنان:

١ ـ ﴿يُسْلِمْ﴾، ودلالته واضحة ليس على الانصياع فحسب، بل على استمراره ودوامه، وذلك لما اختير الفعل المضارع.

٢ ـ ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾، ودلالته على التسليم التامّ واضحةٌ أيضاً، لأنّ الوجه هو أشرف الأعضاء الظاهرة، فإذا أردنا التعبير عن الاهتمام وحسن الاستقبال والرضا والحب والإنصات فإننا نعبّر عن ذلك بوجوهنا، بينما إذا أردنا خلاف ذلك نشيح بوجوهنا للدلالة على السخط والنقمة.

كما أنّ الآية اختارت التعدية بـ﴿وَإِلَى﴾ دون اللام، وذلك للدلالة

على أنّ هؤلاء متوجّهون إلى الله أولاً، ويسعون دائماً في تخيُّر ما من شأنه الإيصال إلى الله تعالى قلباً وقالباً ثانياً. ولو اختيرت اللام لما أدى أزيد من التسليم والخضوع له سبحانه.

ولزيادة إيضاح المطلب نقول:

أولاً: دلالة: ﴿يُسْلِمْ﴾

مادة يسلم مشتقة من (سلم) بمعنى الخلو من العيوب والآفات الظاهرة والباطنة. قال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[١]، أي لا عيب فيها. وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢]، أي خلوّ القلب في محبته وولائه إلا لله تعالى. وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾[٣]، وهذا عن الجنة حيث لا آفة فيها ولا عيب في أهلها.

وسلامة كلّ شيء تُقاس بما جعل له من غاية، فإنّ انتهى إليها أو أدّى إليها فقد سلم. فسلامة البدن خلوه من الأمراض، وسلامة العقل خلوه من الجنون ونحوه، وسلامة الإنسان انتهاؤه إلى غايته التي خُلِق من أجلها؛ وهي (خلافة الله)....

ومن الطبيعي أنّ يكون مدلول ﴿يُسْلِمْ﴾ هنا التوحيد التامّ والإخلاص الكامل. وفي حكمة القرآن يجب على الإنسان أنّ يسلِّم لله فيؤمن بحقائقه وينشد وعوده الصادقة، بتوفره على الأسباب والمقتضيات، وتجنبه الموانع والعقبات. وهذا يتطلب:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧١.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٦.

١ ـ العمل الفكري (المعرفة)، ليتجنّب (الخطأ).

٢ ـ العمل الروحي والتربوي (التهذيب والتزكية)، ليتجنّب (الخطيئة).

وبهما معاً يتحقّق علم الحكمة، وتتجسّد حكمة العمل. ودعوة الإسلام هي الاستجابة الشاملة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[3].

ثانياً: دلالة ﴿وَجْهَهُۥ﴾

قد يُراد بـ(الوجه)، في اللغة العربية، ما هو معروف من جهة أمامية نستقبل بها الغير، وتكون في الرأس. باعتباره أبرز ما يعبر عن الإنسان حيث به يرى وبه يتكلم وبه يظهر رضاه وسخطه... قال الراغب في المفردات:

لّما كان الوجه أول ما يستقبلك، وأشرف ما في ظاهر البدن، استعمل في مستقبِل كلّ شيء وفى أشرفه ومبدئه، فقيل: وجه كذا، ووجه النهار. وربما عُبِّر عن الذات بالوجه في قول الله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[4] قيل: ذاته، وقيل أراد بالوجه ههنا: التوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، ﴿يُرِيدُونَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾[١]، قيل: إنّ الوجه في كلّ هذا ذاته، ويعني بذلك كلّ شيء هالك إلا هو، وكذا في أخواته) انتهى.

وعلى أي حال، فالمطلوب إسلامياً هو الاستسلام لله بالجوارح والجوانح معاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[٢]. وهو يتوقّف على تحقيق الإخلاص كما أراده الله تعالى من الناس، حيث يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[٣].

ويستلزم ذلك الإعراضَ عن غير الله عزّ اسمه، أياً كان وتحت أي ظرف، لأنّ ذلك هو اللازم المنطقي للإخلاص لله تعالى، قال العلّامة الطباطبائي ﵀: وإسلامُ الوجهِ إلى الله تسليمُهُ له، وهو: إقبالُ الإنسان بكلّيّته عليه بالعبادة وإعراضُهُ عمّن سواه)[٤].

الجملة الثانية: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾

قد يكون التسليم لله تعالى محصوراً في العقل والفؤاد، بما يكشف حسن الذات، لكنّ المطلوب ليس هذا فحسب، بل أنّ يضاف إلى ذلك حسن الفعل، من خلال الفعل الحسن، وهو الأعمال الصالحة. لذلك أضافت الآية شرطاً جديداً وهو أنّ يكون المسلمُ وجهه إلى الله من

(١) البقرة: ١٥، القصص: ٨٨، الكهف: ٢٨، الإنسان: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٣) سورة البينة، الآية: ٥.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، ذيل الآية مورد البحث.

المحسنين. ونلحظ هنا أمرين:

الأول: أنّ تعبير (محسن) جاء مطلقاً بمعنى أنّ الإحسان مطلوب بنحو الإطلاق، ليكون مدلولُهُ شمولياً لا يقف عند حدٍّ، فالحكيمُ محسنٌ إلى نفسه، حاضراً ومستقبلاً، بالعلم الصحيح وبالعمل الحسن، كما أنه محسنٌ إلى غيره بأداء حقه إليه، خالقاً أو مخلوقاً.

الثاني: اختير لذلك صيغة الاسم للدلالة على الرسوخ والثبات لحالة الإحسان فيه.

وقد تحدّثنا سابقاً عن الإحسانِ وأنه سِمةٌ أساسيةٌ من سمات أهل الحكمة، فلا نعيد.

الجملة الثالثة (العاقبة): ﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾

إن من الطبيعي أنّ يكون لكلّ فعلٍ عاقبةٌ تتناسب وطبيعته، حسنةٌ إنّ كان حسناً، وسيئةٌ إنّ كان الفعل سيّئاً. ومن هنا فإنّ الآية ختمت ببيان عاقبة أولئك الحكماء الذين أحسنوا إلى الآخرين بإشاعة الحقّ فيهم، وقبل ذلك إلى أنفسهم حيث التزموا الحقّ بكلّ صرامة، في جوانحهم وجوارحهم. فلم يكن لهم من مكافأة إلا أنّ يجعلهم الله في جنان الفردوس تطبيقاً لسُنّته في خلقه وهي لا تختلف ولا تتخلّف فـ:﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

(الآيتان ٢٣، ٢٤)

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

تنتقل هذه الآية بالقرّاء والسامعين، من المؤمنين، بخاصّة في زمن العنت والعناء، جرّاء ما يمارسه الكفار والمنافقون من مناكفات ومزاحمات في سبيل قطع الطريق على الدعوة إلى الله، تنتقل بهم إلى حكاية ما خاطب به الله تعالى نبيّه حيث أبان له حقائق من شأنها أنّ تبعث إلى تهدئة خاطر النبي ﷺ، وخواطر المؤمنين، بأنّ لا يكون كفر الكافر سبباً للحزن والأسى فـ: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ إنما اختار لنفسه سبب هلاكه، فلا دور لك، يا رسول الله ، ولا أنتم أيها المؤمنون، في ذلك. وعليه، ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾. فإنّ قبح الذات والفعل، في الكافر، لا يمكن أنّ تعرقل مسيرة الإسلام والإيمان، فـ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1]، وبالتالي فهي ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وفي الآية محطات ينبغي لتالي القرآن أنّ يقف عندها ويتأملها:

المحطة الأولى: البعد الإنساني في النبي ﷺ

أبانت الآية الكريمة عن هذا البعد النبيل في شخصية النبي ﷺ،

(١) سورة طه الآية: ١٣٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

بالكشف عن مدى الحزن الذي كان يشعر به بسبب كفر الكافرين، فهو يأسى لهم بدرجة تتدخل العناية الإلهية في تهوين الأمر عليه. وقد أبان الله عن ذلك بقوله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾.

وهذا ينسجم تماماً وشخصيته الكريمة ونبل مشاعره الذي يتناغم مع ما جاء عنه ﷺ من قوله: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[1]. ويتناغم مع ما حكاه القرآن عنه ﷺ في ما واساه به ربه تعالى بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[2]، ويتناغم وما وصفه به في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

المحطة الثانية: الإسلام أولاً

إذا كان الرسول ﷺ يحزن لكفر الكافر فهو لسببين اثنين:

الأول: ذاتي، يرتبط بشخصية النبي الكريمة والأبوية، وهو ما نوّهنا به في المحطة الأولى.

الثاني: موضوعي، يرجع إلى حرص النبي على مسيرة الإسلام والحق أنّ تكتمل، لعلمه ﷺ بأنّ نجاة الناس لا تتيسر بغير اتباع الحقّ والهدى، وهو بدوره محصور ومقصور على القرآن النازل من عند الله متضمّناً ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[4].

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، باب مكارم أخلاقه ﷺ، ص ٢٠٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩.

وليس معنى اشتمال القرآن على الأقوَم أنّ في غيره استقامة، وإنما هو تعبير أريد من خلاله الكشف عن عمق صوابية المضمون القرآني، لأنّ ما خالف كتاب الله فهو زخرف.

ومامن شكّ في أنّ كفرَ الكافر هو شكلٌ من أشكال العراقيل والعقبات التي تحول دون انتشار الحقّ والهدى بيسر وسهولة.

المحطة الثالثة: الدنيا متاع قليل

إذا كان للإنسان أنّ ينشد مصلحته فإنّ عليه أنّ يصل إليها عبر الأسباب المشروعة، وفي الفرص المتاحة، فلا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد. وعلى الإنسان الكافر أنّ يعي أنّ مدّة بقائه في الدنيا ونعيمه فيها ليست شيئاً يُذكر في مقابل ما سيناله المؤمن بإيمانه، فتمتُّع الكافر بالدنيا قليل في طبيعته، وقليل في مكانه، وقليلٌ في مدته. وليس هذا ما ينشده العاقل الحكيم.

المحطة الرابعة: عذاب الآخرة شديد

الإنسان الحكيم لا يمكن أنّ يعرِّض نفسه للعذاب القليل فضلاً عن الكثير. وهذا ما يوعد به الله تعالى الكفار، بكفرهم، فتمتعهم في الدنيا، مهما طال، قليلٌ، أمّا عذابهم في الآخرة فغليظٌ وشديدٌ.

لطائف فنية ومضمونية:

الأولى: رأفة الله بنبيّه

في الآية (٢٣) دلالةٌ على رأفة الله ورحمته بنبيه، وذلك بمواساته تعالى لنبيه حيث يقول ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾، متبعاً إياه ببيان ما سيحلّ بهؤلاء العصاة الكفرة بقوله ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

الثانية: النبي ﷺ بشر متميزٌ

في الآية أيضاً دلالةٌ على أنّ النبي ﷺ بشرٌ يلحقه ما يلحق الناس من مشاعر وأحاسيس، فهو يحزن كما أنّ الناس يحزنون، وبالتالي فإنه يفرح كما يفرحون. وهذا يؤكّد أنه بشر له ما للناس، وعليه ما عليهم، بفارق أنه مصطفى من ربه يمتاز منهم بمرتبة كمالية عالية صار معها جديراً بحمل أمانة النبوة والرسالة، دون أنّ يخرج بها عن طابعه البشري ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1].

الثالثة: حتمية المعاد

في الآية دلالةٌ على أنّ الناس محشورون إلى الله تعالى بنحو القطع واليقين، المستلزم طبعاً إثبات المعاد. فالناسُ راجعون إلى مصير حتماً، ولكنّ الآية كما لو كانت بصدد بيان المرجوع إليه وأنه الله تعالى.

الرابعة: المعاد إلى الله

في الآية الكريمة دلالةٌ على حصر المعاد بـ(إلى الله) دون غيره، وذلك بسبب تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيْنَا﴾ على المبتدأ ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾.

الخامسة: المعاد للحساب

في الآية دلالةٌ على طبيعة المعاد وأنه محاسبة للناس على أعمالهم، حيث يقول تعالى ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾. ثمّ إنّ محاسبتهم هذه ستشمل جميع أعمالهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

السادسة: التثبّت في الأحكام

في الآية توجيه للناس أنّ لا يتسرعوا في الحكم على الأشياء والأشخاص إلا بعلم، وأن يسعوا في تحصيل العلم إذا كانوا بصدد الحكم. فلا مجال للتخرُّص والظنون.

السابعة: طريق ذات الشوكة

في الآية إلماحٌ إلى أنّ على النبي ﷺ، ومن يدعو بدعوته، أنّ يتوقّع العراقيل أولاً، وأن لا تشغله العراقيل والعقبات عمّا هو بصدده ثانياً. كما أنّ فيها إشعاراً بأنّ الوضع النفسي للداعية يؤثّر سلباً وإيجاباً على مسيرة الدعوة.

الثامنة: اختيارية الإيمان والكفر

في الآية دلالةٌ على اختيارية الكفر، والإيمان بالتلازم، وأن حالة التدين أمر يختاره الإنسان نفسه، دون فرض من الخارج. وعليه، فإنّ علينا ـ كدعاة ـ أنّ نولي ذلك عناية فائقة، فلا نهمل التودد للناس، دون أنّ يستلزم ذلك التأثير فيهم، فلسنا أفضل حالاً من رسول الله محمد ﷺ، من حيث محبته للناس وقدرة التأثير فيهم، لكنّ يبقى اختيار الإيمان أو الكفر بيد الإنسان نفسه. فما دام الله تعالى لم يفرض على أحد أنّ يؤمن أو أنّ يكفر، فالأجدر بنا أنّ نعمل على الدعوة إلى الإيمان والدين، وليس علينا أنّ نجعلهم متديّنين بالإكراه، فـ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

التاسعة: إطلاق القدرة الإلهية

في الآية دلالةٌ على سعة قدرة الله وقيوميته المطلقة، وأن أحداً لا يخرج عن نطاق القدرة الإلهية فسـ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾. وعليه، فإنّ على هؤلاء الكفار أنّ يدركوا بوضوح أنّ كفرهم لن يعيق مسيرتهم الوجودية نحو الله عزّ اسمه. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].

العاشرة: المسار والمصير

في الآية دلالةٌ على أنّ على الناس أنّ يدركوا أنّ مصيرهم الأخروي مرتبط بشكل وثيق بأعمالهم في الدنيا، فلمن آمن مسار ومصير، ولمن كفر مسار ومصير آخر.

الحادية عشرة: التفاعل بين العلم والعمل

في الآية دلالةٌ على أنّ معرفة الناس بعلم الله تعالى بما يعملون يؤثّر في سلوكهم، فإذا ما أمعن العاصي في معصيته فإنّ ذلك دليلٌ على أنه جاهل بهذه الحقيقة أو غافل عنها. ومن ثمّ فإنّ من وسائل التربية الصحيحة نشر معرفة الله في أوساط البشر.

الثانية عشرة: علم الله الشامل وأثره التربوي

في الآية دلالةٌ على أنّ علم الله تعالى بما يعمله الناس ليس من جنس ما نعرفه نحن، لأنه تعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ومن شأن هذه المعرفة إذا استقرّت في النفس البشرية أنّ تكون على حذر شديد ودقة متناهية في اختيار العمل الصالح في ظاهره وباطنه.

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

الثالثة عشرة: الأعمال جوهر لا مظهر

في الآية إلماحٌ إلى أنّ حقيقة العمل ليست في مظهره، وإنما في جوهره، فـ(إنما الأعمال بالنيات)[1]. وذلك أنّ الله عزّ وجلّ توعد الكفار بأنه سينبئهم بما عملوا، معللاً ذلك بأنه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، في إشارة إلى أنّ حقيقة العمل إنما هي في القصد والغاية. وبالتالي فإنّ علينا أنّ نسعى إلى تطهير بواطننا من النوايا الفاسدة، لأنّ فسادها سيؤثر سلبياً في العمل مهما كان ظاهره حسناً.

الرابعة عشرة: علم الله بذات الصدور

في الآية إلماحٌ إلى أنّ الإنسان قد يخلط، أو تختلط عليه، أهدافه، بحيث يجهل أو يتجاهل نواياه ودوافعه. فهؤلاء الكفار عللوا كفرهم بقولهم ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾، وظاهره أنّ سُنَّة آبائهم في الكفر هي التي تحملهم على أنّ يكونوا كافرين، بينما تهديد الله ونكيره عليهم جاء فيه قوله تعالى أنه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وهو واضح الدلالة في أنّ تعللهم الظاهري ليس هو السبب الحقيقي وراء كفرهم.

وفي ذلك تنبيه لنا إلى أنّ لا نكتفي بما يظهر لنا من أسباب، بل إنّ علينا أنّ نسبر الأغوار لنتعرف على ما يمكن أنّ يكون هو السبب الحقيقي وراء ما يقوم به الإنسان، بالخصوص إذا كان كافراً يتبنّى موقفاً معادياً لله تعالى والرسول ﷺ والمؤمنين. فـ«المؤمن كيِّسٌ فطنٌ»[2].

---

(١) وسائل الشيعة، باب وجوب النية في العبادات الواجبة ...، الحديث ٧.

(٢) ميزان الحكمة، مادة (إيمان).

الخامسة عشرة: عطاء الرحمن وجهد الإنسان

في الآية (٢٤) دلالةٌ على أنّ ما في الدنيا من متع ومتاع إنما هو هبة ومنة من الله تعالى ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾. فما يناله الناس في الدنيا ليس بذكاء الأذكياء ولا بجهد المجتهدين، وإنما هي هبات الله وعطاياه عبر ما سنه في الكون من قوانين، فُرض علينا أنّ نحسن استثمارها أولاً ونحسن استعمالها ثانياً، ونشكر الله تعالى عليها ثالثاً.

السادسة عشرة: الدنيا متاعٌ قليل

في الآية دلالةٌ على أنّ مُتَع الدنيا ومتاعها لن تكون إلا ﴿ قَلِيلًا ﴾. والتعبير مطلق يشمل كلّ المتع والأمتعة، فهي قليلة القيمة، وقليلة الأهمية، وقليلة المنفعة، وقليلة الثمرة، وهكذا. ولو بالقياس إلى ما سيؤول إليه حالهم في الآخرة من العذاب الغليظ والشديد.

وفي ذلك من المواساة للمؤمنين الشيء الكثير، وبمقدار ما تطمئنّ قلوبهم لذكره وتذكيره فإنهم سيكونون أشدّ تمسكاً بتعاليمه وتجنباً لنواهيه.

السابعة عشرة: الموت والحشر جبريّان

في الآية دلالةٌ على أنّ حشر الناس، ومن قبله الموت، ليس أمراً اختيارياً ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾. وهذا يكشف عن الضعف البشري وهو مدعاةٌ للتواضع ونفي التكبر والخيلاء، وهذه من فروع الحكمة كما لا يخفى.

(الآية ٢٥)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

مع هذه الآية الكريمة ينعطف السياق بنا إلى تبيان سلسلة من الحقائق يجب أنّ لا نغفل عنها، تتركّز حول محور رئيس، وهو أنّ الكفار مهما تظاهروا وأظهروا الإنكار، فإنّ ذلك لا يعني أنّ حقائق الكون الكبرى غائبة عنهم، بل هي حاضرة في وعيهم بقوة، وعلى هذا الأساس فإنهم يستحقون أنّ يعاقَبوا على كفرهم، لأنهم لم يقيموه على أساس مهما تحذلقوا وتذاكوا في بيانه.

حقائق معطَّلة:

هذه الحقائق كان يفترض بها، كأيّ حقيقة معقولة ومفهومة، أنّ تكون فاعلة في حياة من يعقلها ويدركها، إذ لا يمكن عادة أنّ يسير الإنسان إلا على أساس معارفه ومعلوماته. غير أنّ النفس البشرية يمكن أنّ تجمع المتناقضات، فما يدركه العقل، وتؤمن به النفس، قد تُعطِّل فاعليته، لأسباب كثيرة، يأتي في مقدمها (الذنوب والمعاصي).

ويمكن أنّ نجمل ما تعرضت له الآية من مسائل في التالي:

المسألة الأولى: تسليم الكفار بالخالق

يظهر من الآية إقرار الكفار بأنّ الخالق لهذا الكون، بسماواته وأرضيه، إنما هو الله تعالى، والآية ظاهرةٌ بل صريحة في ذلك حيث تقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

المسألة الثانية: لا تلازم عملياً بين العلم والإيمان

وضوح الفكرة والإيمان بها ليس مقروناً دائماً بالعمل على وفقها من قبل الناس. ولعلّ هذا هو السرّ في نفي صفة العلم عنهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المسألة الثالثة: العلم توأم العمل

العلم في المصطلح القرآني والرؤية الإسلامية لا يعني مجرد المعرفة، بل المعرفة مجسَّدةً في المشاعر والسلوك. فالكفار، كما تؤكّد الآية، يؤمنون ويعلمون من خلق السماوات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، ولكنّهم مع ذلك لا يُصنَّفون ضمن غير العالمين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المسألة الرابعة: فطرية الإيمان

جذور الإيمان وبذوره موجودة في النفس البشرية، ولكنها قد تضمر وتذبل بسبب ما يقع فيه الإنسان من أجواء تنافي الإيمان وتضادُّه. وما نحتاجه في هذه الحال هو تحريك تلك الجذور وسقي تلك البذور بالسؤال ونحوه، مما يحرّك باطن الإنسان ووجدانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم ... لَيَقُولُنَّ﴾.

المسألة الخامسة: تفعيل العلم

على الإنسان أنّ يجمع العمل إلى العلم، فإنه إذا كان يدرك أنّ خالق السماوات والأرض هو الله تعالى، فعليه أنّ يعمل طبقاً لهذا العلم، بالذكر والثناء والشكر. لأنّ النكوص عن ذلك يخرج صاحبه من دائرة العلم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

المسألة السادسة: الدقة

على الإنسان أنّ يكون دقيقاً في فهمه، دقيقاً في عمله، فما دام يدرك أنّ خالق السماوات والأرض هو الله لا غير، فإنّ عليه أنّ يقوم بواجب الثناء على ذلك له وحده. يشير إلى ذلك جوابهم عن سؤال ﴿مَّنْ خَلَقَ ﴾ بأنه ﴿ٱللَّهُ ﴾، ثمّ تلقين الله لنبيّه بأنّ يقول ﴿ٱلْحَمْدُ ﴾، أي كلُّه، لمكان الألف واللام الجنسية، ﴿لِلَّهِ ﴾.

المسألة السابعة: لا للكلل والملل

الآيةُ صريحةٌ في أنّ الخالق إنما هو الله تعالى ﴿مَّنْ خَلَقَ ﴾، لا شريك له، ويترتب على ذلك حصر الثناء الربوبي ﴿ٱلْحَمْدُ ﴾ فيه وحده. فالكمال التامّ فيه، والجمال المطلق له.

وتأسيساً على ذلك، نؤكد أنّ الناس كلّ الناس ينشدون الله وينشدّون إليه، غير أنّ أغلبهم يخطئ الطريق أو يتعثر فيه، فيفقد مقتضي السير أو يبتلى فيه بموانع. وهذا ما يدعونا إلى أنّ لا نيأس ولا نكلّ ولا نملّ من فعل الدعوة إلى الله.

المسألة الثامنة: أهمية الحوار

للوصول إلى إحقاق الحقّ وإبطال الباطل طرقٌ كثيرةٌ، منها (الحوار) عبر إثارة الأسئلة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، للحصول على أجوبة يضطر معها مُنكِر الحقّ إلى أنّ يتراجع تماماً أو كثيراً أو قليلاً عن خطئه. لينتقل به بعد ذلك إلى قناعات أخرى قد تنتهي به إلى الحقّ إنّ كان ممن يطلبه، أو تقطع الطريق عليه حتى لا يُضلّ غيره.

المسألة التاسعة: الموضوعية في التعامل مع الكفار

علينا التفرقة بين الكفار، أو (الآخر) عموماً، ففيهم من ضلّ عن علم، وفيهم من ضلّ عن جهل. كما أنّ فيهم من يدرك لوازم المسائل ومنهم من لا يدركها. وقد أشارت الآية إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وهو جواب نسب إلى جميعهم، ولكنّ في الحكم عليهم قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، مما يعني أنّ جميعهم يؤمن بمن هو الخالق، ولكنّ أكثرهم لا يعلم بما يجب عليه أنّ يقوم به، أمّا بعضهم فهو يعي تماماً ما يجب عليه أنّ يفعل، لكنه لا يفعل.

المسألة العاشرة: الوضوح في الدعوة

من لوازم التوحيد الظاهرة للجميع:

الثناء على الخالق تعالى، باعتباره نعمةً من أجلِّ النعم وأعظمها.

أن الثناء لله تعالى وحده، إذ لا منعم سواه، ولا خالق غيره.

يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، حيث جُعل الحمد لله تعالى نتيجةً طبيعيةً لإقرارهم بأنه

الخالق للسموات والأرض.

ولعلّ ذلك ينبّهنا إلى أنّ من الحكمة، في مقام الدعوة والتربية والتعليم، أنّ نشرح الأمور بوضوح أولاً، ونختار في ذلك الأولويات؛ لأن من شأن ذلك أنّ يضع المدعوَّ والمحاوَر في زاوية لا مناص له من الإقرار بما عرض عليه من الحق، وتبقى بعد ذلك رغبته في أنّ يكون من المهتدين أو من غيرهم.

المسألة الحادية عشرة: عقبة الجهل

العلمُ ركنٌ ركينٌ في بناء الإنسان، والجهل هو العقبة الكبرى أمام مسيرته التكاملية. وعليه، فلا مجال لغير أهل العلم أنّ يتكاملوا. وهو ما تؤكّده الآيات القرآنية من قبيل قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[2].

المسألة الثانية عشرة: خطر البيئة المنحرفة

إن الفطرة والوجدان الإنسانيين ينطلقان من قاعدة المعرفة بالله تعالى، غير أنّ البيئة السيئة والمتخلّفة تنحرف بالإنسان إلى الشرك بالله والتنكر لأوضح بديهية عاشتها البشرية.

وفي تفسير هذه الآية، ونظائرها، رُوي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة، يعني على المعرفة**

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

بأنّ الله عزَّ وجلَّ خالقه، فذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾».

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١). فهم يدركون أنّ عملية الخلق ليست مما يتيسر لغير الله تعالى أنّ يفعله، وأن النفع منه، وأن أحداً، كائناً من كان، لا سلطان له معه. لذلك لما جرى الحوار العاقل والصريح معه في ذلك أقروا بالحق.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٢). وجوابهم هذا يكشف عن وعيهم بما يجب أنّ يتحلّى به (الخالق) من كمالات في ذاته لا تتوفر في غير (الله) تعالى. ولهذا لم يتلكّأوا في الإجابة عن سؤال من خلق السموات والأرض بأنه (الله).

وقال تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣). وذلك بعد أنّ حكى واقعهم المتخلّف وتعلّلهم السخيف بالقول ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٤).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٤) سورة لقمان، الآية:٢١.

ومن هنا، وجب في شرعة الإسلام أنّ يُوفَّر للإنسان، في بيئته الكبرى والصغرى معاً، بل وفي نفسه، الظروف الموضوعية التي من شأنها السير به في طريق الهدى والصلاح. وخلاف ذلك لن ينتهي به المسير إلا في أحضان الشيطان وأخطائه وخطاياه.

(الآية ٢٦)

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

يكمل السياقُ الحديثَ عن الذات الإلهية، باعتبار المعرفة بالله تعالى أول بنود الحكمة النظرية، التي لا يمكن للإنسان أنّ يترجم حكمته عملياً بغيرها. وهنا أيضاً عدد من المسائل:

المسألة الأولى: ملكية الله ومالكيته

إن جميع الكون بما فيه، من سموات وأرضين:

أ ـ ملكٌ ﴿ لِلَّهِ ﴾ تعالى.

ب ـ وأن هذه الملكية والمالكية لا يشاركه فيها أحدٌ. يفيد ذلك تقديم لفظ الجلالة (الله) ملحقاً به لام الاختصاص.

المسألة الثانية: الله وحده مدبّر الكون

إن المدير والمدبر للكون بما فيه من سماوات وأرضين، إنما هو الله تعالى وحده، لا شريك له، لأنّ مالكيته وملكيته ليست من قبيل ما هو حاصلٌ عندنا، حيث النقل والانتقال، والتبديل والتغيير . . .

المسألة الثالثة: لوازم المالكية

إن المالكية للكون فرعٌ للخالقية، فمن كان خالقاً فهو المالك. يرشد إلى

ذلك سوق الآيات وسياقها، حيث أخذ منهم الإقرار أولاً بمن هو الخالق، وأقروا بأنه ﴿ٱللَّهُ﴾[1] تعالى، ليثنّي ذلك باستحقاقه الثناء، أي الانقطاع والتعلق والتولي،: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[2]، ليُكرّس ذلك ثالثاً بأنه المالك ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

المسألة الرابعة: دواعي بعثة الأنبياء

حينما يبعث الله تعالى الرسلَ والأنبياءَ لدعوة الناس، فهو إنما يفعل ذلك:

أ ـ ليس عن ضعف، فهم أولاً وأخيراً مملوكون له، محكومون بحكمه، غير أنّ مشيئته تعلقت بأنّ يدع للناس أنّ يختاروا دينهم، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3]، على أنّ يُكافأ المؤمنون وفقاً لإيمانهم، والكفار وفقاً لكفرهم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4].

ب ـ أنه تعالى ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وهذا يعني أنّ إدارته وتدبيره للسموات والأرضين، وما فيهما ومن فيهما، قائم على أساس الغنى الإلهي من جهة، والإنعام الإلهي المستلزم للثناء والخضوع من جهة ثانية، فلا مجال للتحفظ على ما يصدر عنه، سواء من ناحية التشكيك في صحته، أو من ناحية التمرد عليه.

---

(١) الآية ٢٥.

(٢) م ن.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

المسألة الخامسة: اختصاص الكمال بالله تعالى

الكمال المطلق ليس إلا لله تعالى لا نصيب لغيره فيه، إلا بقدر ما يترشح عليه من الله عزّ اسمه. فلا غنيّ حقيقياً إلا الله، ولا حميد يستحق الثناء كله لا يشاركه سواه إلا هو سبحانه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وقد أُكِّد على هذا المعنى بمؤكِّدات أربعة:

الأول: الجملة الاسمية ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الثاني: تصديرها بأداة التأكيد ﴿إِنَّ﴾.

الثالث: إيراد ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾.

الرابع: تعريف اسمي الجلالة حيث قال ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، ولم يقل غني حميد.

ومجموع هذه المؤكِّدات يفيد الرسوخ من جهة، والشمول من جهة أخرى.

المسألة السادسة: تنوع المخلوقات

يمكن القول إنّ الآية تفيد أنّ السموات ـ كالأرضين ـ فيها مخلوقات كثيرة. وليس ثمة ما يحصر، بنحو قاطع، هذه المخلوقات في الملائكة.

المسألة السابعة: سعة مالكيّة الله

مالكية الله لمخلوقاته ليست محصورة في العقلاء، بل يتسع لغيرهم. يشير إلى ذلك استعمال اسم الموصول (ما)، الدالّ على الاثنين معاً.

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

المسألة الثامنة: أسباب التشريع

التشريعات الإلهية، ومنها الحمد والثناء، له واحد من أسباب ثلاثة:

الأول: أنّ يكون نابعاً من أنّ الله يحتاج إلى حمد الناس وثنائهم وعبادتهم. فجاء الرد قوياً بأنّ ذلك ليس نابعاً من الحاجة الإلهية فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

الثاني: أنّ يكون السبب فيها حاجة العبد لتأمين مصالحه من جهة، ولدرء المخاطر عنه من جهة أخرى.

الثالث: أنّ يكون نابعاً من الاستحقاق الذاتي لله تعالى. وهذا ما يفيده السياق في تعابيره المختلفة، وهي على التوالي:

١ ـ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. وهو يفيد حصر الحمد، كله، في الله تعالى. واستعمل لفظ الجلالة (الله) الدالّ على الذات الإلهية المستجمعة لجميع صفات الكمال، فهي وصف من جهة ، وهي بمثابة العلّة من جهة أخرى. فذات الله ـ إذاً ـ تستحق الثناء والحمد.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. وهذا سبب ثانٍ لاستحقاقه الذاتي للحمد والثناء، فهو المالك المطلق للكون بما فيه ومن فيه.

٣ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾. فمن كان غنياً في ذاته، بكلّ هذه المؤكّدات، فلا شكّ أنه ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴾، أي إنه المستحق وحده الحمد والثناء.

ونخلص من كلّ ذلك إلى: أنّ حكمة القرآن تفرض على الحكيم أنّ يضع نصب عينيه أنّ المحمود الأول والأخير، والمحبوب الأول والأخير،

والسيد الأول والأخير، إنما هو الله تعالى وحده. وأن أي شيء نحبه إنما يستحق محبتنا بمقدار ما هو قريب من الله وبمقدار ما أكسبه قربه من جمال وكمال.

حب رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام مظهر حُبّ الله تعالى:

وهذا ما يفسر ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[1]. وفي لفظ آخر أنّ رسول الله ﷺ قال: «**فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده**»[2].

وتتسع الدائرة إسلامياً، بنص القرآن والسنة، إلى كلّ من يمثل الرسول ﷺ، وهم عترته الطاهرون عليهم السلام. فقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4].

فقد روى الشيخ الصدوق بسنده، عن عبد الرحمان بن أبي ليلى، عن أبيه أبي ليلى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه، وتكون عترتي إليه أعزَّ من عترته، ويكون أهلي أحبَّ إليه من أهله، وتكون ذاتي أحبَّ إليه من ذاته**»[5].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والدرامي، وابن حنبل في مسنده وغيرهم.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٥) الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع، ج ١، ص ١٤٠، [باب العلّة التي من أجلها وجبت محبة =

وفي نصّ آخر يبيّن ﷺ السرّ والحكمة وراء هذه الأولوية في المحبّة حتى على الذات، بقوله، في ما رُوي عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحِبُّوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأَحِبُّوني لحب الله، وأَحِبُّوا أهلَ بيتي لحبي**»[1]. فمحبة الله واجبة لما يغدوكم، أي يزوّدكم به من نعمة في الغداة، وهو أول اليوم، أو يغذوكم، من الغذاء. ورسول الله ﷺ، باعتباره قناة الفيض الإلهي والعطاء الرباني، ينبغي ويجب محبته بهذا الاعتبار، وأمّا أهل بيته فهم امتداده في الفيض والعطاء.

وفي رواية دقيقة المضمون فسّر فيها الرسول ﷺ كيف يكون المؤمن أشدَّ حباً لرسول الله ﷺ من حبه لنفسه، فيقول: «**لا يكون العبدُ مؤمناً حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه ومن ولده وماله وأهله**».

قال [الراوي]: فقال بعض القوم: يا رسول الله! إنا لنجد ذلك بأنفسنا؟!

فقال عليه السلام: بل أنا أحب إلى المؤمنين من أنفسهم. ثمّ قال: أرأيتم لو أنّ رجلاً سطا على واحد منكم، فنال منه باللسان واليد، كان العفو عنه أفضل أم السطوة عليه والانتقام منه؟!

قالوا: بل العفو، يا رسول الله!

قال: أفرأيتم لو أنّ رجلاً ذكرني عند أحدٍ منكم بسوء، وتناولني بيده، كان الانتقام منه والسطوة عليه أفضل أم العفو عنه؟

= الله تبارك وتعالى، ومحبة رسوله وأهل بيته (صلوات الله عليهم) على العباد]، الحديث ٣.

(١) م ن، الحديث ١.

قالوا: بل الانتقام منه أفضل.

قال: فأنا إذاً أحب إليكم من أنفسكم[١].

وهذا كله يعني أنّ الحكيم قرآنياً هو الحُر الذي لا يخضع لغير الله، ولا يستسلم لغير الله، لأنه ينحاز إلى القيم وإلى الحق، وهو على أتمّ الاستعداد لأنّ يَضحّي بالغالي والنفيس في هذا السبيل.

---

(١) الطوسي، الأمالي، الحديث ٩٣٧، ص ٤١٦.

(الآية ٢٧)

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

مع هذه الآية المباركة يبدأ مشوارٌ جديدٌ في التعريف بالله تعالى وصفاته وأفعاله، لتتجلّى عظمته التي لا حدّ لها، ولا قدرة للإنسان على الإحاطة بها، فإنّ كان هذا الإنسان حكيماً، أو طالباً للحكمة، فلا مناص له من التواضع بين يدي الله والتسليم له في ما يأمر به أو ينهى عنه. ولا ريب في أنّ ما يخبر عن وجوده ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، أو ينفيه هو كذلك.

ويشبه هذه الآيةَ في مضمونها قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[1].

وهنا وقفات:

الوقفة الأولى: سعة الكون

السعة الوجودية في الكون ومفرداته. ذلك أنّ الآية بصدد التعريف بسعة ملك الله وسلطانه، حتى إنّ الكون بكلّ ما فيه ومن فيه لو اجتمعوا، وصارت الأشجار أقلاماً، ومياه البحر مدادًا، وسعوا في حصر عطاء الله

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

المتجدد لما أمكنهم ذلك.

وقد أورد للدلالة على سعته دوالٌّ أربعة:

الأول: كلمة ﴿مَّا﴾، وهي اسم موصول، دالّ على عموم مخلوقات الأرض وموجوداتها.

الثاني: كلمة ﴿مِن﴾، وهي بيانية، للدلالة على العموم والشمول. خصوصاً بملاحظة إلحاقها بـ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾، دون (شجر)، وكأن المراد تحول كلّ شجرة، وليس مجرد مجموع الشجر، كناية عن المبالغة في كثرة ما يكتب به.

الثالث: جملة ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾، الدالّة على وفرة الحبر المسجَّل به عطاء الله وفيضه.

الرابع: جملة ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ الدالّة على الكثرة الكاثرة. وقد يُراد بـ: ﴿سَبْعَةُ﴾ العدد المعروف، وقد يُراد منها مطلق الكثرة.

ومجموع هذه الدوالّ تكشف عن ما قلناه من سعة خلقه وعموم فيضه وتجدده.

الوقفة الثانية: الكون كلمات الله

إنَّ ما في الكون مخلوقات الله تعالى تحكي عن الله، حكاية الاسم عن المسمى، والكلمات عن مضامينها. لذلك صحّ أنّ يقال إنها ﴿وَلَوْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾. وصدق تعالى إذ يقول عن نفسه إنه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1].

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

الوقفة الثالثة: التجدُّد في الكون

إنّ كلمات الله، التي هي خلقه وفيضه المتجدد، لا حصر لها ولا نفاد. ليس في الآية ما يمنع من حملها على إرادة مخلوقات الله التي لم يقدر إيجادها بعدُ.

الوقفة الرابعة: الخلق نتاج الكمال

إنّ هذه السعة الوجودية الفعلية والمقدرة لا يمكن لموجود أنّ تصدر عنه بغير العزة الكاملة والقدرة التامة، وهذا غير متاح إلا لله تعالى. يشير إلى ذلك أنّ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جيء بها بمثابة العلّة لعدم قدرة الخلق على إحصاء خلق الله سبحانه.

كلمة الله في الاستعمال القرآني:

المتتبع لاستعمال مفردة (كلمة، وكلمات) يلحظ أنها استعملت بمعانٍ عدة، منها:

أولاً: بمعنى النعم والمخلوقات الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾[1].

ثانياً: بمعنى المخلوقات المتميزة والمصطفاة، كما جاء عن نبي الله عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

ثالثاً: بمعنى السنن الإلهية، التي قد يراد بها:

١ ـ الوعود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[2].

٢ ـ الأسباب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[3].

رابعاً: بمعنى آيات الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[4].

خامساً: بمعنى المعتقدات الحقة، كالتوحيد والإمامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5]، إذا فسرت الـ﴿كَلِمَاتُ﴾ بالتوحيد، كما يظهر من السياق، أو بالإمامة كما ورد في الروايات المفسرة[6].

وقد يخطر ببال أحد غرابةُ أنّ تُفسّر كلمة الله وكلماته بأحد من الناس.

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.

(٢) سورة طه الآية: ١٢٩.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧.

(٤) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٦) انظر: بحار الأنوار، الجزء ٢٤، باب أنهم عليهم السلام كلمات الله وولايتهم الكلم الطيب.

ونقول: إنّ هذا استبعاد لا وجه له إذا لاحظنا:

١ ـ أنّ القرآن أطلق﴿ كَلِمَتُ ٱللَّهِ ﴾ على عيسى، وهو بشر.

٢ ـ أنّ الله وصف القرآن بأنه تبيان كلّ شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

٣ ـ أنّ أهل البيت عليهم السلام هم عِدل القرآن، ولن يفترقوا عنه إلى أنّ يرِدوا على رسول الله الحوض، كما جاء بذلك الخبر المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٤ ـ أنّ هذا المعنى وهذا التعبير نفسه يرشد إلى أنّ الكثرة والوفرة ليست هي ما يلفت النظر في مسألتنا هذه، وإنما يضاف إلى ذلك أنّ هذه الوفرة تكشف عن:

أ ـ مقام سامٍ لا يتربع عليه سوى الله، من جهة، وهو مقام العزة ﴿ عَزِيزٌ ﴾.

ب ـ مقام رفيع في حسن التدبير والإدارة والتنظيم، وهو مقام الحكمة من جهة أخرى ﴿ حَكِيمٌ ﴾.

دروس وعبر:

هنا دروس ينبغي استلهامها، منها:

أولاً: الأمل

إنّ الإحاطة بمضمون هذه الآية تبعث في النفس اطمئناناً وأملاً، يكون

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

صاحبه بمنأى عن اليأس والإحباط. خصوصاً في الأزمات والفتن التي يقع فيها المؤمن لسبب أو لآخر.

ثانياً: التواضع

إنّ على الإنسان أنّ يتواضع في ما يصل إليه من معرفة لله، فهي مهما بلغت من العمق والدقة، تبقَ متواضعة أمام عظمته سبحانه.

ثالثاً: الإيمان والاطمئنان

إنّ على المؤمن أنّ يثق بكلّ ما يصدر عن الله، أمراً أو نهياً، إثباتاً أو نفياً، فهو العزيز الذي لا يمكن لأحد أنّ يفسد تدبيره، وهو تعالى الحكيم الذي لا تنقصه حيلةٌ وحسنُ تدبيرٍ. وهذا يؤسّس لحالة من رباطة الجأش في نفس المؤمن، يقوى معها على مواجهة أعدائه مهما كثر عددهم وعديدهم.

رابعاً: التخلُّق بأخلاق الله

إنّ على المؤمن، المتخلّق بأخلاق الله، أنّ تتعدد خياراته وتتنوع، وخلافاً لذلك يُتَمكن منه فلا يكون عزيزاً، ويُنال منه فلا يكون حكيماً. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(الآية ٢٨)

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

بين نقطتي البداية والنهاية بقي الكثير من أسرار الخلقة عالقاً، ألحَّ على ذهن الإنسان عبر التاريخ، فافترق الناس إلى:

أ ـ ناظر ومتأمّل

ب ـ ذاهل وغافل

جـ ـ جاهل جاحد

وهؤلاء جميعاً كان يشغلهم بدء الخلق وإعادته التي جعلها الأنبياء محوراً من محاور دعواتهم الربانية.

دلالات ومحطات:

الآية مورد البحث تناولت عددا من المحطات، نستعرض منها ما يلي:

المحطة الأولى: لامحدودية قدرة الله

مستوى القدرة الإلهية لا يقاس بما نعرفه من أنفسنا، فقدرته تنبع من علمه الواسع الممزوج بالفاعلية التامة. حتى إنّ خلق الناس وبعثهم ليس شيئاً أكثر من خلقها للمرة الأولى.

وللآية في هذه المحطة دلالةٌ في اتجاهين:

الاتجاه الأول: أنّ قدرتنا نحن البشر المخلوقين على الكثير عدداً ليست كقدرتنا على الواحد، فقد نتمكن من فعل القليل، كرفع الشيء (العمود مثلاً)، لكننا نعجز عن فعل الكثير، كرفع أعمدة كثيرة. فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

الاتجاه الثاني: أنّ قدرتنا نحن المخلوقين قد تتجلى في فعل الصغير دون فعل الكبير، كصنع سيارة صغيرة فيما نعجز عن صنع شاحنة كبيرة معقدة. وهذا يرتبط بالتعقيد الحاصل بسبب الكثرة والضخامة ونحو ذلك. فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

هذا، مع الفارق الكبير بين ما ذكرناه من أمثلة، وما نقوم به من أفعال، وبين ما تحدثت عنه الآية، وهو فعل (الخلق)، الذي يعني الإيجاد من العدم، وفعل (البعث) الذي هو الإحياء بعد الموت. وهذا يرتبط بالتعقيد الحاصل بسبب الدقة والمهارة ونحو ذلك.

المحطة الثانية: إطلاق القدرة الإلهية

القدرة الإلهية لا يؤثر فيها التقادم الزماني، فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي الإنسان الأول (آدم). فالموت وتحلل الأجساد وتفرق أجزائها في الأرض لا يؤثر سلبياً في قدرة الله على جمعها وإعادة الحياة فيها، تماماً كما كان قادراً على خلقها من لا شيء.

المحطة الثالثة: حتمية المعاد

إنّ (المعاد) حقيقةٌ وجوديةٌ لا مناص من التسليم بها، ولا مجال للتشكيك فيها، لسبب واحد يمكن تلخيصه في وصف الله تعالى نفسه بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾. وهما وصفان يؤكدان على أنّ اتصاف الله بهما يتسم بالمبالغة والعمق، حيث استعمل في الوصفين صيغة (فعيل) الدالّة على المبالغة.

المحطة الرابعة: جهل المنكرين للمعاد

إنّ إنكار حقائق الوجود، ومنها (المعاد) يرجع في الدرجة الأولى إلى الجهل بالله تعالى. وعليه، فإنّ نجاة الإنسان سلوكياً تتوقّف على المعرفة النظرية بالله تعالى.

المحطة الخامسة: رقابة الله

إنّ على الإنسان أنّ يراقب أفعاله الظاهرة والباطنة، في جوارحه وجوانحه على حدّ سواء، فما دام الله هو الـ(سميع)، وهو الـ(بصير)، فعلينا أنّ نعي أنّ شيئاً من أفعالنا وأقوالنا لن يفوته.

المحطة السادسة: المعاد والجزاء

إنّ يوم المعاد هو اليوم الذي يواجه فيه الناس أعمالهم، ليُكافأ المحسن على إحسانه، ويُجازى المسيء على إساءته، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ . . . إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

دروس وعبر:

الدرس الأول: أهمية معرفة الله

أهمية التعرّف على الله تعالى، وأن معرفة الله تعالى ليست ترفاً فكرياً، ولا يسوغ حبسها في هذا الإطار، وإنما هي واقع يعيشه العارف بالله ينعكس على سلوكه اليومي، في الدائرة القريبة وفي الدائرة البعيدة، ومع القريب والغريب، ومع الصديق والعدو.

الدرس الثاني: المحاسبة على أساس العلم

إن علينا في مقام محاسبة الآخرين، بل وفي مقام محاسبة الذات، أنّ نبني كلّ ذلك على أساس العلم والمعرفة، فمن لا يسمع ولا يبصر، لا يجوز له الحكم على ما لا سبيل له إلى معرفته، ومن أقدم على ذلك سيقع في خلاف العدل والإنصاف.

الدرس الثالث: العلم وتحقيق المقاصد

في الآية دلالةٌ على أهمية المعرفة عموماً في الوصول إلى الأهداف والغايات بشكل سليم. فالله تعالى لما كان سميعاً بصيراً فإنّ إحاطته بما يفعله العباد ستكون سهلةً ميسورةً، وهذا يعني أنّ مَنْ تحلى بالعلم والمعرفة ـ والسمع والبصر مشيران إلى ذلك ـ يتمكن من فعل ما لا يتمكن من فعله الجاهلون.

(الآية ٢٩)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

الآية الكريمة تمثل جولة من جولات الحث الإلهي للإنسان، ممثلاً برسول الله ﷺ، لسلوك طريق الحكمة بالتأمل في ظواهر وجودية، وباستثمارها نعمَ الله تعالى على عبيده.

فقد تناول الحقّ تعالى في هذه الآية ظاهرةً مشهودةً لكلّ إنسان عاقل، وهي: ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل. وهي ظاهرة تأخذ منحيين:

الأول: قرب الليل من النهار والنهار من الليل، حتى إنّ حلول النهار حينما نكون في الليل يكون سلساً إلى درجة أنه يمثل ولوجه فيه. وهكذا بالنظر إلى حلول الليل بالنسبة إلى النهار.

الثاني: اختلاف الليل من حيث الطول والقصر، في الصيف والشتاء، فتارة يكون الليل طويلاً والنهار قصيراً، وأخرى يكون الليل قصيراً والنهار طويلاً.

وهذا التوزيع بمنحييه ينطلق من الحكمة الإلهية التي شاءت أنّ يكون الليل والنهار من حيث أصلهما، ومن حيث طولهما وقصرهما، ضروريين

لمفردات الوجود. فمن الموجودات ما ينشط ليلاً ويسكن نهاراً، ومنها ما ينشط نهاراً ويسكن ليلاً. كما أنّ منها ما يحتاج إلى ليل طويل ونهار قصير، ومنها ما يحتاج إلى عكس ذلك.

وقد أشير إلى هذه الظاهرة الحكيمة بفقرات ثلاث:

الفقرة الأولى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾.

الفقرة الثانية: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

يجب أنّ نلفت النظر إلى أنّ هذه الظاهرة مستمرة ودائبة، وقد أشير إلى ذلك باستعمال الفعل المضارع ﴿يُولِجُ﴾ المتكرر في الفقرتين والدال وضعاً على الدوام والاستمرار.

الفقرة الثالثة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾

هذه الفقرة تتناول سبب حدوث الظاهرتين السابقتين، لأنّ حركة الشمس والقمر هي التي تحقّق ظاهرة الليل والنهار من جهة، وذلك عبر دوران القمر حول الأرض ودوران الأرض حول الشمس في الحركة اليومية، وتحقق حركتهما أيضاً ظاهرة الشتاء والصيف من جهة أخرى، وذلك إذا طال الليل في الشتاء، وإذا طال النهار في الصيف.

ونخلص إلى أنّ الله سبحانه أولج الليل في النهار وأولج النهار في الليل بتسخيره الشمس والقمر.

الفقرة الرابعة: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾

هذه الفقرة تتناول التحديد الزمني للحركة الدائبة فهي مضبوطة تماماً فكل من الشمس والقمر يجري ويتحرك بشكل دائب ومنتظم ضمن

أجل زمني محدد تنتظم فيه الثواني والدقائق والساعات والأيام والليالي والسنون وجميع وحدات الزمن الطبيعية الطويلة والقصيرة، بل المعروفة وغير المعروفة.

والفقرة تفيد أنّ ما نعرفه من نظام دائب للشمس والقمر وما يتبع حركتهما من ظواهر ليس ممتدّاً إلى الأبد، وإنما هو ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. فسيأتي ـ إذاً ـ يومٌ تتبدل فيه الأرض والكون ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[1].

ثم إنّ هذا التنظيم الزمني لحياة الإنسان مطلوبٌ من الرسول ﷺ أولاً وممن يتبعه ثانياً، أنّ يتأمّله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ليتمثل في نفسه ووجدانه معرفة دقيقة تؤهله للانخراط في سلك العارفين بالخالق تعالى من خلال المعرفة بمخلوقاته.

كل ذلك من أجل أنّ يعمل الإنسان أولاً، وأن يحرص الساعي إلى الحكمة على تحسين عمله، من خلال استثمار الليل والنهار في عمل الصالحات، ولهذا خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

دروس وعبر:

يمكن أنّ نستلهم من الآية الكريمة عدداً من الدروس والعبر، نشير إلى ما يلي:

١ ـ لطف الله بالعباد وتأمينه لهم كلّ ما يحتاجونه لسلوك الصراط السوي، الأمر الذي يدعونا إلى محبته سبحانه والتقرب إليه.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

٢ ـ ضرورة التدبر والتفكر، حتى لا نقع في تعطيل نعمة من أهم نعم الله علينا، وهي العقل.

٣ ـ القدرة الإلهية الشاملة بحيث لا يشذّ عنها شيءٌ.

٤ ـ النظام الحاكم على العالم، الأمر الذي يدفعنا إلى الاهتمام بالتنظيم لحياة كلّ منا على المستوى الشخصي وعلى المستوى العامّ.

٥ ـ أهمية استثمار النعم الإلهية.

٦ ـ وجوب استغلال الزمن في العمل الصالح.

٧ ـ لزوم الخشية من الله الذي لا يمكن التحايل عليه بتحسين القبيح.

٨ ـ أنّ من كان قادراً على إيجاد ظاهرة الليل والنهار والشتاء والصيف، بكلّ ما تعنيه من حياة وموت، هو قادر على إحياء الناس بعد الموت. وبهذا يحصل النظم في السياق، حيث قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ ... أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ... ﴾.

(الآية ٣٠)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

أشير بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، وهو اسم إشارة للبعيد، إلى ما تقدَّم من ظواهر كونية تستدعي الانتباه وتثيرهُ، وهي:

أ ـ إيلاج الليل في النهار

ب ـ إيلاج النهار في الليل

ج ـ تسخير الشمس

د ـ علم الله تعالى وكونه خبيراً بما يعمله الناس

ثم تعليل ذلك بأنه من فعل الله الذي يتصف بأنه ﴿ٱلْحَقُّ﴾. وهو وصف مطلق يشمل الذات والصفات والأفعال في الله تعالى.

ثم ينعطف السياق نحو تبيان خطأٍ فاحشٍ ووهمٍ كبيرٍ وقع فيه الكفار والمشركون حيث يدعون ويطلبون ممن لا يتصف بأنه حق، أي إنه باطل في ذاته وفي صفته وفي فعله.

لينتقل السياق ثالثاً باتجاه التأكيد على صفتين أساسيتين من صفات الله، ينبغي أنّ يكون لهما الأثر العقلي والوجداني والعملي في السلوك

الإنساني، وهو أنه تعالى:

١ ـ العلي

٢ ـ الكبير

وهذان الوصفان قريبا الدلالة من (لا إله إلا الله)، وهما يبينان معاً ما ينبغي أنّ يكون عليه المدعو. فمن لم يكن (العلي) ولم يكن (الكبير)، ومن لم يكن قادراً ولا فاعلاً لتلك الظواهر المهمّة والمؤثرة في الوجود الإنساني حالياً ومستقبلاً، من لم يكن كذلك لا يصحّ أنّ يُتعامل معه على أساس الألوهية، وبالتالي يُدعى كما لو كان يملك شيئاً، لأنّ ذلك ينحصر في الذات الإلهية التي هي وحدها (الحق).

وللفخر الرازي كلامٌ متينٌ في رد القائلين بالتجسيم خصوصاً، يجدر نقله، وهذا نصُّه:

اعلم أنّ الحكماء قالوا الله تامّ وفوق التمام، وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام: ناقص، ومكتفٍ، وتامٌّ، وفوق التمام.

١ ـ (فالناقص): ما ليس له ما ينبغي أنّ يكون له؛ كالصبي والمريض والأعمى.

٢ ـ (والمكتفي) وهو: الذي أُعطي ما يدفع به حاجته في وقته؛ كالإنسان والحيوان، الذي له من الآلات ما يدفع به حاجته في وقتها، لكنها في التحلل والزوال.

٣ ـ (والتامّ): ما حصل له كلّ ما جاز له، وإن لم يحتج إليه؛ كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا يُنقص اللهُ منها لهم شيئاً، كما قال

جبريل عليه السلام: (لو دنوت أنملةً لاحترقت)، لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1].

[٤] (وفوق التمام) هو: الذي حصل له ما جاز له وحصَّل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه، لكنّ الله تعالى حاصلٌ له كلّ ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال، فهو تامٌّ وحصَّل لغيره كلَّ ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام.

إذا ثبت هذا فنقول:

أ ـ قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى التمام.

ب ـ وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي فوق التمام.

ج ـ وقوله: ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ أي في صفاته.

د ـ وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي في ذاته.

وذلك ينافي أنّ يكون جسماً في مكان، لأنه يكون حينئذ جسداً مقدَّراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه، فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض، لكنه كبيرٌ مطلقاً أكبر من كلِّ ما يُتصوَّر)[2].

دروس وعبر:

يمكن أنّ نستلهم من الآية الشريفة عدداً من الدروس والعبر، نجملها في التالي:

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

(٢) الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، تفسير الآية ٣٠ من سورة لقمان، ج ٢٥ ص ١٤١، ط دار الكتب العلمية ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠.

الدرس الأول: محورية الحقّ

يجب أنّ يكون الحقّ محور اختياراتنا، بالخصوص في المسائل الكبرى من قبيل العبادة والدعاء. ويستفاد ذلك من وصف الله تعالى بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المُشْعِر بالعلية.

الدرس الثاني: نبذ الباطل

أنّ ما عدا الحقّ إنما هو الباطل ولا ينبغي أنّ يكون له هيمنة على حياتنا، بل ولا أي تأثير، إذ لا فائدة فيه أولاً، كما أنه قد يعرضنا للخطر ثانياً باعتباره يُفوّت علينا ما ينبغي أنّ نستثمره في مصلحتنا العاجلة والآجلة، على أقل التقادير.

الدرس الثالث: حقّ الله جلال وجمال

أن الحقّ المطلق، وهو الله تعالى، فيه جانبان:

أحدهما: إيجابي (الإثبات / الجمال)

وآخر: سلبي (النفي / الجلال)

نثبت بلحاظ الأول أشياء، وننفي بلحاظ الثاني أشياء، غير أنّ ما نثبته لله سبحانه ليس شيئاً غير ذاته، فهو:

١ ـ (العلي)، بمعنى المتعالي عن كلّ نقص، وهو الجانب السلبي.

٢ ـ (الكبير)، بمعنى المتصف بكلّ جوانب العظمة، وهو الجانب الإثباتي.

والوصفان معاً يشكلان دليلاً على الجانب الإطلاقي في الذات الإلهية في الجانبين معاً، فلا يُتصوّر أي نقص في ذاته، كما لا يُتصور خلوه من أي

صفة حسنة، ومؤدّى ذلك أنه الواحد الأحد والفرد الصمد، فكل ما عداه دونه، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، وحيث يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۞ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة الشورى، الآيتان: ١١ ـ ١٢.

(الآية ٣١)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

هذه الآية تمثل جولةً جديدةً من جولات السورة لإثبات حقوق الله تعالى على أعناق العبيد، وقد أشارت لهذا الغرض إلى عدد من الأمور، يمكن ذكرها في عدة مسائل:

المسألة الأولى: نعمة الجوارح والجوانح

منَّ الله الحقَّ على الإنسان بجوارح وجوانح تعينه على فهم دقائق الكون، وهو المشحون بالأسرار الدالّة على جوانب العظمة فيه وفي خالقه من باب أولى. وهو ما أكَّد عليه القرآن الكريم في ما سجله من عيوب أقوام من الناس سابقاً ولاحقاً، بأنهم لا يفقهون ولا يتدبرون مع ما زوّدهم الله به من أدوات الفهم والتفكر.

المسألة الثانية: أهمية استثمار الجوارح والجوانح

على الإنسان، وهو المنعَم عليه بنعم تُسهّل عليه استثمار جوانحه وجوارحه في فهم ذاته وما حوله، وفهم الخلق ومعرفته، وعلى هذا الإنسان أنّ يحسن استثمار جوارحه وجوانحه في قراءة الظواهر الكونية ما دام قادراً على فعل ذلك.

المسألة الثالثة: التفكير نعمة

إن أعاجيب الكون الظاهرة لا تُعبّر بشكل كامل عن أعاجيب الوجود، بل إنّ التأمل فيها بالتفكير والتبصر ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كفيل بأنّ يفتح على الإنسان أبواباً من الخير لازدياد معارفه التي ستعينه بطبيعة الحال على استثمار النعم الكثيرة فيه.

المسألة الرابعة: البحر آية من آيات الله

البحر وقوانينه الحاكمة فيه، وكذلك الفُلك (السفن) الجارية على سطحه، يمثلان آيتين من آيات الله تعالى وعلاماته الدالّة عليه. ويجب على الإنسان التعامل علمياً وعملياً مع البحر على أساس أنه نعمةٌ تستوجب الفكر والشكر والذكر، ليكون ذلك سبباً من أسباب الحكمة وعماداً من أعمدتها.

المسألة الخامسة: قانونية البحر في ظلّ سلطان الله

القوانين الحاكمة في البحر والمسخّرة لتسيير السفن لا تعني إطلاقاً أنّ أمر الله وسلطانه قد انقضى، بل الأمر له من قبل ومن بعد، فهي أولاً وأخيراً تجري ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾. فالقوانين الطبيعية ليست سوى تجلٍّ لحاكمية الله تعالى على الكون بمن فيه وما فيه.

المسألة السادسة: لطف الله بعباده وتبعاته

القوانين الكونية، وكذلك التشريعية، الصادرة عن الله تعالى إنما وضعت لتنظيم حياة الإنسان الظاهرة والباطنة، لذلك فهي (نعمة)، والتعامل مع النعمة يجب أنّ يكون مشفوعاً دائماً بالفهم أولاً، والرعاية والتناغم ثانياً، والصبر والتحمل لتبعاتها ثالثاً، والشكر رابعاً.

المسألة السابعة: تنوع نعم الله

آيات الله تراتبية، ففيها الظاهر وفيها الباطن، كما أنّ فيها الصغير وفيها الكبير. والآية أشارت إلى أنّ جريان السفن في البحر هو آية، ولكنه يشير إلى آيات إلهية أخرى ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

المسألة الثامنة: اختلاف الناس في التعامل مع النعم

تعامل الناس مع آيات الله بمختلف مستوياتها متفاوتٌ، من حيث فهمها أولاً، والتفاعل معها ثانياً، وأداء حقها ثالثاً، وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. وهذا يحفّز الحكيم والساعي في طلبها على أنّ يكون سبّاقاً ومتقدماً ومتفوّقاً في التعامل مع النعم في جميع المستويات.

المسألة التاسعة: الإنسان قاصِر ومقصِّر

هذا التفاوتُ بين الناس ناشئٌ، في بعض جوانبه، منهم. وذلك أنهم يقصرون بشكل أو بآخر، فلا يكونون صابرين ولا شاكرين، فضلاً عن أنّ يكونوا صبارين وشكورين. وفرق بين الصابر والصبور والشاكر والشكور.

فالمطلوب من الإنسان الحكيم والساعي في طريق الحكمة أنّ يتحلى بأعلى درجات التحمل والمثابرة (صبور)، وبأعلى درجات الوفاء والصدق (شكور)، إذا ما أراد أنّ يُفتح عليه في فهم آيات الله في الكون، وصولاً إلى معرفة الله التي تمثل أعلى درجات التكامل الإنساني.

المسألة العاشرة: تنوع النعم وانتشارها

رحمة الله تعالى شاملة فهي لم تُكدِّس نعمه سبحانه على عباده في بقعة من الأرض على حساب البقاع الأُخَر، فكل بقعة فيها نوع من النعم قد تفتقده البقاع الأخرى، ولكنه عزّ اسمه وفَّر للناس تفضلاً منه عليهم ورأفةً بهم، ما يتيح تبادل هذه النعم، وجريان السفن في البحار واحدٌ من هذه الأسباب التي تستدعي شكراً مضاعفاً من الناس له تعالى.

المسألة الحادية عشرة: نبذ السطحية

الكون الفسيح مليء بآيات الله الدالّة عليه والمؤدية إليه، وليس على الإنسان إلا أنّ يكون حصيفاً، وذلك بأنّ لا يشتغل بظاهرها، فيكون سطحياً وساذَجاً، بل يتعمّق في قراءتها وفهمها وتحليلها لأنّ ذلك شأنه أولاً، وطريق كماله ثانياً ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1].

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(الآية ٣٢)

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

هذه الآية إكمالٌ لما ابتدأته سابقتها في كشف الوهم الذي وقع فيه الكفار والمشركون بدعائهم غير الله تعالى، عبر التذكير بما يمارسه الناس جميعاً إذا ألمت بهم شدائد ومدلهمّات، كالأمواج التي تغشى من يركب البحر وتكاد تُغرقهم، حيث ينقطعون إلى الله تعالى، ويكفرون عملياً بمن عداه، ولا يرجون سواه، فيدعونه بكلّ إخلاص، لكنّهم لما استحكمت فيهم الانحرافات والمعاصي وتجذرت في وجدان كلّ واحد منهم، سرعان ما يرجعون إلى ما كانوا فيه، وهنا وقفات:

الوقفة الأولى: الحكمة في التعامل مع الشدائد

الشدائد والابتلاءات يمكن أنّ تُقرأ من زاويتين:

الزاوية السلبية: وهي أنها تسلب من الإنسان بعض وجوه الراحة والسعادة.

الزاوية الإيجابية: وهي أنها تعيد للإنسان توازنه النفسي والفكري.

وعلى الإنسان أنّ لا يتسرع في الحكم عليها دون النظر إليها من الزاويتين معاً، فـ(رُبّ ضارّة نافعة).

الوقفة الثانية: فطريَة التديُّن لله

إنّ الاعتقاد بالله المالك للإنسان والدافع عنه الضرّ والشرّ، وهو أصل الدين، أمرٌ فطريٌّ لا مجال للتنكر التامّ له، ويدرك كلّ إنسان ذلك إذا ما عاد إلى فطرته.

ويطيب لي أنقل ما رُوي من حوار بين بعض الزنادقة، وهو الديصاني، والإمام الصادق عليه السلام في هذا الباب، كما أورده جماعةٌ منهم العلّامة جار الله الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار)، قال:

قال رجل لجعفر بن محمد: ما الدليل على الله؟ ولا تذكرْ لي العالم والعرَض والجوهر!

فقال له: هل ركبت البحر؟

قال: نعم.

قال: فهل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق؟

قال: نعم.

قال: فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين؟

قال: نعم.

قال: فهل تتبّعت نفسك من ينجيك؟

قال: نعم.

قال: فإنّ ذلك هو الله، قال الله تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1]، و: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[2][3].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٢) سورة ا، النحلآية: ٥٣.

(٣) شرح إحقاق الحق، ج ١٢، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

الوقفة الثالثة: الدين الخالص

إنّ التدين المطلوب، والدعاء أحد تجلياته، هو ما كان خالصاً، وهذا يعني أنّ على المسلم، بل كلّ إنسان، أنّ يسعى لتحصيل مقام الإخلاص، وهو ما جاء الأنبياء عليهم السلام من أجله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[1].

وقد جاء في القرآن الكريم آيات عديدة تؤكّد على الإخلاص من جهة، وعلى التلازم بين الإخلاص ومعرفة الله من جهة أخرى، وعلى إخفاق الإنسان في تحقيق الإخلاص لله تعالى دون أنّ يلغي التدين الفطري بالمطلق من جهة ثالثة.

فممّا جاء في الدلالة على الجهة الأولى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[3].

ومما يدلّ على الجهة الثانية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

ومما يدلّ على الجهة الثالثة الآية مورد البحث، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٩.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٤.

(٤) سورة غافر، الآية: ٦٥.

ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

الوقفة الرابعة: التكامل الإنساني

تشير الآية مورد البحث إلى أنّ الناس يتفاوتون في تكاملهم، بمعنى قربهم إلى الله تعالى، فمنهم الواصل ومنهم الساعي في سبيل الوصول ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾، وهو الثابت على الصراط المستقيم، ومنهم الناكص والمتخلف ﴿خَتَّارٍ﴾ وهو الغدار والناكث للعهد ﴿كَفُورٍ﴾، وهو الناكر للجميل. وكذلك تشير الآية إلى أنّ للشدائد دوراً في ذلك، باعتبارها تدفع بالمبتلَى إلى الدعاء الخالص والتدين الخالص، الأمر الذي من شأنه تسريع وتيرة الوصول إليه تعالى بالطريقة المرضية.

الوقفة الخامسة: الخير كله من عند الله

تؤكد الآية أيضاً أنّ النجاة من الشدائد، وهو مصداق للخير، إنما نحظى بها من عند الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾، فعلى المبتلَى أنّ يسعى بجهدٍ وجدٍّ وعليه أنّ يرجو النتيجة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[2].

الوقفة السادسة: الشروط الموضوعية للدعاء

تنبّه الآية إلى أنّ التديُّن المطلوب له وسائل وتعبيرات يأتي الدعاء في

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

مقدمتها، ولهذه الوسائل والتعبيرات شروطٌ موضوعيةٌ يجب توفيرها. وإذا لم تتوفر تلك الشروط فلا ينبغي توقع النتائج. فشرط الدعاء المستجاب هو (الإخلاص والانقطاع) ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾.

الوقفة السابعة: الأثر السلبي للمعاصي

تشير الآية أيضاً إلى أنّ للمعاصي والذنوب، على اختلاف مستوياتها، تأثيراً أكيداً في استقامة الإنسان وحسن علاقته بربه، يلمح إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، وهذا يعني أنّ الختر والكفر والنكث، وهي معاصٍ ورذائل، كلّ ذلك يؤثّر في التسليم لله وآياته.

وفي ذلك درسٌ لنا أنّ نتخلّى من الرذائل والمعاصي خشية تأثيرها السلبي في تكاملنا وتقربنا إلى الله تعالى.

كما أنّ في ذلك درساً لنا أنّ استحكام الرذائل والمعاصي، كما يفيده استعمال صيغ المبالغة، يُفقد الإنسان توازنه العقلي والنفسي، حتى إنه لا يستوعب حقوق الآخرين، ولو استوعبها فلن يراعيها.

لطيفة:

قال الفخر الرازي: الـ(صبّار) في موازنة الـ(ختار) لفظاً ومعنى، والـ(كفور) في موازنة الـ(شكور)، أمّا لفظاً فظاهرٌ، وأمّا معنى فلأن الختار هو: الغدّار الكثير الغدر أو الشديد الغدر. والغدر لا يكون إلا من قلّة الصبر، لأنّ الصبور إنّ لم يكن يعهد مع أحدٍ لا يُعهد منه الإضرار، فإنه يصبر ويفوّض الأمر إلى الله. وأمّا الغدّار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه، وأمّا أنّ الكفورَ في مقابلة الشكور معنى فظاهرٌ[1].

---

(١) مفاتيح الغيب، ج ٢٥، ص ١٤٢.

(الآية ٣٣)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

مع اقتراب السورة من نهايتها يضع النصّ الشريف النقاط على الحروف في ما يتعلق بما يجب على الناس، وهم المخاطَبون بالقرآن والمبعوث إليهم النبي ﷺ، وتلفت أنظارهم كافّة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ إلى أنهم وافدون إلى ولي نعمتهم ﴿ رَبَّكُمْ ﴾، مستعملاً وصف الربوبية علّ ذلك يدغدغ مشاعر الوفاء والاستقامة الفطرية فيهم، وأنهم مقبلون لا شكّ على يوم يرجعون فيه إلى الله تعالى، ليحاسبهم على أعمالهم إنّ خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾، منبِّهاً إلى أنّ من خصائص هذا اليوم أنه مخيف ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا ﴾.

وإن يوماً هذا شأنه لا ينبغي للحكيم والساعي إلى الحكمة أنّ يهملاه فإنّ سبل النجاة غير المهيَّأة مسبقاً ستكون مقطوعة تماماً، بما في ذلك العلاقات الاجتماعية القريبة التي من شأنها أنّ يضحي أطرافها لينجي أحدهم الآخر، كالوالد، أباً أو أماً، حيث يضحّي من أجل أولاده، والعكس كذلك، حيث يضحي الأولاد للمحافظة على آبائهم وأمهاتهم.

فما هي التقوى؟

وما هي الخشية؟

وما هي مخاطر يوم القيامة وأهواله؟

وكيف ننجو؟

هذه أربعة أسئلة مصيرية أثارتها الآية ليس من الحكمة أنّ يُمرَّ عليها، مرور الكرام، من يبحث عن سلامته وسعادته عاجلاً وآجلاً. ولنعالج إجاباتها تبعاً للآية الكريمة في مقامات أربعة:

المقام الأول: التقوى

١ ـ تعريف التقوى

قال الراغب الأصفهاني في سياق تعريف للتقوى لغةً أنها: (جعل النفس في وقاية مما يُخاف)[1]، وأضاف قوله: (وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عمّا يُؤثَم. وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات)[2]. وفي صياغة أخرى نعرِّف (التقوى) أنها: (إعادة تشكيل الواقع الإنساني وفقاً للغايات الربانية التي خلق الإنسان من أجلها، وفي الإطار الذي يجب على الإنسان أنّ يجعله حاكماً على حياته في الشكل والمضمون)[3].

فليس للمتقي أنّ يختطّ لنفسه طريقاً غير الطريق المستقيم، الذي هو

(١) مفردات غريب القرآن، مادة (وقى).

(٢) م ن.

(٣) المؤلف، الصراط المستقيم ـ دراسة تحليلية لوصية النبي الأعظم ﷺ لصاحبه أبي ذر ؓ [مخطوط]، فصل الصدق والمصداقية.

حسن الاختيار فكرياً، وحسن السلوك عملياً، ومن فعل غير ذلك فليس من أهل التقوى ولا من أهل الحكمة، التي تعني وضع الشيء في موضعه.

وفي ما نحن فيه من آية كريمة، قال تعالى ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، فهو أمرٌ بالتقوى بفعل الأمر ﴿ٱتَّقُواْ﴾، مقروناً بالسبب والمبرِّر، وهو الربوبية بقوله ﴿رَبَّكُمْ﴾، التي تعني التربية بمعناها الشامل والمطلق.

فـ(التقوى) ـ إذاً ـ تجسيدٌ للحكمة العملية، بما تعنيه هنا من قيم الوفاء والشكر والعرفان. كما أنها تجسيدٌ للحكمة باعتبارها سعياً وراء أفضل ما يرجوه حكيمٌ لنفسه، وهو الكرامة الحقيقية، التي لا يحقّقها إلا التقوى، وقد قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1]. ولا يتفاضل الناس في مراتب الشرف إلا بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2].

٢ ـ آفاق التقوى

نلحظ في صياغة الآية أنها لم تدخل في تفاصيل التقوى، من حيث مجالاتها وتطبيقاتها. ولعلّ السبب في ذلك هو أنها بصدد الدفع باتجاه تحقيق التقوى الشاملة، ولا ينسجم هذا مع الدخول في مثل تلك التفاصيل، لذلك فإنّ الحكمة هي في الإطلاق.

وعليه، فعلى الحكيم وطالب الحكمة أنّ يكون متقياً لله في أقواله وأفعاله ومشاعره، وقبل ذلك في بحثه عن الحقّ وترويض النفس على التزام التقوى.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

لا غير، فلا مجال للاعتبارات القبلية ولا النسبية ولا المصلحية، ولا لأي شيء آخر غير (الحق).

وإمعاناً في التهويل بحق جيء بكلمة ﴿يَوْمًا﴾ بصيغة النكرة.

ولبيان أهوال يوم القيامة نورد قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۞ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[1]. وهو تصويرٌ بليغٌ في واقع يوم القيامة ووقائعه، فلا مجال للنصرة من الخارج، ولا مجال للتخفي على ما هو في النفس، وهما السببان اللذان يمكن أنّ يشفعا للإنسان إذا ألَمّت الخطوب وأحاطت به الرزايا.

المقام الرابع: سبيل النجاة

جواباً عن سؤال كيف ننجو؟ نقول: إنّ الآية حدّدت سبيل النجاة بالعمل على معادلة من طرفين:

الطرف الأول: تقوى الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

الطرف الثاني: عدم الوقوع في أحد شَرَكَيْن:

الأول: شَرَك النفس

وجاء التنبيه إلى ذلك والتحذير منه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ﴾. ومن الواضح أنّ الحياة الدنيا لا يراد بها السماء والأرض والمنازل والأثاث ونحوها، لأنها نعم الله التي منَّ بها على الناس، وهو القائل مستنكِراً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

ليؤكد في لغة حاسمة وجازمة بعد ذلك مباشرةً وعداً لا خُلف فيه، قائلاً: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[١].

بل يُراد بالحياة الدنيا اتباع الإنسان لأهوائه ورغبات نفسه غير المحكومة بضوابط الشريعة والحكمة، وحينئذٍ تكون الحياة الدنيا مصداقاً للغرور، وينبغي التحذير منها.

وهذا الشَّرَك نابع من الإنسان ذاته، وهو الذي أُمر بالسعي إلى تغييره بما ينسجم والحكمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢].

الثاني: شَرَك الشيطان

جاء التنبيه إلى ذلك والتحذير منه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

وهذا الشَّرَكُ خارجيٌّ، كما هو بيِّنٌ، غير أنّ تأثيره السلبي على الإنسان إنما يحصل إذا استجاب الإنسان لوساوسه وتلبيساته. وقد أوضح ذلك قولُهُ تعالى حكايةً لمنطق الشيطان في حواره مع رفقاء دربه من بني الإنسان: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[٣].

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٣٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

ومن لم يعمل بحكمة متناهية مع هذين الطرفين فلن ينجو، لأنهما عدوّان يسعيان لمصلحتيهما دون مصلحة الإنسان.

أمّا عداوة الشيطان فواضحة، فقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وأمّا عداوة النفس للإنسان، فهي مقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2]، وقد جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: أعدى عدوك نفسُك التي بين جنبيك)[3].

تنبيهات:

تختم الآية بالتنبيه إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وعد الله حقّ

التأكيد على أنّ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ومن ثَمَّ لا مجال لأنّ يتوقّع أيٌّ منا العجز عن تنفيذها أو المبالغة في التعبير عنها. ويترتّب على ذلك شعور المؤمن الحكيم بالقوة النافذة، والعزّة اللازمة.

الأمر الثاني: عجز الإنسان

التأكيد على أنّ العجز الإنساني أمام المخاطر المحدقة به، والنابع من ذاته، ويتمثل هذا العجز في الاغترار (الغُرور) الناشئ عادة من الجهل بحقائق الأمور، أو من العجلة، أو من ضعف الإرادة أمام الشهوات، أو منها مجتمعةً.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣) عوالي اللآلئ، ج ٤، ص ١١٨.

الأمر الثالث: عداوة الشيطان

التأكيد على عداوة الشيطان العميقة، فهو المتربص دائماً بالإنسان، وهو الذي يترجم عداوته المتأصّلة بالتغرير بالإنسان مستغلاًّ:

١ ـ ضعف عدوّه إلا أنّ يعتصم بربه.

٢ ـ الحياة الدنيا، وليس المراد بها الأرض والنبات والشجر والحجر، وإنما تلك الأوهام التي يرسّخها في عقل الإنسان ونفسه من خلال الوسوسة له بخلط الحقّ بالباطل.

لذلك كان الشيطان هو ﴿ٱلْغَرُورُ﴾.

(الآية ٣٤)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾

وأخيراً، فإنّ السورة تختم سياقها بما يؤكّد أنّ الخير إنما هو من عند الله فلا يُرجى من غيره، كما أنّ الله سبحانه هو المتحكم في مصادر النفع والضر معاً. فالحياة والممات بيده، والذكورة والأنوثة من صنعه، والرزق والتقتير بحكمه . . .

وهذه الأمور هي التي يُبتلى الإنسان ـ عادةً ـ بالسعي الحثيث إلى تعديلها بالتأخير تارة وبالتعجيل أخرى، وبالزيادة حيناً وبالنقص حيناً آخر، أو بمجرد الفضول للاطلاع عليها أو التحدي والمكابرة، وهكذا[1].

المغيَّبات الخمسة:

ذكرت الآية خمسة من المغيبات التي لا يطلع عليها إلا الله لأنها ترتبط بحاكميته المطلقة وعلمه الشامل وقدرته التامة، وهي:

---

(١) روي عن مقاتل: إنّ هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية، اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ، فقال: إنّ امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمت متى وُلدت فأخبرني متى أموت، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله هذه الآية) تفسير القرطبي ج ١٤ص ٥٥ ـ ٥٦.

أولاً: موعد قيام الساعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾.

ثانياً: نزول الأمطار ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾.

ثالثاً: تحديد طبائع الناس من مختلف الزوايا ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾.

رابعاً: تحديد الأرزاق ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾.

خامساً: تحديد الآجال ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.

وقد رُوي عن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال: (هذه الخمسة أشياء لم يطّلع عليها ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ. وهي من صفات الله عزَّ وجلَّ)[1].

وينبغي التذكير بأنّ المغيبات ليست: (محصورة بهذه الخمس، وإنما خُصّت بالذكر لوقوع السؤال عنها، أو لأنها كثيراً ما تشتاق النفوس إلى العلم بها)[2].

والاعتماد على ما يُظنّ ويُتوهّم أنه يشكّل نافذة على معرفة الغيبيات أمرٌ خطيرٌ لما يمكن أنّ يترتب عليه من الأخطاء السلوكية والعقائدية، ولهذا جاء التحذير الشديد منه. وفي هذا الصدد قال بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، محذّراً إياه من السير في الساعة التي أزمع على السير فيها، معتمداً في ذلك على حسابات التنجيم، فإذا به عليه السلام يجيبه:

(أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي مَن سار فيها صُرف عنه السوء، وتخوِّف من الساعة التي مَن سار فيها حاق به الضرر؟! فمَن صدّقك بهذا فقد كذَّب القرآنَ، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع

---

(١) تفسير نور الثقلين، ذيل تفسير الآية.

(٢) روح البيان، ذيل الآية مورد البحث.

المكروه)[1].

ويضيف عليه السلام مبيِّناً الدوافع التي ينشدها مَن يتعاطون الحديث في المغيبات بهذه الطريقة قائلاً:

(وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أنْ يُوليك الحمدَ دون ربه، لأنك ـ بزعمك أنت ـ هديتَهُ إلى الساعة التي نال فيها النفع، وأمن الضر).

ويختم عليه السلام وهو الحكيم في علمه وعمله، وهو المعلِّم لحكمة القرآن، بالقول:

«أيها الناس! إياكم وتعلُّمَ النجوم، إلا ما يُهتدى به في بَرٍّ أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار».

فهو يضع فرقاً واضحاً بين ما هو علم له قواعده وأصوله، كالذي يُهتدى به في برٍّ وبحرٍ، وبين ما هو من قبيل الرجم بالغيب مما يدعو المتعاطي معه إلى الكهانة، التي يُصنَّف معها المتعاطي للتنجيم ضمن الكهَّان، وهؤلاء كالسحرة الذين هم بحكم الكفار، ومآل هؤلاء، كما هو واضح، النار التي تعني أنّ صاحبها نأى بنفسه جداً عن الله تعالى.

وعلى أي حال، فلم تكتف الآية مورد البحث بهذا المقدار من التوضيح، بل إنها بيَّنت السرّ وراء ذلك، بالقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. ولعلّه لبعث الاطمئنان في النفس الإنسانية التي من شأنها البحث عن الخير لذاتها، وهو أمرٌ مشروعٌ، ولكنّ المرفوض هو أنّ تسعى إلى تحقيقه

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٧٩.

عبر الطرق المعوَجّة أو الموهومة، وحينما تطمئنّ إلى اتصاف الله تعالى بأنه العليم الخبير بهذه المصالح فسيكون ذلك سبباً لبعث الاطمئنان في النفس فلا تنحرف إلى هذا الطريق أو ذاك مما لا يرضاه الله تعالى.

إطلالةٌ فنية:

حكى الألوسي في روح البيان عن بعض المفسرين، في وجه نظم الآية:

أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ [لقمان: ٣٣] الخ، وذكر سبحانه أنه كائن بقوله عزّ وجلّ قائلاً: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣٣]، فكأن قائلاً يقول: فمتى هذا اليوم؟ فأجيب بأنّ هذا العلم مما لم يحصل لغيره تعالى وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثمّ ذكر جلّ وعلا الدليلين اللذين ذُكِرا مراراً على البعث:

أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

والثاني: الخلق ابتداءً، المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، فكأنه قال عزّ وجلّ: يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها، ولكنها كائنةٌ، واللهُ تعالى قادرٌ عليها، كما هو سبحانه قادر على إحياء الأرض وعلى الخلق في الأرحام.

ثم بَعّدَ جلّ شأنه، له أنّ يعلم ذلك بقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا تَدْرِى﴾ الخ، فكأنه قال تعالى: (يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيّان مرساها، وإن من الأشياء ما هو أهمّ منها لا تعلمه؛ فإنك لا تعلم معاشك ومعادك

فما تعلم ماذا تكسِب غداً، مع أنه فعلك وزمانك، ولا تعلم أين تموت، مع أنه شغلك ومكانك، فكيف تعلم قيام الساعة متى يكون؟! والله تعالى ما علّمك كسبَ غدِك، ولا علَّمك أين تموت، مع أنّ لك في ذلك فوائد شتى. وإنما لم يعلمك لكي تكون في كلّ وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلاً عليه سبحانه، ولكيلا تأمنَ الموت إذا كنت في غير الأرض التي أعلمك سبحانه أنك تموت فيها، فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه؛ وهو وقت القيامة؟! وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون، وقد أعلمك جل وعلا بذلك على ألسنة أنبيائه تعالى عليهم الصلاة والسلام)[1].

مسألة العلم بالغيب:

من المسائل التي أثارت الجدل بين علماء الأمة (مسألة العلم بالغيب)، فهل هو خاصّ بالله تعالى؟ أم أنه متاح بالمطلق لغيره سبحانه؟

الجواب: (إن الرأي الراجح هو التفصيل؛ بأنّ يقال إنّ بعض الغيب خاصّ بالله تعالى، لا يشاركه في العلم به غيره. وبعضه الآخر متاحٌ من قِبَله تعالى لغيره، كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2]، الظاهر في أنّ غيب الله لا يعلمه إلا إياه، ومن ارتضاه من الرسل، ومؤدّى ذلك أنّ بعض الخلق يعلمون غيب الله بإذنه وتعليمه. وهذا هو ما يقتضيه الجمع بين الآيات التي تناولت مسألة العلم بالغيب. قال العظيم آبادي: الإخبار بالغيب بتعليم الله تعالى جائزٌ.

(١) روح البيان، تفسير سورة لقمان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

وطريق هذا التعليم إمّا الوحي أو الإلهام عند من يجعله طريقاً إلى علم الغيب)[١].

ولا جدال في حصول ذلك بين المسلمين، فالأنبياء عليهم السلام أطلعهم الله على بعض الغيب، من خلال ما أوحى إليهم، بل إنّ بعض الناس، ممن قد يصنف ضمن الأولياء حصل له ذلك أو رُوي عنه بغضّ النظر عن صحة النقل وعدمه.

وعليه، فلا ينبغي أنّ تكون المسألة من حيث المبدأ محلاً للتحفظ فضلاً عن الإنكار، وإن كان لهذا وذاك مجالٌ واسع في التسليم بالمنقول عن هذا أو ذاك.

ومن المناسب أنّ نسوق بعض الحوادث في هذا السياق، مما تسالم عليه السنة في موارد، والشيعة في موارد.

الحادثة الأولى: ما رُوي أنّ أبا بكر قال لابنته عائشة، لما حضرته الوفاة، عن حملٍ في بطن زوجة له: إنما هما أخواك وأختاك. فقالت عائشة: هذان أخواي، محمد وعبد الرحمن، فمن أختاي فليس لي إلا أسماء؟! فقال: زوابط ابنة خارجة [وهي زوجته الحامل آنذاك، والتي لم تلد إلا بعد وفاته]، وقد ألقي في روعي أنها جارية. فولدت أم كلثوم[٢].

فهذا حديث عن غيب، لأنه يتناول شيئاً لم يره المتكلم، ويرتبط ارتباطاً مباشراً بما تناولته الآية مورد البحث، وهو ما في الأرحام، ولا نكير

(١) عون المعبود، ج ١١، ص ٢٠٦.

(٢) تنوير الحلك، ص ١٣، نشر مكتبة الحقيقة، استانبول، تركيا، سنة ١٤٠٦ هـ، نقلاً عن برنامج مكتبة أهل البيت عليهم السلام.

من أحد على هذا الكلام، على الأقل ممن نقل الحادثة مرتضياً مضمونها، كابن باطيش والسيوطي.

الحادثة الثانية: ما رُوي مستفيضاً عن عمر بن الخطاب في قصة سارية حيث كان مشغولاً بالخطبة في المدينة، فإذا به ينادي سارية، وهو بنهاوند، بقوله: يا سارية! الجبل الجبل![1].

وهذه الحادثة كما هو واضح علمٌ بالغيب لأنّ المسافة بين المدينة ونهاوند لا تتيح للإنسان عادةً لمن كان بالمدينة أنّ يطلع على ما يجري بنهاوند، فهي ـ إذاً ـ كرامةٌ تتضمّن نوعاً من العلم بالغيب بشيء من التجوز، لأنّ علم الغيب هو إخبار جزمي ناشئ عن إطلاعٍ وإحاطةٍ، أمّا التخمين والظن وإن أصاب فلا يصحّ تسميته بـ(علم الغيب).

وأمّا ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فخارج عن حدّ الإحصاء. فقد شحنت الأسفار والكتب بالحوادث والإخبارات التي لا مناص من الإذعان بتواترها إجمالاً، ويكفي الرجوع إلى موسوعتي:

١ ـ إثبات الهداة في المطبوع في ستة مجلدات.

٢ ـ مدينة المعاجز للمحدّث السيد هاشم البحراني المطبوع في ثماني مجلدات.

دون أنّ ندعي أنّ النبي صلى الله عليه وآله أو أهل بيته الأئمة الأطهار عليهم السلام يعلمون بالغيب استقلالاً. وقد أكّد على ذلك كبار علمائنا الذين تناولوا هذه المسألة بالحث والدراسة. فالشيخ الكُلَيني مثلاً عقد باباً بعنوان (باب نادرٌ

---

(١) م ن.

في الغيب)، أورد فيه عدداً من الروايات عن آل البيت يحدد طبيعة ما يعلمون في هذا الباب، نقف عند بعضها:

النص الأول: ما رواه بسنده عن معمر بن خلاد قال: سأل أبا الحسن عليه السلام رجلٌ من أهل فارس، فقال له: أتعلمون الغيب؟! فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: يُبسَط لنا العلمُ فنعلم، ويُقبض عنا فلا نعلم. وقال: سر الله عزّ وجلّ أسرَّه إلى جبرئيل عليه السلام، وأسرَّه جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله، وأسرَّه محمدٌ إلى مَن شاء الله[1].

والرواية ظاهرةٌ في سعة علمهم، وأنهم ورثوا علم رسول الله صلى الله عليه وآله، غير أنّ ذلك لا يُعد علم غيب حقيقةً، وإن كان يؤدّي دوره في كثير من الأبعاد والجوانب.

النص الثاني: بسنده عن سدير الصيرفي قال: سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام: عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، قال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ ابتدع الأشياء كلّها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون، أمّا تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[3].

فقال له حمران: أرأيت قوله جلّ ذكره: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[4].

---

(١) أصول الكافي، كتاب الحجة، باب نادر في الغيب، الحديث ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٧، وسورة الأنعام، الآية: ١٠١.

(٣) سورة هود، الآية: ٧.

(٤) سورة الجن، الآية: ٢٦.

فقال أبو جعفر عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[١]، وكان والله محمدٌ ممن ارتضاه.

وأمّا قوله ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ فإنّ الله عزّ وجلّ عالم بما غاب عن خلقه في ما يقدر من شيء، ويقضيه في علمه قبل أنّ يخلقه، وقبل أنّ يفضيه إلى الملائكة. فذلك يا حمران، علمٌ موقوفٌ عنده، إليه فيه المشيئة، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه. فأما العلم الذي يقدِّره الله عزّ وجلّ فيقضيه ويمضيه، فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ إلينا[٢].

وهو نصّ مفتاحي يحدد منهجاً أصيلاً في قراءة الفكر الإسلامي كما جاء من عند الله تعالى، وفيه أورد عدداً من الحقائق:

الحقيقة الأولى: أنّ الله تعالى خلق العالم ابتداعاً من غير محاكاة لخلق سابق.

الحقيقة الثانية: أنّ في هذا العالم غيباً وشهادةً.

الحقيقة الثالثة: أنّ العلم بالغيب نوعان:

النوع الأول: ما يختص بالله تعالى. وهو ما يرتبط بالأشياء قبل أنّ تُقَدَّر وتُخلق.

النوع الثاني: ما يمكن أنّ يفيضه تعالى على بعض عباده. وهو العلم بالأشياء بعد أنّ تقدر وتخلق.

الحقيقة الرابعة: أنّ المُفاض عليهم بعض علم الغيب هم المرتضَوْن من

---

(١) سورة الجن، الآية: ٢٧.

(٢) أصول الكافي، كتاب الحجة، باب نادر في الغيب، الحديث ٢.

قِبَل الله، أي الرسل عليهم السلام، ومن يقوم مقامهم من الأئمة، ومنهم أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين وصل إليهم ما وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من علم.

وبهذا النصّ المتين يتبين لنا سعة علم أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، ومع ذلك فقد ورد التشديد منهم على عدم القول إنهم يعلمون الغيب، كما في:

النص الثالث: وهو ما رواه الشيخ الكُلَيني بسنده عن عمّار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام، يعلم الغيب؟ فقال: لا! ولكنّ إذا أراد أنّ يعلم الشيء أعلمه الله ذلك)[1].

وعلى كلّ حال، فالشواهد على وقوع إخبارات بالغيب كثيرةٌ، لا يمكن إنكارها بالمطلق. أجل، يمكن التحفظ على تفاصيل المفردات المروية، لضرورة التثبت من أربع جهات:

الجهة الأولى: صحة النقل ودقته.

الجهة الثانية: وثاقة الناقل.

الجهة الثالثة: إمكان المنقول من حيث عدم استحالته عقلياً.

الجهة الرابعة: عدم منافاة المنقول مع ما هو مسلَّم في النصوص الشرعية.

فإذا توفر الأمر على هذه الجهات الأربع فلا مانع من التسليم بعلم الغيب، وهو المسمّى أحياناً إعجازاً، في الأنبياء، وكرامةً في الأولياء.

---

(١) م ن، الحديث ٤.

ما قلَّ ودلَّ:

لعلّ من أجمع وأفضل ما قيل من علماء الإمامية في هذه المسألة، ما خطته أنامل المفسر الطبرسي في كتابه العظيم (مجمع البيان)، رداً على بعض من دأب على الافتراء على أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ بأنهم يقولون إنّ أئمتهم يعلمون الغيب، قال ما هذا نصه:

لا نعلم أحداً منهم [الإمامية] استجاز الوصف بعلم الغيب لأحدٍ من الخلق، فإنما يستحق الوصف بذلك مَن يعلم جميع المعلومات، لا بعلمٍ مستفادٍ. وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته، لا يشركه فيها أحدٌ من المخلوقين.

ويضيف إلى ذلك قولاً حاسماً في حقّ من يرى خلاف ذلك، ويقول: (ومن اعتقد أنّ غير الله سبحانه يشركه في هذه الصفة، فهو خارجٌ عن ملة الإسلام).

ولا يكتفي بتحديد الموقف النظري، بل يزيده إيضاحاً بتبيين خلفية ما يُروى عن أهل البيت عليهم السلام من ملاحم وإخبار بالمغيبات، وذكر نماذج منها، معقباً عليها بقوله:

فإنّ جميع ذلك متلقًّى عن النبي صلى الله عليه وآله، مما أطلعه الله عليه.

فلا معنى لنسبة مَن روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنه يعتقد كونهم عالمين للغيب. وهل هذا إلا سببٌ[1] قبيحٌ، وتضليلٌ لهم، بل تكفيرٌ لا يرتضيه مَن هو بالمذاهب خبيرٌ، والله يحكم بينه وبينهم، وإليه المصير[2].

---

(١) كذا في المصدر، ولعله يريد [سبٌّ]، وهو الأنسب بالمقام والمقصود.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ذيل الآية ١٢٣ من سورة هود، ج ٥. ص ٣١٣. ط دار المعرفة، =

وهو كلام دقيق مأخوذ من أهل الحقّ الحقيق عليهم السلام، فقد روى الشيخ محمد بن الحسن الصفار في كتابه بصائر الدرجات، بسنده عن الأصبغ ابن نباته، قال:

سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّ لله علمين، علمٌ استأثر به في غيبه فلم يُطلع عليه نبياً من أنبيائه ولا ملَكاً من ملائكته، وذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[1]. وله علمٌ قد أطلع عليه ملائكته. فما أطلع عليه ملائكته فقد أطلع عليه محمداً وآله، وما أطلع عليه محمداً وآله فقد أطلعني عليه. يعلمه الكبير منا والصغير إلى أنّ تقوم الساعة)[2].

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه[3].

= بدون تاريخ.

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) بحار الأنوار، كتاب الإمامة، باب أنهم عليهم السلام لا يعلمون الغيب ومعناه، الحديث ٣.

(٣) تمَّ ولله الحمد والمنَّة الفراغ من تدوين هذا الكتاب وتصحيحه بتاريخ ١٤٢٩/٢/١٩ هـ، وكان الشروع فيه يوم ١٤٢٨/٨/١٧هـ، مع توقف اضطراري لمدة شهرين، وقد لمست في تأليفه من عنايات الله وألطافه ما لا أقدر على ذكره وشكره فله تعالى الحمد أولاً وآخراً.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

برنامج مكتبة أهل البيت عليهم السلام الصادر عن مركز المعجم الفقهي، الإصدار الثالث. وقد كان هو المصدر الرئيس في هذه القائمة، فقد استفدنا منه في البحث عن النصوص والشواهد ونقلها.

- برنامج جامع التفاسير، إصدار . . .
- نهج البلاغة خطب وكلمات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام جمع الشريف الرضي (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ).
- الكافي (الأصول، والفروع، والروضة) للشيخ محمد بن يعقوب الكُلَيني (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ).
- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للمحدث محمد بن الحسن الحر العاملي (المتوفى سنة ١١٠٤ هـ).
- نور الثقلين للشيخ عبد علي الحويزي. (المتوفى سنة ١١١٢ هـ).
- الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (المتوفى سنة ١٤٠٢ هـ).
- تفسير راهنما، للشيخ أكبر هاشمي رفسنجاني وآخرين (معاصر). نشر

مركز فرهنك معارف قرآن.

- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي. (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ).
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ) الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت .
- تفسير نور، للشيخ محسن قراءتي (معاصر) .
- تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين. الطبعة: الأولى ١٤٢٢ ـ ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية.
- تفسير البرهان، المحدّث السيد هاشم البحراني.
- تفسير القرآن الكريم، الملا صدر الدين الشيرازي (المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ).
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري (المتوفى سنة ١٤١٥ هـ). مؤسسة المنار.
- الجامع لأحكام القرآن ، [تفسير القرطبي]، المؤلف محمد بن أحمد القرطبي (المتوفى سنة ٦٧١هـ)، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني. بدون تاريخ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.
- روح المعاني، السيد محمود الألوسي (المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ)، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥ ـ ١٩٩٤ م .

- (لمسات فنية في سورة لقمان) بحث للدكتور فاضل السامرائي.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢ هـ.
- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، د . زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ ـ أكتوبر ٢٠٠٧ م.
- هداية العلم في تنظيم غرر الحكم، للباحث سيد حسين شيخ الإسلامي.
- مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ). الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.
- رياض السالكين في شرح الصحيفة السجادية، للسيد علي خان المدني الشيرازي (المتوفى سنة ١١٢٠ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ.
- مستدرك سفينة بحار الأنوار، للشيخ علي النمازي الشاهرودي (المتوفى سنة ١٤٠٥هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ١٤١٨ هـ.
- مجلة (عالم السعودية)، عدد يوليو ٢٠٠٧ .
- موقع (www.pr.sv.net) على الشبكة العنكبوتية.
- مجمع البحرين، لفخر الدين الطريحي (المتوفى سنة ١٠٨٥ هـ) تحقيق: السيد أحمد الحسيني. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، الناشر مكتب نشر الثقافة الإسلامية.
- العلم والحكمة في القرآن والسنة، للشيخ محمد الريشهري (معاصر).

مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم ـ إيران.

- شرح أصول الكافي، للمولى محمد صالح المازندراني (المتوفى سنة ١٠٨١ هـ).
- بحار الأنوار، للمحدث محمد باقر المجلسي (المتوفى سنة ١١١١ هـ).

المحاسن، للشيخ أحمد بن محمد البرقي (المتوفى سنة ٢٧٤ هـ) تصحيح وتعليق السيد جلال الدين الحسيني (المحدث) سنة الطبع: ١٣٧٠ هـ. الناشر دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

- الجامع الصغير، للشيخ جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ) الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.
- التوحيد، الشيخ علي بن الحسين الصدوق (المتوفى سنة ٣٨١ هـ)، تصحيح وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ علي بن الحسين الصدوق (المتوفى ٣٨١ هـ). تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، سنة الطبع: ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ م، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة.
- المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، أويس كريم (معاصر)، سنة الطبع ١٤٠٨ هـ، مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة، الناشر:

مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد ، إيران.

- من لا يحضره الفقيه، الشيخ علي بن الحسين الصدوق، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. الطبعة الثانية. الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- تحف العقول عن آل الرسول عليهم السلام، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤٠٤هـ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- موسوعة العقائد الإسلامية، الشيخ محمد الريشهري، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث. الطبعة الأولى، سنة الطبع : ١٤٢٥هـ، الناشر: دار الحديث للطباعة والنشر.
- معاني الأخبار، الشيخ علي بن الحسين الصدوق، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، سنة الطبع : ١٣٧٩ هـ، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- الموسوعة الفقهية الميسرة، الشيخ محمد علي الأنصاري (معاصر)، الطبعة الأولى، سنة الطبع : ١٤١٥هـ، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي.
- معجم مقاييس اللغة، مادة (وصى).
- القواعد والفوائد، الشهيد الأول (الشهيد سنة ٧٨٦ هـ)، تحقيق: السيد عبد الهادي الحكيم، بدون تاريخ، منشورات مكتبة المفيد ـ قم ـ إيران.
- كتاب الغارات، المؤلف إبراهيم بن محمد الثقفي (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ)، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، بدون

تاريخ، طبع على طريقة أوفست في مطابع بهمن.

- غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام، تحقيق السيد علي عاشور، بدون تاريخ.
- تحرير الأحكام، المؤلف الحسن بن يوسف الحلي [العلامة الحلي]، (المتوفى ٧٢٦ هـ)، تحقيق الشيخ إبراهيم البهادري / إشراف: جعفر السبحاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٢٠هـ، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
- تذكرة الفقهاء، المؤلف الحسن بن يوسف الحلي [العلامة الحلي]، (المتوفى سنة ٧٢٦ هـ)، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٤هـ.
- الصلاة في الكتاب والسنة، للشيخ محمد الريشهري.
- العروة الوثقى، للفقيه السيد محمد كاظم اليزدي.
- جامع أحاديث الشيعة، للفقيه السيد حسين البروجردي.
- فقه المسؤولية الاجتماعية للمؤلف (مخطوط).
- عوالي اللآلئ. ابن أبي جمهور الإحسائي (المتوفى سنة ٨٨٠ هـ)، تحقيق الحاج آقا مجتبى العراقي. الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.
- صحيح البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ)، سنة الطبع: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- تحرير الوسيلة، الإمام روح الله الخميني، (المتوفى سنة ١٤٠٩هـ)، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٣٩٠هـ، مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف، مؤسسة

مطبوعاتي إسماعيليان ـ قم ـ إيران.

- نهج السعادة، الشيخ محمد باقر المحمودي، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.
- جامع السعادات، الشيخ محمد مهدي النراقي، (المتوفى ١٢٠٩ هـ)، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، بدون تاريخ، الناشر دار النعمان للطباعة والنشر.
- التحقيق في كلمات القرآن، السيد حسن المصطفوي (معاصر)، نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي بالجمهورية الإسلامية في إيران.
- بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، نشر مكتبة الباز بمكة المكرمة.
- مصباح المتهجد، الشيخ أبو جعفر الطوسي، (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ)، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١١ ـ ١٩٩١ م، الناشر مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت ـ لبنان.
- الأمالي، الشيخ أبو جعفر الطوسي، (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٤هـ، الناشر دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم.
- ميزان الحكمة، الشيخ محمد الريشهري (معاصر)، تحقيق ونشر دار الحديث، الطبعة الأولى.
- الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، المؤلف مسلم النيسابوري، (المتوفى سنة ٢٦١ هـ)، بدون تاريخ، الناشر دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.
- سنن الدرامي، المؤلف عبد الله بن بهرام الدارمي (المتوفى سنة ٢٥٥

هـ)، سنة الطبع: ١٣٤٩هـ، مطبعة الاعتدال ـ دمشق، طبع بعناية محمد أحمد دهمان.

- مسند أحمد، المؤلف الإمام أحمد بن حنبل، (المتوفى سنة ٢٤١ هـ)، بدون تاريخ، الناشر دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.
- علل الشرائع، الشيخ الصدوق (المتوفى سنة ٣٨١هـ)، سنة الطبع ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦ م، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ـ النجف الأشرف.
- شرح إحقاق الحق، المتن للقاضي نور الله التستري (الشهيد سنة ١٠١٩ هـ)، والتعليق والشرح للسيد شهاب الدين المرعشي (المتوفى سنة ١٤١١ هـ)، تصحيح: السيد إبراهيم الميانجي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ـ قم ـ إيران.
- الصراط المستقيم ـ دراسة تحليلية لوصية النبي الأعظم ﷺ لصاحبه أبي ذر ﵁، للمؤلف حسن النمر (معاصر)، مخطوط.
- (التقوى والمتقون في القرآن الكريم)، للمؤلف، بحث نشر في مجلة رسالة الحرمين سنة ١٤١٠ هـ.
- مجمل اللغة، لابن سيده.
- موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، للدكتور روحي البعلبكي (معاصر).
- قاموس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، للباحث سمير شيخاني (معاصر).

الفهرس

الفصل الثاني